فالح مهدي

تاريخ الجنة





اسم العمل:تاريخ الجنة

المؤلف: فالح مهدي

الناشر:

بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:

2025 / 2133

الترقيم الدولي:

9789778173161

الطبعة الأولى 2025

الإشراف العام:

زياد إبراهيم

المراسلات:

الدور الثاني شقة 3

71 ب حدائق الأهرام البوابة الأولى -

ميدان الرماية - الجيزة

البريد الالكتروني:

baitelyasmin@gmail.com

ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-

(+202) 01016685583

(+202) 01110094625

www.yasmin-pub.com

فالح مهدي

تاريـخ الجنـة

تمهيد

يمثل هذا الكتاب (تاريخ الجنة) الجزء الثاني من كتابي (تاريخ الخوف) الذي صدر عن بيت الياسمين في عام 2020. كان هذا البحث يركُن في مكتبتي الرقمية منذ عدة سنوات، بل قبل تاريخ الخوف، ولكن الظروف هي ما تحفّز الباحث لمعالجة موضوع ما دون غيره، وهذا ما حصل. فبعد تاريخ الخوف، وجدت أن هناك ضرورة لمعالجة الفكر الشيعي المأزوم.

موضوع النار والجنة من أهم الأعمدة التي قامت عليها الديانات التوحيدية، لذا فإن فتح أبواب الجحيم والجنة يمثل خطوة مهمة لفهم الأيديولوجية الدينية.

إنما وجدت -وقبل الولوج في قلب الجنة- طرح السؤال التالي: (قراءة في الجذور الأولى للدين، كيف ولدت الأديان ولماذا)؟

ففي تقديري لا يمكننا فهم مفاهيم الجنة والنار والتي تمثل نتيجة أفعال وليست أسبابًا دون فهم جذور الدين. من أين جاء؟ ولماذا لم تنل منه هذه القرون الطويلة؟ بل البحث عن ولادته إن جاز التعبير.

هذا السؤال المتعلق بجذور الدين يمثل الفصل الأول من هذا البحث. فبدون الإجابة عن هذا السؤال: (كيف ولدت الأديان؟ ولماذا)؟ لن نتمكن من طرح موضوع الأمل بحياة ثانية أبدية وخالدة، ولن يشيخ بها الإنسان، ولن يمرض... إلخ...

الأمل الذي تحول إلى جنة في الديانات التوحيدية كان من أهم النتائج التي أتى بها هذا المفهوم.

****

لم أشأ معالجة كلا الموضوعين (الجنة والنار) في كتاب واحد والسبب أن الجنة

كمفهوم تُعبّر عن (المكافأة) التي ينالها العبد المؤمن من قبل ربه الدائري والذي صاغته الأيدولوجية الدينية، باعتبارها العارف الوحيد بهذا الرب ووكيلته في الأرض. والعقاب الأبدي المتمثل بدخوله أبواب الجحيم وإلى أبد الآبدين في بعض الديانات ومنها الإسلام، حيث تم التلاعب بهذا المفهوم على ضوء أيديولوجية الفِرق والمذاهب، فمن لا يعترف بعلي عند الشيعة الاثني عشرية، الخليفة الوحيد لرسول الله وإمامًا، على سبيل المثال فسيكون مصيره نار جهنم وإلى الأبد.....

كلا المفهومين ينبعان بل يقومان على عمود فقري واحد يتمثل بالخوف: الخوف من الجحيم والخوف من عدم دخول الجنة.

ولتجنب العقاب الأبدي ما عليك إلا القيام بالفرائض الخمس التي اقتضاها الدين الإسلامي وطاعة أولياء الأمر مهما بلغوا من ظلم.

في هذه الدراسة سنقوم كما فعلنا في أعمالنا السابقة بالعودة إلى الوراء لفهم جذور مفاهيم الجنة. من أين جاءت أفكار الحياة بعد الموت؟ وكيف تمكنت من فرض وجودها كحقائق مطلقة؟

نحن هنا أمام مفهوم المقايضة الذي رسم مسيرة الأيديولوجيات الدينية ولا سيما تلك التي تطلق على نفسها (توحيدية)[1].

فلكي تدخل الجنة عليك القيام بكذا وكذا، ولكي تتجنب النار عليك القيام بما أمرت به لتجنب نار جهنم الأبدية.

هنا نجد العقاب والثواب كلاهما أبدي، والسبب هو أننا أمام حيز لا يقبل المساواة فيما يتعلق بالعبد البائس، إنما نجد هذا الرب وعلى ضوء نفس تلك الأيديولوجية متسامحًا عند البعض ومغمض العينين أمام كبار السفاحين والقتلى ممن ارتكب أبشع الجرائم بحق شعوبهم، والسبب هو أنهم بنوا جامعًا هنا وهناك....

لم يكن الإسلام والحديث النبوي المبادر لإغناء ثقافة الجنة، فقد سبقه إلى ذلك اليهودية والمسيحية.

ركزت في هذا البحث على الجنة المسيحية والجنة الإسلامية، نظرًا لغنى

1- راجع كتابنا البحث عن جذور الإله الواحد: نقد الأيديولوجية الدينية، بيت الياسمين الطبعة الثالثة 2021.

المادة التي تناولت هذا الموضوع. فسرديات الجنة المسيحية هي من سمحت للنقد المعاصر -وبدءًا من القرن السادس عشر- من التصدي لها، بل ساهمت تلك السرديات بخلق ذلك الشرخ الكبير فخرجت البروتستانتية من الفهم الذي أقامته الكنيسة الرومانية والمؤسسات البابوية، فأصبح أمامنا وبدءًا من القرن السادس عشر مذهب يقوم على مفهوم الإيمان بأن الكتاب المقدس فقط -وليس البابوات ولا التقاليد- هو مصدر المسيحية. فلكل مسيحي الحق بقراءة الكتاب المقدس وفهمه دون الاعتماد في ذلك على فهم البابوات.

****

وحتى يأخذ هذا البحث مداه، لم أتوقف عند السرديات التوحيدية المقدسة، بل قمت وعلى ضوء مفهوم الأمل بقراءة ونقد مفاهيم الجنة الأرضية في العصر الراهن، فكما نعلم هناك الجنة التي صممها كارل ماركس ورفيقه فريدريك أنجلز، حيث سينتهي التاريخ بقيام (الجنة الشيوعية)!

العصر الراهن متمثلًا في أوروبا الغربية والولايات المتحدة أنتج ثقافة يمكن اعتبارها البحث عن الجنة أو الوصول إليها. فكما يذهب الكاتب الأمريكي فرانسيس فوكو ياما وعبر كتابه (نهاية التاريخ) إلى اعتبار المرحلة الليبرالية بقيمها القائمة على مبادئ الحرية، الفردية، السيادة الشعبية، ومبادئ الليبرالية الاقتصادية، تُشكّل مرحلة نهاية التطور الأيديولوجي للإنسان. ومع أنه تنازل عن أفكاره تلك، إنما لا زال هناك يقين -عند عدد كبير من المفكرين الغربيين- أن هذه المرحلة تمثل نهاية التاريخ.

لقد سادت أفكار التقدم وأخذت طابعًا ثوريًا بدءًا من القرن التاسع عشر -كما سنرى ذلك في خاتمة هذا الكتاب. ولم تفتني الإشارة إلى الحركات المعادية للرأسمالية في منتصف الستينات من القرن الماضي، كانتفاضة الشباب في فرنسا في عام 1668. وكذلك حركة الهيبز Hippies في الولايات المتحدة في ستينات وسبعينات القرن الماضي كظاهرة احتجاج وتمرد على قيادة الكبار ومظاهر المادية النفعية وثقافة الاستهلاك، بل مناهضة القيم الرأسمالية.

****

هل للجنة تاريخ؟ سألني صديق مؤمن ومثقف مرموق. كان جوابي نعم هناك تاريخ للجنة فهي لم تبدأ وتقوم وتصبح على ما هي عليه الان إلا مع الديانات التوحيدية، واولها الزرادشتية ومن ثم اليهودية والمسيحية والإسلامية.

لم تقم أفكار الجنة إلا على أفكار الأمل وهي قديمة بل قد تمتد الى مليون سنة، إنما الدين الوحيد حسب علمي الذي صاغ مفاهيم وأدبيات الأمل هو الدين المصري القديم. فكتاب الموتى الذي صاغته العقلية المصرية يقدم مادة في غاية الأهمية عن أفكار الأمل.

قد يجد بعض المؤدلجين ولاسيما ممن يؤمن بأفكار التقدم التي سادت في القرن التاسع عشر مادة لا تتفق مع توجهاتهم وفهمهم، إنما أجد أن من حقي المطلق التعبير عن قناعاتي دون مواربة.

الفصل الأول
قراءة في الجذور الأولى للدين

في التمهيد الذي ورد في كتابي (نقد العقل الدائري قلت: «إن الإنسان (حيوان ديني) أولًا قبل أن يكون (حيوانًا سياسيًا) كما ورد في كتابات أرسطو». لا أمتلك هنا إلا التأكيد على ذلك.

ففي عصور ممعنة في القدم بما نطلق عليه علميًا البدايات الأولى للإنسان الذي اختط طريقًا آخر وابتعد عن ابن عمه الشامبانزي، هناك أكثر من إشارة قد تصل إلى حد البرهان إلى انشغال ذلك الإنسان الذي عاش قبل أكثر من نصف مليون سنة، بمسألة الموت والحياة بعد الموت.

فبعد أن خرج ذلك الإنسان من هم الحصول على الطعام وتوسع دماغه، أصبحت بعض الأسئلة حاضرة في حياته اليومية: لمَ الولادة؟ ولمَ الموت؟ بل وصل به الأمر إلى صناعة أمل بعد الموت. وهذا أمر يحمد عليه ويؤكد قدرته على التفكير والتأمل.

لقد تمكن من احتواء مفاهيم الولادة، فهي لم تشكل أمام الغالبية من أبناء ذلك العصر همًا يدعو إلى التفكير والتساؤل، إنما الإشكال -كل الإشكال- يتمثل بالموت. الولادة تمثل حضورًا، في حين يعبر الموت عن غياب وفقدان من نحب وإلى الأبد. الولادة تعبر عن فرح لا سيما إذا كان المولود ذكرًا، والموت يعبر عن حزن بفقدان من مات ولا سيما إذا كان في مستقبل العمر.

ليس بمقدورنا أن نضع تاريخًا افتراضيًا لبدايات الدين، لكننا نجد آثاره في عصر الصيد وجمع القوت، بل يعتقد أيف كوبانس عالم حفريات ما قبل التاريخ (بليونتولوجي)، أن مفهوم المقدس بدأ مع أول قطع وتهذيب للحجر. فبإمكاننا أن نفرق بين الأحجار التي جمعها الإنسان الأول بسبب أشكالها

المتميزة أو لجمالها، وبين تلك التي جمعت من أجل إقامة رمز له مواصفات فيها قدر كبير من الغموض[2].

في البداية لم يكن لدماغ ذلك الإنسان سوى وظيفة واحدة، تلك التي تمكنه من أن ينجو من الموت عبر حصوله على الطعام، وذلك بصيد الحيوانات وتوصله إلى معرفة أي الحيوانات جدير بالصيد. ومن ثم تجّنب افتراسه من أحد الحيوانات الضارية.

في اللحظة التي ظهر فيها للوجود ذلك الكائن قبل ثلاثة ملايين سنة، مرت كل أفريقيا الاستوائية بتبدل مناخي، إذ فوجئ إنسان تلك الفترة بالجفاف من حوله، مما أدى إلى ظهور السافانا (حشاش طويلة تنتشر في السهول المدارية)، وتراجع الغابات بالتدريج.

في مواجهة ذلك التحول المناخي، لم يكن أمامه إلا التكيف مع المعطيات الطبيعية الجديدة. تلك المعطيات دفعت بمخّه إلى أن يتطور كما إن أسنانه أصبحت قادرة على التهام اللحوم النيئة، في حين تمثل ذلك التطور عند الحيوانات الأخرى من الثديات ولنفس الأسباب في تبدل أسنانها أو أقدامها. لا يمكننا التأكد من أن الوعي بدأ من تلك اللحظة، بل القدرة على «التفكير»[3]

هذا الإنسان الذي ينتمي إلى الثديات، لم يقم بتنظيم أي شيء عبر تاريخه الممعن في القدم أكثر من تنظيمه للمقدس عبر الفكر، والتأمل والممارسة.

وفي تقدير العالم الفرنسي كوبانس، يمكننا أن نستدل على المقدس عند ذلك الإنسان الأول عبر البحث عن ابتكاراته المتمثلة بصقل الحجر بحثًا عن جمال تضيفه مخيلته عبر تلك العملية، والتي لا يجني منها شيئًا ماديًا ينفعه في يومه وفي قوته. عثر على تلك الأحجار في أفريقيا برؤوس حيوانات أو كائنات بشرية. البعض الآخر من تلك الأحجار عثر عليه في فلسطين (تعود إلى 280000 سنة). هناك موقع هندي فيه آثار مذهلة عن بلورات لصخرة تعود إلى أكثر من 500000 سنة، وكذلك الأمر في فرنسا (يقدر عمر تلك الأحجار بـ 100000 سنة) وهناك آثار أخرى في إنجلترا، إيطاليا، سلوفاكيا والتشيك... إلخ.

2- Yves Coppens, La Vie des Premiers Hommes, Odile Jacob, 2010.

3- Ibid, p17

كيف ولدت الأديان ولماذا؟

بعد تلك الكلمة عن الإنسان الأول، دعونا نحاول الآن، على أساس الملاحظات العلمية، رسم سيناريو تطوري، وبالتالي دمج سهم الزمن، مع الاعتراف بأنه سيكون تخمينيًا جزئيًا، خاصة فيما يتعلق ببعض الأمور.

في الواقع، يمكن لهذا النهج أن يلقي ضوءًا مثيرًا للاهتمام على الآليات التفسيرية الموضحة أعلاه. لكي نفهم كما يؤكد أرسطو، ما علينا إلا العودة إلى الأصول.

إن مفهوم (طفولة الدين) يتعلق في الواقع بالجنس البشري، لكن الإنسان ككائن حي، كان نتيجة من نتائج هذه الحياة، والتي بدأت ومنذ 4 مليارات سنة، واستمرت في التحول، الذي فرضته الطبيعة، ومن أجل البقاء، كانت ولا زالت الكائنات الحية تقوم بالتكيف مع التغيرات المستمرة في بيئتها.

وولادة الأديان تستحق في الواقع أن تُدرس، بطريقة مبتكرة، من خلال منظور (النظام المعقد). أي عبر عدة اختصاصات: الأنثروبولوجيا، وعلم الآثار، وعلم آثار الحيوان، والإثنوغرافيا، والإثنولوجيا، وعلم الأخلاق، وعلم الوراثة، وعلم الجينوم، وتاريخ الأديان، واللسانيات، وعلم الحفريات، وعلم الرئيسيات، علم النفس «خاصة المعرفي أو التنموي»، وعلم الاجتماع «بما في ذلك التخصصات الفرعية الجديدة: علم الاجتماع التطوري، وعلم الاجتماع العصبي»، وعلم الحيوان...... إلخ).

ويجب أيضًا تحليل ظهور الأديان، وقبل كل شيء، من خلال الدراسات التي تستخدم مفهوم الانتقاء الطبيعي، بمعناه الموسع الحالي. التطور الذي أصبح حقيقة علمية يقر بها كبار رجال الدين في العالم والكاثوليكية على رأسها (عدا الإسلام حسب علمي)، يحدث استجابة للتغيرات في البيئة وأثرها العظيم في سلوكه وثقافته.

هذه الظاهرة، التي نسميها التطور، محكومة إلى حد كبير بما أسماه داروين الانتقاء الطبيعي، حيث أن نجاح طفرة عشوائية يكون أكثر ملاءمة من طفرة أخرى، بالصدفة، للبيئة الجديدة التي كانت متاحة لها. وبالتالي فإن هذه الشجرة تقودنا من الأصل العميق للحياة إلى جميع الكائنات الحية اليوم، بما

في ذلك، من بين أمور أخرى، ظهور عائلتنا، عائلة الإنسان.

لقد أدى تغير المناخ بالفعل إلى تقسيم البيئة الموحدة لهؤلاء الأسلاف إلى قسمين، وقسّم أحفادهم إلى عائلتين فرعيتين، عائلة الشمبانزي وعائلتنا. ومع ذلك، فإن دراسة أحفاد الشمبانزي الحاليين، أقرب أبناء عمومتنا، كشفت لنا للتو أنهم اخترعوا الثقافة، وأنهم حتى خلقوا الطقوس! لدينا إذن إجابة على السؤال المزدوج الأول: (أين ومتى ظهرت الأديان)؟ فمن المحتمل أنها ظهرت في أفريقيا الاستوائية قبل 10 ملايين سنة، ولكن ربما ظهرت أيضًا في مكان آخر، وربما قبل ذلك أيضًا.

هذه هي الطريقة التي سيظهر بها، عن طريق الصدفة، مستوى أعلى من الوعي ولغة أكثر تفصيلًا في هذا الكائن أي الإنسان. هذا الدماغ الجديد به رعب عن فراغ المعنى، والذي سيقود خطانا لمعرفة أصل القلق الوجودي والدين الناتج عنه.

وهكذا يظهر الدين كعنصر رمزي للطبيعة، كما كتب روبرت هامايون[4]، وهو ظاهرة ثقافية ذات جذور بيولوجية عميقة، ونتاج غير مباشر ولكن لا جدال فيه للانتقاء الطبيعي.

في ذلك الوقت، منذ حوالي 3 ملايين سنة، في أفريقيا الاستوائية، ولأسباب مناخية مرة أخرى، أصبح إنسان ما قبل الإنسان (أي القريب جدًا من الشمبانزي)، الإنسان الذي سيدفعه تكيفه مع البيئة إلى أن ينتج حضارات عظيمة الشأن وأن يطور تفكيره ومخيلته إضافة إلى إرادته، في أن يصل إلى ما هو عليه اليوم.

سيمنح الانتقاء الطبيعي هذا الإنسان - وبدءًا من العصر الحجري القديم إلى العصر التكنولوجي- دماغًا أكبر حجمًا أولًا، وأكثر تعقيدًا، وأفضل اتصالًا بين خلاياه، فأصبح بلا شك قادرًا على التفكير في آلاف الحيل لتجنب أسنان الحيوانات المفترسة في منطقة أكثر انفتاحًا؛ كما أنه سيمنحه جهازًا تنفسيًا يتكيف بشكل أفضل مع هذه البيئة الجافة الجديدة، ويمنحه أيضًا أسنانًا

4- Hamayon R., La chasse à l'âme. Esquisse d'une théorie du chamanisme sibérien, Nanterre, Société d'ethnologie, 1990, p. 332.

أكثر ملاءمة لنظام غذائي قائم على أكل اللحوم في عالم فقد جزءًا كبيرًا من غطائه النباتي.

وهذه هي الطريقة التي سيظهر بها، عن طريق الصدفة، مستوى أعلى من الوعي ولغة أكثر تفصيلًا من أبناء عمه الشمبانزي.

فالخلية العائلية النووية ستتشكل بعد ذلك، وتبرز إحدى نقاط الخلاف في النظام الاجتماعي مع أبناء عمه الشمبانزي.

المثير للدهشة أن الفرق في المادة الوراثية بين الشمبانزي والإنسان لا يتجاوز 1.3%، بينما يبلغ 2.4% بين الشمبانزي والغوريلا.

تم تأكيد هذه الملاحظات الجينية. فيجب علينا أن نعترف بأننا نشترك سلفًا مع الشمبانزي بالذات (الذي عاش منذ أكثر من 7 ملايين سنة). وأدى ذلك إلى قيام علماء الأحياء بمراجعة نسختهم. وبحسب التصنيف التطوري المستخدم اليوم، فإن النوع البشري الحالي (الإنسان العاقل)، وكذلك جميع أسلافه وأبويه المنقرضين دون أحفاد ينتمون إلى النسب البشري، منذ انفصاله عن ابن عمه إلى الشمبانزي الحالي. أما فصيلة أسلاف الإنسان، فهي تضم الآن الإنسان والشمبانزي والغوريلا وإنسان الغاب وجميع أسلافهم وأقاربهم المنقرضين حتى سلفهم المشترك الأول. وهذه الخلية بالذات كانت ولا زالت أصل أسئلة متعددة.

بفضل الدراسات الميدانية التي أجراها عالم الأخلاق كريستوف بوش، مدير قسم علم الرئيسيات في معهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا التطورية، أورد ملاحظات تدعم حدس داروين حول جذور الدين حتى عند الحيوان.

أصبحنا نعلم الآن أن الشمبانزي لديه ثقافة تختلف باختلاف المنطقة، كما أن لديه لغة إيمائية رمزية، خاصة بثقافتهم الخاصة، وتستند فقط إلى التقاليد الاجتماعية البحتة[5].

ومن المعروف أيضًا أن أبناء العمومة المقربين يظهرون سلوكًا طقسيًا.

5- Boesch C., Wild Cultures – A Comparison Between Chimpanzee and Human Cultures, Cambridge, Cambridge University Press, 2012, p. 5, 80, 107 & 127.

وللتذكير كما يذهب كبار المختصين بتاريخ الأديان، فإن الشعائر أحد العنصرين الأساسيين لتعريف الدين!

ولكن هناك شيء أكثر إثارة للقلق؛ فقد كشفت الدراسات الأخيرة التي أجراها برنامج عموم أفريقيا بين مجموعات مختلفة من أبناء عمومتنا في غرب أفريقيا، عن طقوس غريبة، مرتبطة بأشجار معينة، على ما يبدو. وبالفعل فقد لاحظنا أن لدى الشمبانزي عادة ضرب هذه الأشجار بالحجارة، فيكّون بذلك دوائر من الحجارة، أو حتى تراكم الحجارة في التجاويف أو بين الجذور البارزة لهذه الأشجار[6]. وبالحكم على كمية الحجارة المنقولة بهذه الطريقة، فإن هذه الممارسات ليست حديثة العهد.

كيف يمكننا تفسير هذه الطقوس الدائمة؟ يقدم العلماء تفسيرات مختلفة، والتي لا تزال بحاجة إلى إثبات. ومن بين هذه التفسيرات الرمزية، كما لاحظوا أن البشر غالبًا ما يستخدمون الأهرامات الحجرية لتحديد المسار أو تحديد المنطقة. ويشيرون إلى أن المقدسات المصنوعة من تراكمات الحجارة بالقرب من الأشجار التي تعتبر مقدسة قد تم وصفها بدقة بين شعوب غرب أفريقيا. ومن ثم يمكن تفسير هذه الطقوس الغريبة، وربما الرمزية، التي يمارسها الشمبانزي على أنها متجذرة في الماضي المشترك الذي نتقاسمه معهم.

وبغض النظر عن ذلك، يدرك العلماء حاليًا قيمة دراسة الشمبانزي لفهم البشر بشكل أفضل.

****

تطور الإنسان وابتعاده عن ابن عمه الشمبانزي، أدى به أن يمتلك وبمرور الزمن دماغًا متطورًا. في هذا الدماغ الجديد رعب من فراغ المعنى. لذا جاءت الأسئلة حول الحياة، والموت، والطبيعة، والمطر، والبرق، مبكرة. ويمكن أن نفترض حتى عن أصل القلق الوجودي والدين الناتج عنه.

يتفق العلماء على أن الدين ظهر عبر تاريخ البشرية، فهو حديث قياسًا

6- 13 Kühl, H., Kalan, A., Arandjelovic, M. et al., Chimpanzee accumulative stone throwing, Scientific Report, n° 6, 22219, 2016.

بعمر الأرض وبعمر الإنسان (العاقل) الذي أتينا على ذكر بعض صفاته.

دعونا نحدد هنا أن هذا (النشوء)، الذي يعتبر عمومًا مرادفًا لـ (الولادة)، يمكن أيضًا أن يكون جزءًا من الإطار الأكثر تطلبًا لنظام معقد. لقد كشفنا بالفعل عن حقيقة مفادها أن الظاهرة الناشئة، في مثل هذا النظام، تنطوي على تفاعلات بين العديد من العوامل وتغيير الحجم. هنا، في هذه الحالة، الفاعلون، الذين سنحددهم، ينتمون إلى جنس هومو ومن المحتمل أن يكونوا مجهزين بلغة واضحة. ومع ذلك، فمن المقبول عمومًا أن البشر لديهم، وعلى نحو عفوي، طموح للروحانية، وهو ما ظهر في وقت مبكر جدًا من التطور[7].

نحن نعلم أن الأديان لم تكن موجودة دائمًا. ومن خلال العلوم الإنسانية، نعلم أن البشر عاشوا لأطول جزء من وجودهم على هذا الكوكب دون دين.

في تاريخ البشرية، تعد الأديان ظاهرة ثقافية واجتماعية حديثة جدًا، قياسًا بعمر الأرض وعمر الإنسان الأول.

رأي لإيف كوبانس عن أصل الأديان جدير بالتأمل فهو يعتقد أن الدين ولد من القلق، على عكس ما ذهب إليه باسكال بوير، الذي اعتقد أن الحاجة هي التي أدت إلى نشأة الدين. بل يؤكد هذا العالم، أن الظاهرة الدينية، مهما كان شكلها، تبين أنها مجرد تكيف؛ وهذه النتيجة، غير الاختزالية، تعني على العكس من ذلك أن محرك هذه الظاهرة انضم بالتالي إلى المحرك الذي يحرك النظام الحي بأكمله منذ نشأته. لقد أصبحت القصة بأكملها متماسكة، هذا إن لم تعد كذلك على الإطلاق.

من الجدير بالملاحظة هو أن الأديان التي يطلق عليها بدائية، تشترك مع الأديان الأكثر تطورًا ولا سيما التوحيدية، في نظرتها للكون والقوى العليا (تلك التي تسكن في السماء)، التي تتحكم بمصائرنا وبمصائر هذا الكون العظيم.

يذكر أيف كوبانس في إحدى محاضراته في كوليج دي فرنس هذه الحكاية: «لقد تأثرت كثيرًا عندما وجهت السؤال التالي: كم عدد الحيتان التي قتلتها هذا العام؟ أجابني أحد الإنويت من شواطئ بهرنج في ألاسكا: عَرَضَت عشرات الحيتان نفسها علينا هذا العام»!

7- Yves Coppens, La Vie des Premiers Hommes, Odile Jacob, 2010, P 79.

هذا الجواب يعني أنني لم أصطد أيًا من هذه الحيتان، فقد منحتها لنا القوى العليا.

العصر الراهن والدراسات العظيمة ومنذ القرن التاسع عشر، سمحت لنا أن نكون على قدر من المعرفة بولادة الأديان في تاريخ البشرية. هذه المعرفة الجديدة للأديان كظاهرة روحية، بالتأكيد، ولكن أيضًا وقبل كل شيء كظاهرة اجتماعية وثقافية نظّمت وكتبت تاريخ الحضارات حتى يوم أمس في هذا الغرب الذي شق طريقًا آخر في المسيرة الإنسانية، فالثورة الصناعية التي صاحبت عصر الأنوار والدراسات الإنسانية ولا سيما الفلسفة، أدخلت العالم في عصر جديد لم يعرفه سابقًا.

اضطر الدين كمؤسسات أن يفسح المجال للأنظمة المعرفية في كافة العلوم أن تقول كلمتها، ولم يعد بإمكانه كمؤسسات أن يحاكم ويدين من يشاء بحجة خروجه على الأيدولوجية الدينية، بل اعترف يوحنا بولص الثاني والذي كان زعيم الكنيسة الكاثوليكية من عام 1978 إلى 2005، إن نظرية التطور التي جاء بها دارون ليست فرضية بل حقيقة علمية، دون ان يفوته من نقد النظريات التطورية التي تعتبر الروح من بنات المادة الحية أو كظاهرة بسيطة لهذه المادة.

ممكن العثور على إجابة قديمة جدًا وذات صلة بهذا السؤال عند داروين. يوضح باتريك تورت، الفيلسوف والمنظر العلمي، أنه وفقًا للرؤية الداروينية. لم تمنح الطبيعة سمات وعناصر استثنائية للإنسان قياسًا بأخيه الحيوان. إنه التطور البيئي والثقافي هو من سمح للإنسان أن يمتلك العواطف، والخيال، والعقل، والتجريد، والوعي الذاتي، واللغة، والشعور بالجمال والإيمان بالفاعلين الروحيين كما في الديانات السامانية أو بالله[8].

فيما يتعلق بالقلق الإنساني يروي داروين هذه الحكاية: «كان كلبي وهو حيوان عجوز ومعقول جدًا، مستلقيًا على العشب [...]؛ وعلى مسافة منه كانت هناك مظلة مفتوحة، كان النسيم يهزها من وقت لآخر. وكانت كل

8- Tort,P , L'effet Darwin, Sélection naturelle et naissance de la civilisation,paris, Seuil, Points, Science ,2008,P125126-.

حركة للمظلة تثير نباحه الغاضب. وهنا ما استنتجه داروين: لا شك أن الكلب قال لنفسه: إن هذه الحركة، دون سبب واضح، تشير إلى وجود كائن غريب، فنبح ليطارده»[9].

تعريف الدين

من أصعب المشاكل في العلوم البحتة والإنسانية التي تتناول الشأن الديني، الوصول إلى تعريف للدين. ففي كتابي (البحث عن جذور الإله الواحد) توصلت إلى هذا التعريف: «يمكننا تعريف الدين أولًا، كمؤسسة هدفها الى الرب والاحتفاء به، وثانيًا الدين هو مجموعة الطقوس والشعائر، هدفها تقديم الثناء والتبريك إلى سلطة عليا مقدسة. ومن وجهة النظر الشخصانية أو الذاتية (قياسًا بالمفهوم الموضوعي)، الدين عبارة عن الشعور الداخلي بذلك المقدس مع الإيمان بتلك القداسة. إن هيجل اعتبر الدين تمثيلًا للروح المطلقة، ليس هذا الأمر يتعلق بالمؤسسة التمثيلية فحسب، بل بالفكر والمعرفة. خصائصه الأساسية تبحث عن توجهات الإنسان في التفكير في الأمر الإلهي ويتساءل عن وحدته مع الرب»[10].

ولكن ومع ذلك السعي الحثيث لتقديم تعريف شامل للدين على ضوء المعارف المعاصرة، وجدت أن ذلك التعريف لا يلم بكل شيء، فلكي نتمكن من الاقتراب من مفهوم الدين، يجب علينا أولًا أن نلتف حول مفاهيم أخرى.

من المؤكد أن الفلسفة قدمت مصطلح (تجاوز transcender) للتعبير عن المتعالي أو ذاك الذي لا نراه أو ما يطلق عليه (ما وراء)، يختلف عن الجوهر immanence، فالمتعالي يتضمن رؤية رأسية للعالم. فهو ينطلق من عمودية العلاقة بين الإنسان الذي يقطن الأرض والرب أو الأرباب التي تسكن السماء،

9- Darwin Ch., La descendance [/filiation] de l›homme et la sélection sexuelle, (traduit de l'Anglais par Edmond Barbier d'après la seconde Edition anglaise revue et augmentée par l'auteur), Paris, Librairie C. Reinwald, Schleicher Frères éd., 1876, p. 94 à 133

10- فالح مهدي، البحث عن جذور الإله الواحد، الطبعة الثالثة، بيت الياسمين 2020، ص 22.

حيث توجد علاقات هرمية بين البشر، من ناحية، والأسلاف والآلهة، من ناحية أخرى.

مصطلح (دين) مشتق من الكلمة اللاتينية (religare) التي تعني (ربط). لذلك فهو يحدد العلاقة بين البشر والكائن المتسامي، المنفصل عن بقية العالم والقادر على كل شيء.

للظاهرة الدينية وجهان: جانب ذاتي هو الشعور الديني وجانب موضوعي وهو الاحتفالات والطقوس... الموقف الديني بامتياز هو الإيمان. وهذا الإيمان يعني اليقين بما لا يمكن إثباته، لذا فهو يتطلب درجة من الثقة على الأقل مساوية لتلك الناتجة عن الإيمان بما لا يمكن أثباته.

هذه المعادلة (الإيمان والثقة) تقود خطانا للتساؤل عن العناصر التي تقود إلى تأسيس هذا الإيمان.

هناك فهم آخر، فمن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن المصطلح الفرنسي dieu يأتي من الكلمة اللاتينية deus وهي تربط بين كلمتين jour (يوم) وdivum (سماء مفتوحة). وكما يقول مؤرخ الأديان ميرسيا إلياد حول هذا الموضوع: «تَبين أن فكرة الله متحدة مع القداسة السماوية، أي مع النور و(التعالي) (الارتفاع)، وبالتالي، مع الكون. فكرة السيادة والإبداع بمعناها المباشر: نشأة الكون والأبوة. (إله) السماء هو الآب بامتياز: مثلًا دياوسبيتار الهندي، زيوس باتر اليوناني، دايباتوريس الإيليرية، جوبيتر اللاتيني، زيوس - بابيوس..... »[11]

تحتوي العديد من الأديان في كتبها المقدسة على ذكر للحياة الآخرة، وإمكانية حياة جديدة بمجرد انتهاء هذه الحياة. وصحيح أن أحد بل أهم مخاوف الإنسان الأساسية يتعلق بهذا الحدث.

هل السبب الرئيسي للاعتقاد إذًا مجرد مسألة خوف؟ ألا توجد جوانب أخرى للدين؟ هل الحاجة إلى الطمأنة واليقين بشأن موته هي المسألة

11- Eliade M., Histoire des croyances et des idées religieuses, t. 1, Paris, Payot, 1983, p. 201.

مع الجهد الذي بذله المترجم عبد الهادي عباس في ترجمته لهذا الكتاب بأجزائه الثلاث (راجع تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ميرسيا الياد، ج1، ص 236، دار دمشق،الطبعة الأولى 1987)، انما لم يوفق في نقل هذه الفقرة من الكتاب.

الوحيدة التي تدفع الإنسان إلى الإيمان بكائن سام؟

هناك قناعة أن اختراع الإنسان للآلهة كان الغرض منه إحباط النتائج المترتبة على فنائه. لذا وكما ذكرنا وفي كل الأيديولوجيات الدينية، لا وجود للفناء. المؤمن على يقين وبفضل إيمانه أن هناك حياة أخرى أبدية بعيدة عن الشقاء والعذاب والأمراض ستكون بانتظاره.

رأى أبيقور ولوكريتيوس (فيلسوف وشاعر روماني 99-55) ق.ت.م في خوف الإنسان من الطبيعة أصل فكرة الله. لقد قامت ديانات ذلك الوقت بالفعل بتأليه العناصر الطبيعية في محاولة للسيطرة عليها من خلال الطقوس والقرابين والتضحيات. لقد أرجعوا كل ظاهرة طبيعية إلى تدخل إله.

وفقًا لأبيقور، أحد الأسباب الرئيسية لقلق الإنسان هو القلق الديني والخرافات. يعيش الكثير من الرجال في خوف من الآلهة.

الجغرافية المقدسة

يمنحنا العصر الحجري الحديث الفرصة لرسم معالم هذه الجغرافية المقدسة التي ابتكرتها مخيلته على ضوء الملاحظة والمعايشة والتأمل.

كل الأديان التي اطلعنا على أدبياتها (الفرعونية، الرافدينية، الحثية، الكنعانية، الفينيقية، الزرادشتية... إلخ، دون أن ننسى الهندوسية فهي من الديانات القديمة جدًا)، رسمت بل صممت وعبر مخيلتها الحيز الذي يسكنه الإنسان والحيوان والنبات أي الأرض. وحيزًا آخر تسكنه الآلهة في السماء. فعبر التأمل وجد ذلك الإنسان أن الشمس التي تشرق في النهار، تبزغ وتأتي من السماء والقمر يبعث بنوره في الليل من هذه السماء، والنجوم التي لا عد لها ترصع تلك السماء، فهي مجوهرات تلك السماء. كما أن المطر والبرق والسحب والغيوم إلخ كلها تأتي من السماء.

العصر الحجري الحديث يمثل مرحلة متقدمة لا تتجاوز 9000–4500 (ق.ت.م) ويمثل هذا العصر المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ (عصور ما قبل الكتابة) إذا اعتمدنا على هذه الاستنتاجات (سنعود إلى هذه النقطة لاحقًا فبعض الدراسات المعاصرة تذهب إلى إن تخزين الطعام وجد قبل العصر الزراعي)، فيمكننا أن نؤكد أن الأديان كمؤسسات، مع البنية

الأيديولوجية والدينية التي نعرفها، ظهرت خلال العصر الحجري الحديث ومع استقرار السكان والزراعة وتدجين الحيوانات وتربيتها والملكية الخاصة وتراكم السلع وتشكيل الثروة والقوة التي تعطيها، وكذلك مع التكتلات الكبيرة والهياكل البشرية (المدن والأمم والإمبراطوريات). كل هذه التحولات، مع المشاكل التي لا حصر لها التي خلقتها (عدم المساواة والظلم والاستغلال والجريمة والعنف وما إلى ذلك)، أدت إلى قيام الحاجة بإدخال قواعد السلوك حتى تكون الحياة الاجتماعية ممكنة.

كما شهد الإنسان في هذه المرحلة تطور الفكر الديني، إذ أصبحت هناك مؤسسات عبارة عن معابد يقوم على أمرها كهنة يمثلون حلقة الوصل بين السماء والأرض. كما أن للمعابد مهمة أخرى، فهي تقوم بتبرير العلاقة مع السلطة السياسية (الملك في بلاد الرافدين والفرعون في مصر) مثلًا. السلطة السياسية تستمد شرعيتها من السماء، بل وصل الأمر بالفكر الديني المصري من اعتبار الفرعون إلهًا.

كما أن توصله أيضًا لصناعة الفخار واستخدامه في الحياة اليومية للتخزين والطبخ وغيرها من الاستعمالات، من المراحل المهمة في مسيرته نحو الحضارة. وكان الفخار أيضًا وسيلته لتكريم الآلهة عبر صناعة تماثيل لها. كما كان الفخار وفي بلاد الرافدين وسيلة بل أعظم وسيلة لتدوين صلواتهم وطقوسهم، دون أن يغفلوا الجانب الإداري والاقتصادي الذي خُلقت الكتابة من أجله.

في ذلك الوقت، جلبت الأديان معايير اجتماعية وسياسية أكثر من المعايير الدينية الصارمة. في هذه الأوقات من التغييرات العميقة والجذرية في كثير من الأحيان، لم تطور الأديان القواعد والقوانين التي ينبغي أن تحكم السلوك الأخلاقي والمدني للأفراد فحسب، من خلال جعل التعايش الإنساني المنظم والسلمي نسبيًا ممكنًا فحسب، بل تمكنت أيضًا من فرض وتعزيز الامتثال لهذه المعايير والقوانين من خلال منحها طابع (الوصايا الإلهية)، التي يؤدي عصيانها إلى العقاب والرفض من جانب الآلهة [12]

(الدين حين ظهر هو من خَلق الإنسان وليس من خَلق الآلهة)، هذه

12- Lactance, Institutions divines (IV, 28, 316-).

المقولة ليست فرضية ناتجة عن تأمل في الشأن الديني، بل هي معبرة عن حقيقة.

الإنسان بمعناه الواسع يرفض الفراغ، لذا توصله للدين كان من نتائج ملء هذا الفراغ.

قبل اختراع الكتابة، لا نمتلك معلومات عن معتقدات تلك الأقوام التي كانت تمارس الصيد وجمع القوت، بل حتى العصر الزراعي وقبل عصر الكتابة لا يمنحنا الكثير من الفرص لمعرفة معتقدات تلك الأقوام. الكتابة مكنتنا من معرفة معتقدات السومريين أولًا. وعند التأمل يمكننا أن نقول إن المدونات والسرديات التي وصلتنا من السومريين أولًا، لم تكن بنت اللحظة التي كتبت بها، بل تمتد إلى قرون طويلة.

ما تم وبدءًا من هذه اللحظة يعبر عن تطور مثير للعجب، إذ وجدنا معابد وتماثيل لتلك الآلهة وسرديات تقدم لنا مادة مثيرة للدهشة عن خلق العالم من قبل الآلهة في السماء وقيام تلك الآلهة بفرض النظام والخروج من الفوضى الكونية كما حصل في الأسطورة البابلية والمتمثلة بقيام الرب مردوخ (بعد أن كلفه مجلس الآلهة بذلك) بشق تيامات آلهة المحيط، وخلق النظام الكوني.

تبع ذلك وبناءً على التعقيد الحضاري، إن الدول وملوكها المرتبطين بالمؤسسة الدينة، قاموا بفرض النظام واعتبروه مقدسًا، لا يجب مخالفة نصوصه.

فمدونة حمورابي تقدم لنا نموذجًا فذًا عن المرحلة التي وصل إليها إنسان ذلك الزمان، ففي تلك المنحوتة من حجر الديورانت الأسود، عبّرت مخيلة ذلك الفنان الذي تخيّل الملك واقفًا لاستلام المدونة من الإله شمش وهو في وضع الجلوس، لا نحتاج إلى شرح وتعليق للحديث عن الثقافة الدينية السياسية التي حكمت العلاقة بين السماء والأرض في هذه المنطقة من العالم. السماء وعبر الإله شمش هي من تمنح الشرعية.

منذ هذه العصور المبكرة، قدمت الأديان نفسها وفرضت نفسها كهياكل ومؤسسات للسلطة، تم إنشاؤها بشكل أساسي لتلبية احتياجات التماسك والأمن والسلام داخل التجمعات البشرية والحضرية الكبيرة. في تلك المرحلة الزمنية، أي حوالي 5000 قبل التقويم المعاصر، كانت الأديان قد اكتسبت

بالفعل تكوينها النموذجي للهياكل المقدسة، حيث لم تعمل فقط كوسطاء بين الإنسان والألوهية، ولكن قبل كل شيء كمتحدث باسم مطالب الآلهة وإرادتها. لم يقدموا معايير السلوك الاجتماعي والفردي الجيد فحسب، بل قدموا أيضًا كل المعرفة والإجابات (عن العالم والطبيعة والآلهة) التي يحتاجها البشر ليعملوا ويعطوا معنى لوجودهم.

إن الوظيفة المعيارية والتنظيمية التي لعبتها الأديان في العصر الحجري الحديث ساهمت بشكل كبير في منحها السلطة والقوة. في هذه المجتمعات، كان الناس السذج والخائفون والمعوزون، الذين يتعرضون للتهديد المستمر والمعرضون للمخاطر والتهديدات القادمة من العالم الطبيعي والعالم البشري، قد تخلوا عن أنفسهم واستسلموا عن طيب خاطر لمؤسسة (مقدسة) توفر لهم التوجيه والحماية والأمن والذي خلق الأمل ووعد بالخلاص.

لذلك يقدم الدين نفسه كبنية تنظيمية توصل لها البشر، وهي ذات سلطة وجبروت لا يمكن التشكيك بها.

الثقافة الدينية بمعناها الواسع والتي وجدت قبل خمسة آلاف سنة من عصرنا، في مناطق الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط لا زالت حاضرة وبقوة في الكتابات المقدسة اليهودية أولًا ومن ثم المسيحية والإسلام.

لم يأخذ كتبة إسرائيل القدماء (القرن السابع قبل الميلاد) هذا التراث الديني الموجود في بابل قبل حضورهم إلا لإدراجه في بنية كتبهم المقدسة (لا سيما العهد القديم والتلمود)، وتكييفه مع متطلبات احتياجاتهم وثقافتهم ومعتقداتهم. ومن خلال الكتاب المقدس اليهودي، دخلت الأساطير القديمة، إلى المسيحية والإسلام.

الحاجة والدين

يعتقد الباحث الفرنسي بسكال بوييه Pascal Boyer في كتابه المهم «وخلق الإنسان الآلهة»[13]. أن الحاجة هي من أدت بالإنسان القديم إلى ابتكار الدين، فهو يدخل معادلات علمية في الشأن الديني، ويعتقد أن الآلهة

13- Pascal Boyer El L›Homme Créa Les Dieux, Poche, folio- Essais 2003.

من ابتكار الإنسان، وأن ذلك الابتكار الذهني، بل النشاط العقلي جاء من حاجته إلى من يعينه ويسانده في الأمر اليومي الذي يشكل تحديًا له في كل لحظة. الدين نشاط ذهني لا ريب في ذلك، إنما لم يتدين الإنسان بسبب الحاجة فحسب، بل شكَّل له الكون المحيط به لغزًا ما انفك ومنذ ملايين السنين يبحث عن أجوبة نهائية لأسئلته الوجودية. فولادته لغز، طفولته، صباه، نضجه، شيخوخته لغز آخر. موته لغز، الفصول الأربعة لغز، الليل والنهار لغز، المطر لغز، الشمس نهارًا والقمر ليلًا لغز، مياه الأنهار لغز، مياه المحيطات التي أطلق عليها السومريون لقب المياه المرّة لغز... إلخ.

من هنا تفتقت مخيلته الفذة عبر صناعة الأساطير، والقصص المتعلقة بالخلق والوجود، الحياة والموت، عن إيجاد إجابات لا زالت قائمة مع مرور أكثر من خمسة آلاف سنة عليها (وأعني أن أساطير بلاد ما بين النهرين انتقلت مشافهة بدرجة أنهم قسموا التاريخ إلى ما قبل الطوفان وما بعده).

تلك القصص والحكايات التي لا زالت قائمة ويؤمن بها ملايين البشر (انتقلت عبر العهد القديم كما ذكرت ذلك، إلى كل الديانات التوحيدية) لم يكن الغرض منها تسلية الأطفال قبل الخلود إلى النوم، بل لإقناع المؤمن ودون مزاح من أن الله خلق الكون في ستة أيام، وأخذ قسطًا من الراحة في اليوم السابع! فقد أصبحت العمود الفقري للأيديولوجيا الدينية التوحيدية.

وقع الباحث الفرنسي باسكال بوييه، كما وقع من قبله ماركس وأنجلز وعشرات المفكرين في خطأ جسيم يتمثل في إساءة فهم النشاط الرمزي للإنسان.

الأيديولوجية الدينية لم تجد أية صعوبة في فرض رؤيتها وتصوراتها ومفاهيمها على العالم الدائري، إنما واجهت تحديًا بدءًا من القرن السادس عشر وعلى أثر اكتشاف جاليلو من أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، بل إن الأرض ليست مركزًا للكون بل كوكبًا من ضمن بلايين الكواكب والنجوم.

وبدلًا من أن تلجأ الكنسية إلى المنطق، لجأت إلى القوة وحاولت عبر الترهيب والتخويف من إبقاء الدائرة على ما هي عليه، فقتلت، وأحرقت وهشمّت وبترت باسم الدفاع عن الله الآلاف من أصحاب الوعي.

هناك حقيقة أساسية تتمثل بعدم الخلط بين اللاهوت والعلم، علميًا لا

يمكن دحض ما جاء به كوبرنيكوس وجاليلو، ولا من جاء بعدهما ولا يمكن تسفيه علمية داروين في أصل الأنواع. فالمحاولات البائسة وغير المجدية لتكذيب داروين مثلًا ليست حكرًا على المؤمن من المسلمين، بل إن هناك تيارًا ممن يؤمن بالخلق و(كن فيكون) من كافة المؤمنين في العالم (هذه نتيجة أنثروبولوجية) ويحاول بشتى السبل الدوغمائية من إثبات وجود الله. إن البراهين على إثبات وجود الله لا تصمد أمام الحجج الفلسفية والعلمية. إنما وهنا يكمن التحدي الكبير، والمتمثل في أنه ليس هناك من كائن ما مهما أوتي من ذكاء خارق وموهبة فذّة قادر على إثبات عدم وجود الله أيضًا.

ومع كل التقدم العلمي المذهل حقًا، فقد بقي أصل الكون لغزًا حقيقيًا، ذلك أن الانفجار الكبير، الذي يطلق عليه البيج بانج، لا يؤخذ به علميًا باعتباره ذاك الذي أنجب الكون. فالسؤال المتعلق بولادة الكون بعيد كل البعد عن إيجاد إجابات مقنعة لحل ذلك اللغز الذي يشكل أحد أهم التحديات أمام علماء الطبيعة والفيزياء.

الإيمان في الحيز الدائري وفي كل الديانات قائم على مركزية الأرض. أي أن الأرض مركز الكون. الدراسات التي شقت طريقها وبدءًا من القرن السادس عشر، والتي أشرنا إليها في معظم كتاباتي، تؤكد أن ليس هناك من مركز لهذا الكون وأن الأرض قياسًا بحجم الكون، لا تعدو أن تكون إلا كوكبًا بائسًا لا يُرى بالعين المجردة!

الدين البداية والتأسيس

ماذا يعني هذا المصطلح (الدين) بالنسبة لنا؟ هناك محاولات جادة وعظيمة لتعريف الدين، لكنه بقي مع ذلك شديد الغموض.

هنا سنحاول الإطالة مجددًا لتعريف الدين فبدون ذلك لن نتمكن من فهم أسس الدين وقيامه.

في اللغة العربية مفهوم الدين، مأخوذ من الفعل (دان) والذي يعني اعتقد واعتنق وخضع وذل، وهو عبارة عن الطاعة الكاملة والانقياد للمدونات ذات الطابع (المقدس). أما مفهومه اصطلاحًا: فهو عبارة عن المبادئ والقيم، التي يعتنقها مجتمع من المجتمعات قولًا وفعلًا. كما أنه يعني عربيًا باعتباره قرضًا، وهو ينطوي على مفهومي الأخذ والعطاء ما كان له من أجل. أي الحساب المرتبط بالعبادة. إذا قرأنا الكلمة بفتح الدال وسكون الياء، أصبح الأمر متعلقًا بأمانة في رقبة. وعلى ضوء ذلك فالله دين في رقابنا مقابل خلقه إيانا ورزقه ونعمه وحمايته لنا وفضله علينا. هذا الدين يجب أن نسدده طوعًا أو كرهًا...

وعند عودتي إلى هذا التعريف، أجده غير وافٍ، ولم يتمكن من احتواء كل جوانب الدين، فهو في الحقيقة ليس مؤسسة فحسب، بل هو المجتمع بكل ما فيه إن جاز التعبير.

يمكننا فقط التعرف على طرائقه وخصائصه، التي بمجرد تجميعها، تجعل من الممكن تمييز خطوطه العريضة. إذا كانت هناك حاجة إلى تعريف إيجابي للدين، ولم يعد تعريفًا فارغًا، فسأستأنف ذلك عن طيب خاطر بما كتبه رودولف أوتو، عن (المبادئ الحية في جميع الأديان)، مما يجعل الإنسان يشعر (كمخلوق) بنقصه وحاجته في الاعتماد على المتعالي من خلال التجربة الثلاثية للخوف والانبهار والآخر.

الخوف، الخشية والرهبة

قبل الولوج إلى العامل الأول الذي قاد إلى قيام الدين، نجد من الضروري فك الارتباط بين المفاهيم الثلاثة. فالخوف لا يستقيم إلا بوجود مكروه أو أمر

ملموس نتوقع حصوله. هنا نجد أن للخوف ركائز مادية قائمة على السبب والنتيجة. في حين تعني الخشية تعظيم المخشيّ منه. ويمكننا اعتبار الرهبة نتيجة من نتائج الخوف. الرهبة تعني الشعور بالخوف الذي يصاحبه الفزع والهروب.

كما نلاحظ فإن الخشية أخص من الخوف. فقد ورد في القرآن (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (فاطر:28). الخشية تنم عن معرفة في الأمر الذي نخشاه وهنا وفي خشية العلماء من الله، نجد مفهوم المعرفة بالأمر الذي نخشاه واضحًا وجليًا. الخشية هنا تابعة للخوف.

لذا أصبح دخول الجنة أو النار مرتبطًا بالخوف والسبب يكمن في تمكن الأيديولوجية الدينية من اعتباره أمرًا متوقعًا، بل يقينًا. وبما أن الدين مبني على الإيمان لذا أصبح موضوع الخوف أمرًا مسلمًا به وغير قابل للنقاش.

يعتبر الفيلسوف ديفيد هيوم (1711-1776) من بين الأوائل مع إيمانويل كانط (1724-1804) ممن تطرق إلى هذا الموضوع. فقد أشار كانط إلى أهمية الخوف كمحفز للتبجيل[14]. بينما أصبح الخوف مع عالم الانثربولوجيا التطوري روبرت رانولف ماريت (1866-1943) مفهوم بدائي للعاطفة والتي هي في الأصل معبرة عن حالة القلق والضياع [15].

14- Voir E. KANT, La religion dans les limites de la seule raison, trad. et prés. par A. Renaut, Paris, Presses universitaires de France, 2016, p. 175-176: « L'adoration d'êtres puissants et invisibles dont a eu besoin l'homme privé de tout secours par la peur naturelle fondée sur la conscience de son impuissance, ne commença pas d'emblée par une religion, mais par un culte servile rendu à Dieu (ou à des dieux). » Voir D. HUME, Natural History of Religion, London, A. and H. Bradlaugh Bonner, 1889 (1757), p. 89-: « We may conclude, therefore, that in all nations which have embraced polytheism, the first ideas of religion arose, not from a contemplation of the works of nature, but from a concern with regard to the events of life, and from the incessant hopes and fears which actuate the human mind.

15- M. MARETT, Threshold of Religion, London, Methuen, 1914 (1909), p. X: « Thus awe, in the case of religion, will, on this view, have to be treated as a far more constant factor in religion than any particular conception

يمكننا إذن أن نستنتج أنه في جميع الأمم التي اعتنقت الشرك، نشأت الأفكار الأولى للدين، ليس من التأمل في أعمال الطبيعة، بل من الاهتمام بأحداث الحياة، من الآمال والمخاوف المستمرة التي تنشط العقل البشري.

ينسب لسيجموند فرويد (1939-1856) أيضًا دورًا قياديًا للخوف في إنتاج الوهم الديني[16] ويعتبره الفيلسوف برتراند راسل (1872-190) مكونه الأكثر ضررًا. في كتاب راسل، (لماذا أنا لست مسيحيًا) نجد التالي: «أعتقد أن الدين يقوم في المقام الأول وبشكل أساسي على الخوف. إنه جزئيًا الرعب من المجهول، وجزئيًا، كما قلت، الرغبة في الشعور بأن لديك نوعًا من الأخ الأكبر الذي سيقف

---

of the awful. Such awe, we may therefore expect, will be none the less of marked effect on social behaviour, because the power of representing the awful under clear-cut and consistent ideal forms is relatively backward. Hence, I am ready to assume that, before animism, regarded as an ideal system of religious beliefs, can have come into its kingdom, there must have been numberless dimly-lighted impressions of the awful that owned no master in the shape of someone systematizing thought. » A vrai dire, ce terme ne correspond pas tout à fait a ceux de crainte/peur que l'on utilise en français, mais il les inclut, a tout le moins dans la compréhension de Marett (« Awa Is not the same thing as "pure funk.("Primus in orbe deos fecit timor(is only true if we admit Wonder, admiration, interest, respect, even love perhaps, to be, no less than fear, essential constituents of this elemental mood».

16- S. FREUD, L'avenir d'une illusion (Bibliothèque de psychanalyse), Paris, Presses universitaires de France, 1973, p. 1718-: « Le premier pas dans ce sens est déjà une conquête. Il consiste à "humaniser(la nature. On ne peut aborder des forces et un destin impersonnel, ils nous demeurent à jamais étrangers. Mais si au cœur des éléments les mêmes passions qu'en notre âme font rage, si la mort elle-même n'est rien de spontané, mais un acte de violence due à une volonté maligne, si nous sommes environnés, partout dans la nature, d'êtres semblables aux humains qui nous entourent, alors nous respirons enfin, nous nous sentons comme chez nous dans le surnaturel, alors nous pouvons élaborer psychiquement notre peur, à laquelle jusque- là nous ne savions trouver de sens.

إلى جانبك في كل مشاكلك وخلافاتك. الخوف هو أساس الأمر برمته: الخوف من الغامض، الخوف من الهزيمة، الخوف من الموت. الخوف هو أبو القسوة، ولذلك فلا عجب إذا كانت القسوة والدين يسيران جنبًا إلى جنب»!![17]

سنذكر أيضًا هنري برغسون. (1859-1941) الذي يلخص دراسات عصره حول أصل الدين لاستخلاص منهجه وتفكيره الفلسفي: الخوف خطير من حيث أنه يمكن أن يؤدي إلى حالة من الشلل لدى البشر، والدين بمفهومه العام يجعل من الخوف عموده الفقري لقيام وتطوير الإيمان. وفي نفس الوقت يجعل من الممكن التغلب على هذا الخطر[18]عبر المفاهيم الماورائية أي الجنة والنار في الديانات التوحيدية، والنيرفانا عند الهندوس.

سيؤدي التفكيك الذي تقوم به المناهج المعرفية للدين إلى نسبية هذه الفرضية دون أن تلغيها. عندما نتأمل جيدًا في الإنسان العاقل، أي جد البشرية التي تطورت وانتجت هذا السيل الجارف من الحضارات والثقافات والعنف والقتل والدمار، نجد أنه وجد في أفريقيا قبل 300 ألف سنة في فترة حدث فيها تحول هائل للمناخ.

هذا التحول في المناخ هو من ساهم بخلق الأديان على النحو الذي سنعرفه لاحقًا، سواء كانت تعددية في خلق آلهتها، أم اكتفت بإله واحد كما حصل مع الزرادشتية واليهودية، ومن ثم المسيحية والإسلام.

ظهور الوعي بدأ بشكل تدريجي قبل 2،5 مليون سنة. فقد كان إنسان تلك الفترة قادرًا على التفاهم بلغة مفصلية. وتؤكد لنا الحقيقة المتمثلة بصنع الإنسان لأدواته والتي هي فعلًا بدائية عن وجود مقدمات مفاهيمية.

اللغة وصنع الأدوات تؤكدان على قدرة ذلك الإنسان البدائي وإلى رغبته وطموحه في رحلته التي بدأت ولم تنتهِ والمتمثلة بالمغامرة الثقافية الرائعة.

الوعي كان حاضرًا لكنه سيصبح أكثر تعقيدًا كلما تقدم الإنسان في السلم الحضاري.

17- B. RUSSELL, Why I am not a Christian, London, Routledge, 2004 (1957). P18.

18- H. BERGSON, Les deux sources de la morale et de la religion (Quadrige), Paris, Presses universitaires de France, 2008 (1932), p. 164 - 165.

ويعتقد الكثير من الباحثين أن تمكن ذلك الإنسان من ترويض النار قبل 400000 سنة، أدى به للدخول في مرحلة جديدة، حيث ولد مفهوم التعايش عبر التدفئة والاجتماع في نفس المكان لهذا الغرض وأيضًا وبدرجة في غاية الأهمية تناول الطعام مع كل المجتمعين ورواية القصص والحكايات.

بعد 100000 عام ترك هؤلاء الرجال والنساء الذين يعيشون في الكهوف آثارًا لطقوس الدفن والجنائز الأولى، كما أشرنا إلى ذلك، وفي عدد من بقاع العالم. الدفن يمثل مرحلة متقدمة في تطور ذلك الإنسان حيث يوضع مع الموتى من الرجال قرابين وأدوات الصيد التي رافقته في رحلته فوق الأرض مع زاد وشراب. هذا الطقس الجنائزي يمثل مرحلة في غاية الأهمية في تطور الإنسان.

وعبر ما تمكنا من جمعه من أدلة وقرائن توصلنا إلى أن (الإنسان العاقل) بدأ رحلته والتي تتمثل بالتساؤل عن مكانته في الكون المحيط به.

على ضوء معلوماتنا المعاصرة، أقدم طقس جنائزي يعود إلى 90000 قبل التاريخ المعاصر. تشهد أول عملية دفن على حضور الوعي بخروج من مات من هذا العالم[19].

فعبر ذلك الطقس المتمثل بالدفن والعناية بمن مات وذلك بوضعه مع عدته وملابسه، حيث يوضع رمحه بجانبه (باعتباره أول أداة من أدوات الصيد) إضافة إلى تزويده بالطعام والشراب. هذا الطقس الذي يمتد إلى أكثر 300000 عام ووجدنا آثارًا له، يعبر وعلى نحو جلي عن رفض ذلك الإنسان لفكرة الموت ولقناعته أن هناك حياة بعد الموت.

رفض الموت والاعتقاد أن هناك حياة أخرى دائمة بعد الموت يمثل بداية الكرب الميتافيزيقي وظهور الفكر الديني.

إضافة إلى ما ذكرنا، هناك ثلاث ثورات أخرى ستزيد من اضطراب وضياع الوعي تمت منذ حوالي 35000 عام وتتمثل بتطور الفص الجبهي للدماغ عند البشر وهو مركز الفكر الترابطي، حيث شهدنا انفجار الفكر الرمزي

19- L'Homme devant la mort, Seuil, 1977, coll. (L'Univers historique(; rééd. en poche dans la coll. (Points(histoire.

وكتابنا تاريخ الخوف.

مع اختراع الفن الجداري والزخارف والموسيقى. إنه بعبارة أخرى (اختراع الفن).[20]

ومنذ ما يقارب 8000 عام تقدم الإنسان وقطع مسافات طويلة في مسيرته نحو التحضر. فقد فرض عليه العصر الزراعي مجموعة من القيم والعادات والتقاليد، أجبرته أن يعيد النظر بمسيرته، فالمجموعات الإنسانية الصغيرة التي تطلبها عصر الصيد، فقدت أهميتها وأصبحت من بنات ذلك الماضي. العصر الزراعي أدى إلى وجود القبائل، فلم يكن أمام ذلك الإنسان إلا الانضمام إلى تلك المجاميع، فأصبحت الإنسانية مقسمة إلى قبائل.

هذا الوضع الاجتماعي الذي استغرق بناؤه مئات السنين، أدى إلى بروز الحاجة إلى زعماء وقادة على شؤون المجتمع.

تبع ذلك وكان نتيجة من نتائجه في بعض مجتمعات ذلك العالم القديم ظهور الدول.

الوثائق التي تركها الإنسان القديم تمنحنا الفرصة للتعرف على أول دولة في التاريخ البشري.

فكما نعلم أن أول أشكال الدولة كمفهوم وجد في جنوب العراق وعند السومريين بالذات. ما الذي دعا القوم للتخلي عن مفهوم القبيلة إلى مفهوم الدولة؟

يمكننا الافتراض مرة أخرى. بل اللجوء إلى أن مفهوم (الحاجة والضرورة) لفهم التحول من القبيلة إلى الدولة، كان قائماً ودافعاً.

إذا أخذنا بفرضية عالم الانثروبولوجيا الأمريكي جاريد دايموند فسنجد أنفسنا أمام تطور قاد لاحقاً إلى خلق الدولة. فالقبيلة وجدت في حدود 13000 قبل التقويم المعاصر في حين وجد أول شكل من أشكال الدول في العالم القديم في جنوب العراق ومع السومريين قبل 3000 عام قبل التقويم المعاصر.

تعتبر بلاد ما بين النهرين مهد الحضارات الأولى، والتي تم استيطانها

20- L'univers, la vie, l'homme, Sous la direction d'Henry de Lumley, éditions du CNRS, 2012.

قبل 7000 سنة ق.ت.م ويعود تاريخ أراضي بلاد ما بين النهرين إلى العصر الحجري الحديث. ولا يوجد نقص في بقايا الحضارات الموجودة في المنطقة، فعبر المعطيات التالية: الفخار، والمقابر، والمباني المهيبة، والنقوش البارزة، والسلالم العملاقة... ولكن أيضًا آثار الكتابات الأولى على ألواح من الطين، تمكنا من معرفة الكثير عن هؤلاء الناس.

هنا ولأول مرة أصبحت لغة التخاطب تُكتب. أي تم ابتكار الكتابة. رافق ذلك بل سبقه سلطة سياسية. ملك وحاشية وجنود وشرطة لفرض النظام وسلطة دينية مرتبطة، بل توءم السلطة السياسية يقوم على أمرها كهنة مهمتهم التحدث إلى الآلهة وخلق أساطير تسمح لهذا التنظيم الاجتماعي الذي لم تعرفه البشرية سابقًا بالقيام والاستمرار. الكتابة التي تطلبها التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لهذه الجماعة البشرية، تشير إلى نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية التاريخ. السومريون والمصريون هم أفضل الأمثلة.

أما بالنسبة لتصنيع الأدوات، حتى البدائية، فهي تثبت وجود فكرة مفاهيمية: (هم الآن قادرون على تصميم نموذج وفقًا لمشروع ما). تشير الأداة واللغة إلى بدايات المغامرة الثقافية الرائعة للإنسان. الوعي المدروس موجود بالفعل ولكنه سيصبح أكثر تعقيدًا بمرور الزمن.

الكتابة والخوف

الخوف رافق الإنسان منذ وجوده فوق الأرض، فهو معرض للموت من قبل الحيوانات المفترسة نهارًا، وهو معرض للموت بفعل الأفاعي حتى عند خلوده إلى النوم. الخوف أن تسقط عليه السماء، الخوف من الآخر الذي يعيش معه في نفس الحيز، الخوف من الصواعق، من البروق، من الفيضانات التي كانت شديدة الحضور في تلك الأزمنة... إلخ.

والآن لنتصور الرجل البدائي جالسًا تحت إحدى الأشجار وهو يتناول غذاءه من الفريسة التي اصطادها توًا. جلوسه تحت الشجرة بسبب الأمطار الكثيفة والمثيرة للرعب يراد منه حماية نفسه من ذلك الهيجان الذي ولدته الطبيعة، إنما وفي تلك اللحظة بالذات ظهر برق في السماء فأصاب الشجرة من ضمن ما أصاب.

بالنسبة لمن كان قريبًا منه في تلك اللحظة جاء الموت من قوة غامضة لا يدرك كنهها. هذه القوة الغامضة جاءت من السماء وهذا هو سبب غموضها. فالقوى الأخرى التي يمكن أن تفتك به موجودة بالقرب منه وفوق الأرض. القوى الأرضية التي يمكن أن تفتك به استطاع أن يفهم دوافعها ويتجنب شرورها، إنما بقى حائرًا أمام القوة التي تأتي من السماء والتي يمكن أن تفتك به وهو لم يقم بإمر يقتضي توجيه اللوم والعقاب له.

الإنسان المعاصر يدرك أن البروق ستصيبه إذا حاول الاحتماء بشجرة. والسبب يأتي من الشحنة الكهربائية التي يحملها البرق ويرمي حمولته تحت الأشجار الشديدة الرطوبة المخزنة داخل الشجرة. فمعظم الطبقات الرطبة في الأشجار تكون تحت اللحاء الخارجي للشجرة. وهذا هو السبب أن بعض صواعق البرق تترك آثارًا مثيرة للرعب عندما تصيب شجرة، حيث تبدو وكأنها انفجرت وتناثرت أشلاؤها.

في الزمن المعاصر وبفضل التقدم العلمي الهائل تمكنا من معرفة قيام الصواعق. بينما بقي الإنسان القديم ولحد هذه اللحظة يؤمن وهو على يقين، أن الصواعق والبروق عقاب من رب غاضب عليه. ليس هناك من باحث خاض في موضوع الدين دون أن يتطرق إلى موضوع الخوف.

الكتابة تمكنت من أرشفة موضوع الخوف ومكنتنا من معرفة جذوره الأيديولوجية. الكتابة كما نعلم حديثة العهد (لا تتجاوز 3000 عام قبل التقويم المعاصر).

ولو توقفنا مجددًا أمام الموروث السومري فسنجد وعبر نصوص الدين السومري ما يدلنا إلى أهمية موضوع الخوف في قيام الدين. **فللأسطورة السومرية التي تحولت إلى حكمة في كل الأديان والتي تعتبر (خشية الآلهة «الانوناكي») تطيل أيام العبد المؤمن على هذه الأرض، آثار عظيمة في كل الأديان....**

كبار رجال الدين السومري قاموا بدورين في تطوير الدين الذي سار عليه آباؤهم. فهم أبناء تلك الثقافة والمطورون والمفسرون لها كما سنجد ذلك في كل الأديان دون استثناء.

عبَّرت الثقافة السومرية بمعناها الواسع (الدين والعادات والتقاليد والحياة

السياسية والاقتصادية والاجتماعية) عن مفهوم الخوف. فتقسيم العالم إلى ما قبل الطوفان وإلى ما بعده، رسم مسيرة هذه الجماعة البشرية. الطوفان مرعب وأتى على كل شيء حي، لذا تم التعبير عنه بتلك الأساطير المعبرة عن مخيلة فذة وفهم وذكاء.

يُنظر إلى الطوفان كموجة غضب سماوية سوداء اكتسحت كل شيء في طريقها، وسمحت للآلهة بإعادة صنع الحياة فوق الأرض على نحو أفضل. وهكذا نجد الإله إنكي (ذكي، حصيف، بيد أنه مؤذٍ أيضًا ومتمرد) رسم معالم الإنسان القادر على إنقاذ الجنس البشري وبقية الكائنات. قصة الطوفان في جوهرها حكاية شفهية تنزع إلى أن تترك أثرًا إلى كل من يصغي لراويها. وهذا يعني أن كل النساء والرجال في الدائرة السومرية والبابلية والآشورية، بل هذا يشمل بلاد الشام وحتى اليهودية لاحقًا، أصبح على يقين من أن مصيره بيد الآلهة. وبالملاحظة والمشاهدة كان يدرك أن دجلة والفرات مصدر خير ورفاه ودونهما لا يمكنه أن يستمر. وكان يدرك أيضًا أنهما مصدر شر كبير عندما يفيضان ويأتيان على ما كد من أجله (شهورًا طوالًا)، إذ يذهب ما كان يعول عليه من قمح وشعير وفاكهة وخضار إلى الدمار والغرق.

إن الطوفان أنتج سرديات مرعبة، ولم يترك أثره في الكتب المقدسة فحسب، بل امتد أثره في كل مناحي الحياة.

الكتابات السومرية والأكدية لاحقًا تعود لموضوع الطوفان والذي يعود إلى أزمنة ممعنة في القدم.

ليس هناك خط سردي واحد لكل تلك الروايات بيد أن موضوع **الطوفان** يشكل العمود الفقري لكل تلك الروايات. نمتلك الآن ثلاث روايات عن موضوع الطوفان الأولى سومرية والثانية بابلية والأخيرة آشورية. في السرد السومري، نجد ذلك في ملحمة أتراحاسيس وملحمة جلجامش، وكل رواية تخلق بطلها الذي قام بإنقاذ البشرية من الهلاك[21].

أسطورة الطوفان التي رسمت كل معالم الفكر الديني في بلاد الرافدين

21- فالح مهدي، البحث عن جذور الإله الواحد: نقد الأيديولوجية الدينية، بيت الياسمين، الطبعة الثالثة، 2021.

قامت على قاعدة تتمثل بضعف الإنسان وقلة شأنه أمام المجهول (والذي يعني الآخر غير المرئي وسنتكلم عنه لاحقًا). **من ينقذك من ذلك المصير الأسود هو إيمانك بدينك وبآلهتك.**

****

استندت إلى موضوع (الطوفان) الذي أفردت له الأيديولوجية الدينية (السومرية والبابلية والآشورية) حيزًا كبيرًا، ذلك أنه ينطوي على فكرة إنهاء الحياة فوق الأرض. بل إن موضوع الطوفان موضوع رعب لا مثيل له، فأمام تلك السيول الجارفة من المياه، وما يصاحبها من عنف ودمار، ذلك أنها تكتسح كل شيء في طريقها، يجد ابن تلك الثقافة أن موته قاب قوسين أو أدنى.

هنا نجد دور الأيديولوجية الدينية التي تمكنت من صياغة هذه الأسطورة ببراعة، حيث ربطت بين نهاية الحياة فوق الأرض والإيمان برب مخلّص سيتمكن من إنقاذ السومريين من الموت، كما فعل الرب إنكي مع أتراحاسيس الذي أمره أن يبني سفينة دائرية (قفة) ويضع فيها عدا الحيوانات أهله وأبناء مدينته من المؤمنين، تمكنت من السيادة وتركت آثارها في العقائد التي تبعتها في هذه البقعة من العالم.

الخوف عامل أساسي في قيام الدين لكنه ليس وحيدًا. الفيلسوف ورجل الدين الألماني أوتو (1869-1937) أتى ببعض المعطيات المهمة التي سار على نهجها عدد كبير من المتأملين بالشأن الديني. فوضع الخوف في قائمة الأسس التي أدت إلى قيام الدين.

عندما نعود للحظة للخوف نجد أنه مُعبّر عن عاطفة. يبدو أن العاطفة هي القاعدة التي يقوم عليها الخوف.

هل يمكن فهم الدين على نحو أفضل اعتمادًا على العاطفة، ذلك أن الدين في أسسه لا يستند إلى العقل بل إلى العواطف؟

ما يتحدانا هنا هو قبل كل شيء سلبية الدور المنسوب إلى الإنسان في الفرضيات حول أصل الظاهرة الدينية التي تستند إلى عوامل محفزة أكثر تفاعلًا، على سبيل المثال العوامل العاطفية، فهي ذات طبيعة نشطة ومن الصعب التحكم بها.

في الواقع، إذا كانت الكلمة تهدف بلا شك إلى رد فعل غريزي أساسي للإنسان، تظل الحقيقة أن الخوف هو أيضًا موضوع أساسي للعاطفة.

يعبر الإنسان عن عواطفه عبر الكلمة أولًا، ولكن الكلمة لم تحتكر ذلك الحيز، فقد عبر الإنسان -ولم يزل- عن عواطفه الجياشة عبر البكاء والعويل، واللطم ونتف الشعر...إلخ.

ليس من اليسير التطرق إلى موضوع العواطف في التاريخ الإنساني. بل الدراسات الرائدة في هذا المجال تثبت مدى تعقد هذا المجال البحثي، متعدد التخصصات، وأثار مشكلات منهجية لقرون عديدة. فلم يحسم النقاش والحوار بين علم الأعصاب وهو من العلوم الصعبة والعلوم الإنسانية. ومع ذلك، لا يكتفي جان بلامبر أستاذ التاريخ في جامعة أكسفورد بتتبع هذا التاريخ. إحدى الصعوبات الرئيسية في دراسة العواطف، والتي أكد عليها جان بلامبر في مقدمته، هي القطبية الواضحة للغاية بين النهجين. الأول، غالبًا ما يطوره علم الأعصاب، حيث يجعل العواطف حقيقة منقوشة في الطبيعة البشرية، ومعطى عالميًا، وعلامة محددة. من ناحية أخرى، أظهرت العلوم الإنسانية، والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن العواطف يمكن أن تكون ظاهرة ثقافية نسبية، تختلف باختلاف المجتمعات والمكان والزمان.

بالنسبة للمؤلف، يجب التغلب على هذه الازدواجية من خلال حوار متعدد التخصصات.

وتكمن الصعوبة الثانية في إبراز التعريفات.

يجمع هذا الباحث بين الحقائق المختلفة وقبل كل شيء يجمع تعريفات العديد من التخصصات حول هذا الموضوع.

من جانب آخر، قدم لوسيان فيبرLucien Febvre نقطة تحول أولى في دراسة العواطف في التاريخ، في عام 1941.

منذ هذا التاريخ، أدرج العديد من المؤرخين مثل جان ديلومو، وجاك جودي، في أعمالهم دراسة العواطف مثل الأشياء التاريخية. فأكد النهج البنيوي على تنوع المشاعر منذ بداياته، ولا سيما بفضل علماء الأنثروبولوجيا

وعلماء الأعراق الأوائل في القرن التاسع عشر. اقترحت الأسماء العظيمة في العلوم الإنسانية مثل دوركهايم وليفي شتراوس نماذج لتحليل العواطف.

يسهب جان بلامبر أيضًا في الحديث عن العديد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين، منذ تسعينات القرن الماضي، كانوا ينتجون المزيد والمزيد من العمل حول هذه المسألة. [22]

الطقوس والشعائر

يقدم لنا ذلك الماضي والذي يمتد إلى أكثر من خمسة آلاف سنة كتابات في غاية الأهمية عن ممارسات تلك الأقوام لطقوسها وشعائرها. كل تلك الطقوس والشعائر التي تعبر عن جانب أساسي من ثقافة تلك الأقوام تتوجه وبكل بوضوح نحو تلك الآلهة التي تسكن في السماء. تلك الثقافة المحكومة بضوابط صارمة تضع العبد الفقير تحت هيمنتها المطلقة. بل برعت الأيدولوجية الدينية في التحكم بالمتعبد. فهو محكوم بأن لا يدخل المعبد دون أن يغتسل، وأن يبدأ صلواته بالثناء لربه وأن يقف بين يدي ربه بخشوع (صورة متخيلة) على النحو الذي ترتئيه تلك المؤسسة. «وعليه يغدو الطقس، أو الشعيرة، وسيلة انتماء إلى هذا الفضاء»[23].

كل الطقوس تتوجه إلى المتعالي الذي تحدثنا عنه. في المهرجانات القديمة (عيد رأس السنة البابلية والاحتفالات الكرنفالية والتي لا زالت قائمة في الهند) يراد منها تكريم الآلهة. الاحتفالات طوعية، إنما يساهم بها معظم المؤمنين إن لم نقل كلهم. وهي بطبيعتها جماعية. الإسلام عبّر عن ذلك وعبر هذا الحديث النبوي «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة».. والفذ هو الفرد. وهذا الأمر مفهوم، ويؤكد على حقيقة مفادها أن كل الأيديولوجيات الدينية اعتمدت على الجموع في نشر مدوناتها والالتزام بها والامتثال لها تلقائيًا.

ولن نسعى في هذه الصفحات إلى استحضار كل أشكال الطقوس، فهذه

22- J. PLAMPER, The History of Emotions. An Introduction, Oxford University Press, 2015.

23- أحمد زين الدين، تعاويذ الجسد الديني، بيسان للنشر والتوزيع، 2020، ص 5.

مهمة لا يمكن تصورها. دعونا نفكر في الطقوس القائمة على استخدام النباتات المُخدرة. ولنفكر في الأهمية الكبيرة لطقوس العرافة أو الطقوس المرتبطة بالتقنيات التي تلزم المؤمن بالامتثال لها كتقديم الرجل اليمنى على اليسرى، ولمس الماء بالأنامل من الصحن الموجود عند الدخول مباشرة إلى الكنيسة، ومن ثم رسم علامة الصليب، عند المسيحين. وطوي اليدين واحناء الرأس عند دخول معبد هندوسي أو بوذي... إلخ. مرة اخرى يظهر دور المكان في تحديد سلوكيات المؤمن.

ولكن من أهم الطقوس بعد الصلاة، طقس الأضحية والقربان، فهو يعبر عن تلك العلاقة الشديدة التعقيد بين المؤمن وربه. طقس التضحية بحيوان وجد في عصر الصيد كما يذهب إلى ذلك بعض الأنثروبولوجيين، ولكن العصر الزراعي منحه وعبر المعابد دورًا جوهريًا في التقرب من الآلهة حتى تستجيب لطلباتهم.

طورت الأيديولوجيات الدينية نتيجة التعقيد الحضاري في الأزمنة القديمة وخوف الناس من الموت أولًا ومن أن سلوكهم ورغباتهم لن ترضي الآلهة، إلى قيام تراتبية أيديولوجية مبنية على أفعال (حلال - حرام، نقي - نجس، صالح - طالح، مؤمن – كافر... إلخ)، فأقاموا مدونات أخذت طابع اليقين والقداسة لها اليد الطولى بالحكم على الناس وعلى أفعالهم بأنها غير أخلاقية أو مسيئة لقوانينهم، ويقررون تبعًا لذلك معاقبة المذنبين المساكين بشدة، من خلال سحقهم بلا رحمة باسم رب أو أرباب تسكن في السماء أو تأديبهم بعد هذه الحياة. (مفهوم الجحيم في الديانات التوحيدية والاستنساخ في الهندوسية). رافق ذلك مجموعة معقدة من الطقوس أعظمها قاطبة الصلوات (حيث يتمكن العبد المسكين من مخاطبة ربه الذي لا يراه لكنه على يقين من وجوده. وكما نعلم هناك اشتراطات لتأدية الصلوات حتى يقبلها منك. فنظام التضحية بحيوان بريء يدخل ويسبق الدعاء والصلوات. ويصحب ذلك ويتقدمه أن يكون المؤمن نظيفًا في حضرة ربه أو أربابه، لأن الآلهة على علم بكل شيء ولا تخفى عليها خافية.

كل هذه المعتقدات التي تسم حياة الرجال ليست سوى خرافات وهراء

بالنسبة لأبيقور. إنما نحن هنا في حقل الإيمان وليس العقل.

كيف يمكنك أن تقنع إنسانًا بائسًا أن البرق الذي أصاب رفيقه الذي كان يتناول غذاءه تحت شجرة وفي يوم شديد المطر، لا علاقة له برب يسكن في السماء بل يعود إلى طاقة كهربائية مست تلك الشجرة التي كان يجلس في ظلها ذلك الإنسان المسكين فقتلته، ولا أن الطقس السيئ الذي يدمر ممتلكاتك وقد يؤدي إلى موت أولادك ليس له بأي حال من الأحوال، تعبيرًا عن الانتقام الإلهي لمعاقبة أخطائك الماضية، ولكن فقط نتيجة قوى طبيعية عمياء وغير مبالية بمستقبلك. هذا ما سيؤسسه لوكريتيوس تمامًا في قصيدته الفلسفية «في طبيعة الأشياء»، حتى أنه أعطى العديد من التفسيرات المحتملة لنفس الظاهرة، بحجة أن الشيء الأساسي ليس معرفة السبب الحقيقي للظاهرة، ولكل معرفة -كما يذهب إلى ذلك المفكر الروماني- أن لها سببًا ماديًا غير مقصود. هذا وحده هو الذي يهم سعادتنا، لأن هذه المعرفة تنقذنا من الهموم الدينية. وبالمثل، يرى الفيلسوف الإيطالي فيكو (1668- 1744) في خلق الإله رد فعل لحدث طبيعي أرعب الرجال الأوائل، وهو البرق. منذ ذلك الحين، اخترعوا إلهًا وآمنوا به. تم تبني هذه الفكرة من قبل الفلاسفة التجريبيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر. بالنسبة لهوبز، كما هو الحال بالنسبة لهيوم، فإن الدافع وراء الإيمان الديني يتعلق بأسباب نفسية. إنه ينبع من الشعور بالعجز في مواجهة هشاشة مصير الإنسان. لكن الدين ليس خوفًا فحسب، بل هو أيضًا عزاء وأمل وأكثر من ذلك على نحو يصعب الإلمام به.

من خلال الإيمان بالحياة الأبدية بعد الموت، يجعل الإنسان تعاسته ونهايته أكثر احتمالًا. وهكذا، بالنسبة لفرويد، فإن الدين هو وهم يسعى إلى حل النزاعات النفسية المتعلقة بحالة الإنسان. وبالمثل، يرى نيتشه أن الله هو خليقة الإنسان في مواجهة المعاناة والموت، وسيتبعه ماركس بهذه الطريقة، ويرى في الدين (تنهيدة المضطهد...). لذلك فإن الخوف من الطبيعة والموت هو الذي يدفع الإنسان إلى الإيمان الديني.

البداية والأصل

هو هذا التركيب الذي لا يمكن اختزاله لا إلى حقيقة ولا إلى فكرة، إنه المؤهَل والمؤهِل. كيف يمكن للمؤرخ واللاهوتي، ولكن أيضًا عالم الأنثروبولوجيا، أن يدركوا بدورهم هذا السؤال عن أصل الدين وأسسه؟ إن المؤرخ وعالم الأنثروبولوجيا، كما هو معروف، يقعان في فضاء محدد من المعرفة والتي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال التجربة، أي تلك القائمة على علاقة الإنسان بكل ما يقع تحت نظره وحسه وحيزه. بينما تقتضي معرفة اللاهوتي الإبحار في مناطق لا يمكن التأكد من وجودها عبر التجربة والمراقبة والتأمل. إنه يحاول البرهنة على ما يمكننا أن نطلق عليه (ما وراء المعقول).

يمكننا اختصار الفروق بين المؤرخ والأنثروبولوجي من جهة، واللاهوتي من جهة أخرى، عبر مفاهيم البداية والأصل. (البداية مفهوم تاريخي، في حين الأصل لا يمكن أن يكون إلا أسطوريًا). البداية مرتبطة بزمنية تتكشف، فهي بحكم التعريف إذا لم تكن قابلة للتأريخ، على الأقل قابلة للوضع في التسلسل الزمني فيما يتعلق بالنقاط المرجعية الأخرى. يمكن ربطها بحدث سنعتبره أساسيًا أو ظرفيًا [24]، وعبر النقاشات التي أفرزتها هذه المفاهيم من حيث

24-, « Penser la Création », in Penser la Bible, de Paul Ricœur et André LaCocque, Ed. du Seuil, Paris, 1998, p. 81 et 82. La phrase entière est encore plus éclairante que l'expression. « Cette manière de lire à rebours l'histoire des commencements est doublement plausible: d'abord, elle rend compte de la parenté non négligeable qui rapproche le regard prétendument (mythique(et le regard scientifique ; ensuite, […], cette remontée aux origines à partir de l'expérience présente éclaire par un certain côté la dialectique entre commencer et continuer […]: on ne parle de commencer que dans l'après-coup du continuer. C'est dans l'après-coup qu'est reconnue la fonction inaugurale du commencement. » (p. 82).

RICŒUR, Paul (1983), Temps et récit I: L'intrigue et le récit historique, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

RICŒUR, Paul (1984), Temps et récit II: La configuration dans le récit de fiction, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

RICŒUR, Paul (1985), Temps et récit III: Le temps raconté, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

المنهج التاريخي. من ناحية أخرى، يقع الأصل في زمن ثالث، غير محدد، غير قابل للتاريخ.

لكن من حقنا أن نتساءل: هل حقًا البداية مفهوم تاريخي كما يذهب إلى ذلك الفيلسوف الفرنسي بول ركيور؟

في العهد القديم وفي سفر التكوين ومنذ السطور الأولى نجد التالي: «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ......».

تأتي أهمية هذا النص من ربطه بين البداية والأصل. الله هنا هو الأصل وخلقه الكون في ستة أيام يمثل البداية، أي لحظة خلق الكون. إنما نحن هنا امام إشكال، ذلك أن الأصل والبداية أسطوريان فلا يمكن اعتبار بداية خلق الكون تاريخية.

العهد القديم كتاب اليهود المقدس، لم يبتكر العلاقة بين الأصل والبداية، فقد وجدها في الموروث الرافديني الذي نهل منه الكثير. ففي أسطورة الخلق السومرية نجد التالي: «ففي البدء كان الإله (نمو NAMU) أي البحر الأزلي ولد ابنه (آن) الذي يمثل السماء أو إله السماء، وابنته (إنكي) التي تمثل الأرض أو إلهة الأرض، وتزوج (آن) من أخته (إنكي) فكان يحنو عليها ولا يفارقها، ويغمرها بالمطر، فولدت (إنكي)ابنها (أنليل) إله الهواء، الذي لم يطق أن يعيش في السجن الضيق مع أبيه (آن) وأمه (كي)، فدفع بأبيه (آن) إلى أعلى، وبذلك اتسعت المساحة بين السماء والأرض، وراح (أنليل) يلهو ويمرح، وعندما جلس (آن) على عرش السماء خلق (الأنانوكي)أي مجلس للآلهة ليحكم الكون بالعدل، وظهر من الآلهة السومرية سبعة آلهة كبار وخمسون إلهًا صغيرًا. أما (آن) فكان

RICŒUR, Paul (1986), Du texte à l'action. Essais d'herméneutique II, Paris, Seuil, Coll. « Esprit ».

RICŒUR, Paul (1988), « L'identité narrative » dans La narration. Quand le récit devient communication, Genève/Neuchâtel, Labor et Fides.

RICŒUR, Paul (1992), Soi-même comme un autre, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

هو الأكبر والأعظم في مجلس الآلهة، له العرش والتاج والغلبة فهو إله السماء، وقد أورث ابنه (أنليل) قوته وبطشه، وفوضه في حكم الأرض، فصارت كلمة (أنليل) مقدّسة على الأرض ثم ولد (أنليل) إله الهواء ابنه (نانا) إله القمر، وولد (نانا) ابنه (أوتو) إله الشمس الذي فاقه في الضياء. ثم خلقت الآلهة الكواكب والنجوم، وظهرت معالم الحياة على الأرض..»..

في هذا النص الذي يعتبر نصًا مؤسسًا لكل الموروث المقدس في هذا الشرق القديم، نجد أنفسنا أمام مفهوم الأصل والبداية، فكلاهما أسطوري كما هو الحال مع سفر التكوين. ليس هناك أصل أسطوري وبداية تاريخية، إنما يمكننا التأمل في وظيفة الافتتاح، وتأسيس الجديد، غير المسبوق، الذي لم يسمع به أكثر من شرح ظروف الظهور والسببية لهذه الجدة. بمجرد أن نتذكر هذا التمييز، الذي تمت دراسته على نطاق واسع من قبل العلوم التوراتية، العلوم الإنسانية وعلم التأويل [25].

والآن سنحاول الإجابة عن العلاقة بين أصل الدين وأساسه. الدين بديهيًا مرتبط بمجتمع بشري وبمؤسسة مرتبطة به. تاريخيًا لم تقم الحاجة لأثبات أصل الدين ومن هو هذا الرب أو الأرباب التي تقف خلفه وتمنحه الشرعية المطلقة وذلك بفعل قداستها، ولكن الزمن المعاصر وبدءًا من القرن السادس عشر وضع الدين -بل المؤسسة الدينية- في موقع المتَهم والمُتِهم. التطور التقني والعلمي والاقتصادي والاجتماعي (أصبح التعليم واجبًا تقوم به الدول الحديثة) سحب من تحت أقدام المؤسسة الدينية بعض المعطيات البديهية من قبيل الأرض مركز الكون والشمس هي من تدور حول الأرض... إلخ.

دور الإخفاء في نشأة الكون

من المدهش أن نلاحظ وفي العديد من الأديان، الصمت أو الإخفاء لنشأة الكون، مع ان الأديان تقدم تفاصيل كبيرة في حساباتها الأسطورية.

فالصمت على مسألة الأصل، إذا أخذنا على سبيل المثال القريب الشرق القديم، يتم عبر عملية إخفاء وتبرير.

25- **Ibid,** Penser la Création.

ركزت ديانات هذا الشرق على مسألة المياه ودورها الأساسي في قيام واستمرار الحياة. عند السومريين تم التعبير عن أهمية المياه عبر مفهوم الطوفان. فقامت أيديولوجية البدء مع هذا المفهوم الذي طوروه. هناك حياة قبل الطوفان وأخرى بعده. بدء الحياة تم في المرحلة الثانية. عند المصريين القدماء اعتبرت المياه، عطية إلهية حقيقية يوظفها الفرعون في كل عام عندما تنحسر مياه النيل، فعندما «تقل مصاريف المياه يصعد الفرعون النيل بقاربه الملكي حتى النقطة التي لا يمكن أن يتقدم بعدها. في تلك اللحظة ينجز طقسًا يكرره كل عام إذ يقوم برمي قطعة من ورق البردي مكتوب عليها وصفة سحرية تتضمن رغبته بإعادة مياه النهر. بعد أيام من رحلته تلك تعود مياه النيل بغزارة ومع المياه يعود الطمي الذي يسمح للزرع بالنمو. هنا نلاحظ وظيفة المخيال والرمز، فالطقس الذي قام به الفرعون الإله أعاد المياه إلى قوة اندفاعها الأولى، وسمح للحياة والثروة في أن يزدهران في مملكته»[26].

صورة الله وقوته وجبروته، لضمان الخصوبة، جلية هنا ولا يمكن أن تخفى على المؤمن البسيط. هذا الطقس يعبر عن براعة الأيديولوجية الدينية الفرعونية.

الإخفاء يأتي من السكوت عن السؤال الجوهري: من أين تأتي المياه؟ ولماذا ولدت؟ وهل مقدر لها أن تستمر إلى الأبد أم أنها يمكن أن تختفي تمامًا كما توحي أساطير الفيضان؟ بالتأكيد، هناك دائمًا نية إلهية في هذه الأساطير. يبدو مع ذلك أنه لا الأصل ولا الغاية يمكن التفكير فيهما هنا. الخلق وعبر مفهوم المياه ليس سوى شكل من أشكال الأصل الذي يمثل بداية حيث يظل ما يسبقه غامضًا. توجد هذه الخاصية أيضًا في بعض أساطير الأصل في أوقيانوسيا حيث يحدث أن المجموعات العرقية لا تقيم علاقة بين أصلهم والسماء، ولكن على العكس من ذلك إلى جوف الأرض: (جئنا من دودة، سحلية، أو من حفرة، أو رعد...)[27]

26- فالح مهدي، نقد العقل الدائري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بغداد 2017، ص182.

27- Hélène Guiot,Mythes océaniens de création du monde, dans Encyclopédie des historiographies: Afriques , Amériques ,Asies , Vol 1 , Presses de l'Inalco, Paris, 2020 , 12691271-. Etn aussi Bruno SAURA,

هذه المفاهيم مع اختلاف الثقافات تلقي ضوءًا على مسألة الأصل حيث تبدو الأرض أو عناصرها وكأنها منتجة ذاتيًا، ويتم إضفاء الشرعية على النظام الاجتماعي السياسي على ضوء سرديات الخلق. فالجماعة التي تذهب إلى أن أصلها جاء من سحلية أو حفرة، لا ترقى إلى الجماعة التي تعتبر أصلها إلهي. هذا التعقيد نجد آثاره في الديانات التي طورت أيديولوجيات لا زالت قائمة على نحو غير مباشر كما هو الأمر مع أساطير الخلق السومرية بالذات، حيث نجد آثارها في كل الديانات التوحيدية

الشك واليقين

ليس هناك من هو قادر على الشك، إلا ذاك الذي تؤرقه مسائل الخلق والأصل والبدايات... إلخ.

لا نمتلك أية معلومات عن الشكاكين في الأيديولوجية الدينية في العالم القديم، فكما ذكرنا وعلى ضوء الدراسات لكبار الأنثروبولوجيين، ليس هناك مجتمع غير ديني في العالم القديم.

في العصور الوسطى وعبر التعقيد الحضاري الذي انتجته الإمبراطورية العباسية، تمكنا من العثور على مادة مهمة عن مفهوم الإلحاد في القرن الثالث والرابع من التقويم الهجري (التاسع والعاشر من التقويم المعاصر).

في كتاب عبد الرحمن بدوي (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) مادة مهمة عن هذا الموضوع والذي كان يعتبر من المحرمات. يقول الكاتب في مقدمة كتابه: «الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التي استنفدت كل إمكانياتها الدينية»[28].

الدين أو بالأحرى الأيديولوجية الدينية قائمة على مفاهيم اليقين، بل كل ما بنته وراكمته عبر مئات السنين، قائم على هذه المعادلة. لذا تصدت لكل من شكك في مدوناتها وسردياتها، فأحرقت وقتلت وهمشت عددًا من الأذكياء والشرفاء بل نسبت تهمة الإلحاد إلى بعض كبار المتصوفين في الإسلام؛ كالحلاج

Mythes et usages des mythes. Autochtonie et idéologie de la terre mère en Polynésie, Louvain/Paris, Peeters, 2013.

28- عبد الرحمن بدوي (تأليف وترجمة)، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، الطبعة الأولى 1945، والثانية في عام 1993 عن دار سينا للنشر، ص 7.

مثلًا، فقتل شر قتلة. والمؤسسات الدينية الإسلامية لم تتفرد بذلك، فقد كانت المؤسسات الكنسية في غاية الشراسة والوحشية لمن يتصدى لأطروحاتها.

ولم تخرج الثقافة الإسلامية في العصر الراهن ولم تتخلى عن ثوبها القديم، فوقفت ضد شخصيات ثقافية مرموقة، بعيدة عن الإلحاد كفرج فوده ونجيب محفوظ وغيرهما كثير بتهمة الإساءة للإسلام.

في الغرب حيث قام العالم المعاصر، ردت الكنيسة ليس في مسألة الإلحاد بل في التشكيك بسرديات الكنيسة الأساسية كما فعل غاليلو، الذي أخرج الأرض من مركزية الكون وهي من يدور حول الشمس، لا بالحوار والنقاش ومحاولة الفهم، بل عن طريق العنف كما هي العادة، في ثقافة كل الأديان ولا سيما تلك التي تطلق على نفسها توحيدية.

ذلك العنف في الرد على مؤمنين مثل جاليليو أضعف المؤسسة الدينية وهمّشها، فاضطرت بمرور الزمن القبول بالأمر الواقع. بل قامت بإعادة النظر بسردياتها، فأصبحت بعض المعطيات ذات الطابع اليقيني كخلق الله للكون في ستة أيام، مجرد حكايات لا تُؤْخذ على محمل الجد.

ما سمح للدين بالقيام والهيمنة ارتكازه على موضوع الإيمان بوجود خالق لهذا الكون. هذا الإيمان هو جوهر العقيدة فبدونه لا تستقيم. المؤمن لا يسأل أين هو الله؟ بل هو على يقين مطلق أن اللهَ يسكن في السماء وهو موجود في اللحظة التي نحتاجه بها، بل من ضمن قناعاتنا الراسخة، التوكل عليه. فهو حاضر وقريب قرب الوريد إلى قلب المؤمن.

الأيديولوجية الدينية ومنذ أزمنة ممعنة في القدم واعتمادًا على ما وصلنا من مدونات المصريين والسومريين والبابليين والهنود مثلًا، كانت بارعة في إيجاد أجوبة عندما لا يلبي الرب حاجة عبده المسكين. حيث تجد الأجوبة حاضرة: لم يصغي لك الله لأنه أراد التأكد من إيمانك أو لأنك قمت بأمرٍ شائن لم ينسه الرب. ولنا في حكاية أيوب أفضل الأمثلة.

الأيديولوجية الدينية قامت على سذاجة هذا الكائن الذي تَحّكم به الخوف وشلّ قدراته على التفكير والتأمل وقبل ذلك جهله وقلة معرفته، فالقائمون على الأمر الديني يجدون في سذاجة وجهل الدهماء -وهم الأغلبية العظمى-

الأساس الذي تقوم عليه.

ولكي نكون على يقين من تلك العلاقة بين الخوف والإيمان واليقين، نورد هذا المقطع من الصلوات البابلية الموجهة إلى كبير الآلهة مردوخ حيث نجد ما نبحث عنه، ولنأخذ هذه الصلاة على سبيل:

لأي ذنب كان، ارتكبته إهمالًا أو خطأ، نسيانًا أو بسوء نية
في حضرتك وفي حضرة أبيك الموقر
ارتكبته إهمالًا أو خطأ، نسيانًا أو بسوء نية.
حملت نسمة الحياة أمام العظمة السماوية
لتتقبل مني الماء المسّكن
وليهدأ قلبك الغاضب
كي تشملني برعايتك وغفرانك العظيم
وتسامحني وتعفو عني
حتى أرتل أمجاد قداستك العظيمة[29].

لقد اعتبرت الدراسات في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وهي من أهم ما كتب في هذا الموضوع، أن الصلوات المتعلقة بالتضرع والابتهال هي الأكثر انتشارًا في العالم والأكثر قدمًا. فهي تُعبّر عن حاجة الإنسان وضعفه أمام قوى الكون.

فعند طفولة الدراسات وفي كتاب الثقافة البدائية (Primitive culture) لتيلر الصادر عام 1873، اعتبر أن للصلوات هدفًا نفسيًا وروحيًا يتمثل برغبة الروح المخلصة والمنهكة في أن تتوجه إلى كائن روحي فوقي وغير مرئي[30].

التضرع بل الصلوات والتراتيل والمعابد والمدونات الدينية ما هي إلا نتيجة من نتائج الإيمان ونتيجة من نتائج الخوف والهلع والرهبة من المجهول.

لقد قمنا بتعريف الخوف وذهبنا أن هذه العاطفة التي تخرج الإنسان من وضعه الطبيعي وترميه في متاهات أمر جلل قد يقع بعد ساعة أو يوم أو سنة بل الأهم من ذلك أن يقع بعد الموت!

29- فالح مهدي، صلوات العالم، بيت الياسمين، الطبعة الثالثة 2021. ص 50-55.
30- نفس المرجع.

للرهبة شأن آخر. الفيلسوف ورجل الدين الألماني رودولف أوتو خير من عرفها: «الرهبة في حد ذاتها، إن هي إلا عاطفة الخوف، المألوفة و(الطبيعية جدًا). «بيد أن اللفظ يراد به هنا.. أن ينوه بنوع خاص جدًا من الاستجابة العاطفية، المتميزة تميزًا كاملًا عن الاستجابة للخوف، مع أنها تشبهها إلى حد كبير، بحيث أنه يمكن استخدام تشبيه الخوف لإلقاء الضوء على طبيعتها»[31].

ليس العهد القديم والذي هو نتاج ثقافة هذه المنطقة، من أشار فقط إلى مفهوم (مخافة الله) بل كل الديانات استندت إلى موضوع الخوف والرهبة والخشية لكي تستقيم وتبقى فاعلة.

إن عبارة (مخافة الله) لها صلة أيضًا بالإله الإغريقي (بان)، حيث كان اسمه يثير الذعر والخوف في نفوس من ينطقه ومن يتقيه إلى درجة أن يفقدهم صوابهم لمجرد سماعهم بدنوه منهم. كما أن عبارة (هول بان) تشير إلى الهلع الجماعي الذي يدب في قلوب الناس على حين غفلة منهم، فيفقدون صوابهم فيركضوا ذات اليمين وذات الشمال دون إرادتهم.[32]

اليهود كانوا يتجنبون ذكر اسم ربهم لذا أطلقوا عليه (يا هوا). وربما يعود هذا الأمر إلى الثقافة البابلية فقد كان البابليون يتجنبون ذكر ربهم الأعلى والذي هو مردوخ، فيطلقوا عليه لقب (السيد).

الإيمان بالحياة الأبدية بعد الموت، يسمح للإنسان كما ذكرنا ذلك سلفًا عند التفكير بموته ونهايته أكثر احتمالًا.

طقوس الموت

ليس هناك من مادة ترشدنا إلى فهم أصل وبدايات التدين، أكثر من طقوس الموت. فديانات ما قبل التاريخ (والتي تشير إلى الفترة الزمنية الشاسعة الممتدة منذ ظهور أوائل أسلاف البشرية الشبيهين بالإنسان وحتى ظهور الكتابة. أي ما يقارب 3000 سنة قبل التقويم المعاصر)، تشير إلى هذا الموضوع. بل ما

31- رودولف أوتو: فكرة القدسي: التقصي عن العامل غير العقلاني في فكرة الإلهي وعن علاقته بالعامل العقلاني، ترجمة ن جورج خوام البولسي، دار المعارف الحكمية، 2010، ص36.
32- نفس المرجع، ص37 وفي الهامش الذي خطه المترجم.

نمتلكه من مادة لمعرفة ديانات الأقوام الأولى يرتكز على موضوع الموت. تتركز الدراسات والبحوث المتصلة بالديانات ما قبل التاريخية وهي تشمل بطبيعة الحال المعتقدات والممارسات الدينية إلى فترة تمتد إلى 60.000 قبل التقويم المعاصر ونجد آثارًا لها في الزمن الراهن عند جماعات يطلق عليها بدائية[33].

هذا المصطلح ليس بشتيمة، بل وسيلة علمية لتحديد طبيعة المجتمعات. هناك مجتمعات لا زال نمط حياتها قائمًا على الصيد ونجد آثارًا جلية لها في أستراليا وبعض المناطق في أفريقيا وسكان أمريكيا قبل كولومبو والأسكيمو... إلخ.

اللغة وما تحمله من توثيق عظيم لأي مفردة من مفرداتها وتاريخ نشأتها مهمة جدًا، لكنها ليست بدليل قاطع على فهم ما نربو إليه، فهي معبرة عن لحظة معينة وعن ثقافة معينة كما أشار الفيلسوف فيتغشتاين Wit-tgenstein في كتابه (استقصاءات فلسفية)، لكنها مع ذلك من أعظم الوسائل لفهم طبيعة مجتمع قديم كالسومري والمصري مثلًا. تقسيم التاريخ إلى كتابي وغير كتابي يحمل قدرًا كبيرًا من الصحة.

اللغة وضعتنا أمام محنة كلكامش، وموت أنكيدو، والوصول إلى الزمن الافتراضي عندما قام كلكامش بعبور الخط الفاصل بين الزمن الحقيقي والزمن المتخيل والافتراضي (الذي كان يعيش فيه أتونابتشم إلى الأبد)، وأمام قصة الخلق البابلية ومئات القصص التي أتت على شكل أساطير. وهذا الأمر ينطبق على مصر والحضارات الأخرى في هذه المنطقة من العالم.

من المستحيل الجزم وعلى نحو علمي، الكلام عن الدين عند إنسان النايندرتال. الظهور الأول للكائنات البشرية كان في شرق أفريقيا أي قبل فترة تتراوح بين مليونين إلى مليونين ونصف مليون من السنين. ومنذ مليون ونصف مليون سنة ظهرت كائنات بشرية في أوروبا وآسيا قبل 300.000 عام. بل هناك أدلة على وجود الكائنات البشرية في أستراليا منذ أكثر من عشرين ألف عام [34]. «خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن حصلت تطورات وتحولات كثيرة، فتشكلت ثقافات مختلفة

33- موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الأول، تحرير: فراس السواح، دار التكوين، دمشق الطبعة الرابعة 2017، ص 297.

34- نفس المرجع، ص 303.

(*) الباليوليثي: يقصد به العصر الحجري القديم.

جدًا عن بعضها البعض في شتى المناطق... ينبغي أن تكون نقطة انطلاقنا هي وجود تشكيلة من الديانات خلال العهد (الباليوليثي)، أن طبيعة الأدلة وندرتها وصفتها العشوائية تمنعنا من التمييز والتعريف المقنعين لأية سمات خصوصية لهذه الديانات... بل إن مصطلح (ديانة) نفسه يجب تعريفه بشكل عريض جدًا، والسماح له بأن كل شيء يوحي بعلاقات مع عالم ما وراء الظواهر الطبيعية».[35]

الطقوس الجنائزية كما ذكرت في بداية هذه الفقرة، حيث يتمكن الباحث أن يتتبع ذلك الغنى الملفت للنظر لما يقدم من هدايا جنائزية مرافقة للدفن، في العصر الحجري القديم أي قبل أكثر من 60.000 عام.

الدراسات الحديثة ألغت الأحكام المسبقة المتعلقة بإنسان العصر الحجري الأول، فقد اعتُبر النياندرتاليون، غير مؤهلين للأفكار الدينية بسبب بنية أجسامهم وحجم أدمغتهم مقارنة مع الإنسان العاقل Homo sapain، والذي هو أحدث عهدًا في سياق عملية التطور التي فرضتها الشروط الطبيعية والبيئية، فانتقل الإنسان من كائن شبيه بالحيوانات همه الأول الحصول على الطعام، بل إن دماغه الصغير لا يفكر إلا بذلك، إلى مبدع وخالق للأفكار وبناء المدن والبيوت وتشييد المعابد وإقامة الصلوات وبناء الدول... إلخ.

المدافن من أهم الأدلة على وجود أفكار دينية، عبر الطقوس والقرابين ودفن الميت. لقد عثرنا ومنذ ذلك العصر الممعن في القدم على موتى بسيقان مثنية قليلًا، مدفونين في حفر مستطيلة. إنما الملفت للنظر والتأمل أن جسم الميت يوضع على جانبه الأيمن. ليس هذا فقط، بل يكون الرأس متجهًا إلى الشرق.

في كتابي نقد العقل الدائري[36] أشرت إلى مسألة تقسيم المكان في العصر الزراعي، لقد وجدت في دراسة Kari J.Narr، والمنشورة في كتاب (موسوعة تاريخ الأديان)، مادة مهمة عن هذا الموضوع المهم عن جذور الدين في العصر الحجري القديم[37].

35- نفس المرجع، ص 303.

36- راجعه على النحو التالي: نقد العقل الدائري، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، بغداد 2019.

37-موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الأول، تحرير: فراس السواح، دار التكوين، دمشق الطبعة الرابعة 2017، ص 308.

ومع أهمية المادة التي وردت في هذا الكتاب، إنما لم يرشدنا (المحرر) والذي هو فراس السواح، إلى تاريخ نشر هذه المواد وأين عثر عليها. لا أعلم كيف سمح فراس السواح في أن يطلق على نفسه لقب (محرر) وكل ما قام به الطلب من مجموعة من المترجمين بنقل تلك النصوص إلى العربية!

هذه المعلومة عن إنسان النايندرتال، نجد آثارًا لها في العصر الراهن، فبقي اليمين مباركًا وكذلك الشرق والذي يرمز إلى شروق الشمس.

في الإسلام مثلًا يُدخل الميت من فتحة القبر، بحيث يدفن باتجاه القبلة مباشرة من غير الحاجة إلى الدوران داخل القبر. بل المطلوب شرعًا هو وضع الميت في قبره على شقه الأيمن. هنا نجد أن الأعراف الإسلامية كانت وفية لمنطق العالم القديم والذي قام بتقسيم المكان إلى شرق وغرب، شمال وجنوب، وفوق وتحت، ويمين ويسار. القبلة في الأعراف الإسلامية تمثل الشرق ودفن الميت على شقه الأيمن ترديد وليس ابتكارًا لما وجد ومنذ أكثر من 300000 عام.

الأقوام البدائية في العصر الراهن تؤكد هذه المعادلة، ففي بعض قبائل أفريقيا التي قام بدراستها بعض كبار المختصين من أكبر رواد الأنثروبوجيا، كسبنسر وماكدونالد مثلًا وفي القرن التاسع عشر، كان الاعتقاد السائد أن هناك شيئاً وراء الجسد[38].

هنا كما هو الحال في العصر الحجري القديم، يدفن مع الميت جزء كبير من ممتلكاته، سريره وملابسه وعبر عملية تمثل طقوس جنائزية في غاية التعقيد، حيث يطحن ناب واحد أو أكثر إذا كان الميت يمتلك عدة أنياب من العاج إلى مسحوق بين حجرين ويوضع بجانبه... تتخذ هذه الاحتياطات لمنع الساحرة (التي يفترض أنها مسئولة عن موته) من استخدام العاج أو الخرز. وإذا كان للمتوفى عدد من العبيد فإنهم يدفنون معه. هذا الطقس وجدنا آثارًا له عند الفراعنة وعند السومريين والأكاديين في العراق.

بل نجد عند هذه الأقوام البدائية بعض الطقوس والتي كانت سائدة في حضارات عظيمة، فقد يتخذ زعيم عجوز جبلًا كاملًا مقرًا له، حيث يسكن

38- جرانت ألين، تطور فكرة الله، ترجمة علي مولا،2011، لم نعثر على دار النشر التي قامت بنشر هذا الكتاب. ص31.

هو في قمة الجبل الملبدة بالغيوم.

فمن ذلك المكان يتلقى عبادة وتضرعات اتباعه من أجل نزول المطر[39]، فيقوم كما كان يفعل الفرعون المصري بركوبه نهر النيل ووصوله إلى آخر نقطة فيه ويقوم بطقوسه وتعاويذه حتى يعود النيل إلى مجراه[40].

دفن الموتى لم يكن الوسيلة الوحيدة للتخلص من الجثة، فقد يحتفظ بالجثة في كوخ أو في الكهف حيث تسكن الأسرة. لقد وجدَ في قرية في غينيا الجديدة وفي القرن التاسع عشر، امرأة، كانت تحتفظ بجثة زوجها في كوخها، حتى تجف من تلقاء نفسها، وكانت تقوم بتقبيل الجثة وتقديم الطعام لها في كل يوم، وكأنها حية.[41]

من الطقوس الأخرى يمكن حفظ الميت، مثل الخضار، في محلول ملحي أو خل. يمكن أيضًا التخلي عنه للوحوش الشرسة أو حرقه كقمامة أو دفنه ككنز. من التحنيط إلى حرق الجثث، يتم استخدام جميع أنواع التقنيات، ولكن خلاصة القول هي أنه يجب القيام بشيء ما مع الجثث. أول البشر المعاصرين، أسلافنا المباشرين، دفنوا موتاهم من العصر الحجري القديم.

يُفترض أيضًا أن أبناء عمومتنا من إنسان نياندرتال فعلوا ذلك أيضًا، على الرغم من أن هذا لا يزال غير مؤكد. من الواضح أنه ليس من السهل تحديد ما إذا كانت الجثث قد دُفنت عمدًا عندما تم العثور على العظام تحت طبقات من الرواسب.[42]

هذا يؤكد مرة أخرى مصداقية فكرة أن طقوس الموت هي نشاط بشري. ربما تدل دون أن نمتلك دليلًا على ذلك على أن الإنسان العاقل (أي أسلافنا الأوائل) وحتى إنسان نياندرتال (كان له دين). يبدو أن حقيقة دفن الموتى بطريقة طقسية تثبت وجود مفاهيم خارقة للطبيعة - الأجداد والأرواح.

من يموت ستكون في انتظاره الدنيوية الأخيرة، وسيعود من مات في شكل

39- نفس المرجع، ص 32.

40- راجع ما ذكرته عن هذا الموضوع في كتابي الذي اشرت إليه (نقد العقل الدائري الخضوع السني والإحباط الشيعي).

41- جرانت ألين، تطور فكرة الله، سبق الإشارة اليه، ص55.

42- Pascal Boyer, Et l'Homme Créa Les Dieux , Paris , Robert Lafont, P2101.

آخر. قد تتخذ العلاقة بين العوامل الخارقة للطبيعة وتصورات الموت أشكالًا مختلفة في مجموعات بشرية مختلفة، ولكنها موجودة دائمًا.

لماذا؟ إحدى الإجابات هي القول إن مفاهيمنا وعواطفنا عن الموت هي ببساطة أصل المفاهيم الدينية، ويبدو أن فناءنا يطرح أسئلة يجيب عنها الدين ويثير المشاعر التي تساعد على تهدئتها[43].

الإنسان على عكس الحيوان يحاول أن يعقد صلة مع المقربين من أمواته، أي بما نطلق عليه الجنة والإقامة الخالدة وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نتساءل عن الحضارة التي نسيت مراسيم الموت والدفن والطقوس المتعلقة بها. في كل الحضارات القديمة، كان الموت حاضرًا وعلى نحو متواتر، فمن يمت يبقَ حاضرًا بجسده وروحه وإنه يعيش بعد خروجه من هذه الدنيا في عالم خالد، وهذا الأمر ينطبق على الثقافة الهندية الدينية مع اختلاق بنيويتها عن الديانات التوحيدية. فيعتبر قريب ولا يمكن الوصول إليه.

ومن هنا تلك الإشارة في الثقافة الدينية الصينية، حيث يقوم الرجال بمسح عظام أجدادهم بحركات تنطوي على عناية فائقة، بل حتى الطقس في مدغشقر والذي يتضمن عودة الموتى دوريًا يتضمن الاعتقاد من تعب الموتى من البقاء دائمًا في نفس المكان. في المكسيك، يقوم الناس في الثاني من نوفمبر بوضع قطع من الحلوى والتي كانت مفضلة لدى من مات وكذلك أجهزة راديو صغيرة تسمح للموتى بالاستماع إلى ما يجري في العالم؛ وفي البيوت يتم نصب مذابح هياكل وأجنحة للموتى والغرض من ذلك التوسل لهم في أن يتركوا الأحياء بسلام!

وليس من العبث من الناحية الأنثروبولوجية المقارنة بين عبادة الإله الحارس للبيت لاريس عند الرومان والطقس الجنائزي التقليدي في أفريقيا ذي الطابع البدائي. عبادة الإله لاريس الذي يمثل روح الأجداد عند الرومان وهو حامي وحارس البيوت. في هذه العبادة تقوم العوائل بتقديم أعطية أو ذبح حيوان على شرف هذا الإله. الطقس الأفريقي يعتبر الميت غير طاهر أي أن الموت يخرج الإنسان من الطهارة، وهذا الاعتقاد تشترك به كثير من الثقافات القديمة. كل تلك الطقوس لها وظيفة أساسية تتمثل بتطهير الميت وأيضًا تسمح له بالدخول في (قرية الأجداد).

43- ibid, P202.

كما نلاحظ هنا في الطقس الأفريقي، ليست هناك مدن لذا يسكن الأجداد في قرية حتى بعد الموت. الموت لا يقطع الصلات بين الأجيال، فللأجداد حضور فاعل، أي أنهم أحياء غير مرئيين. الثقافة الدينية الأفريقية تقوم بخلق علاقة بين (قرية الموتى) و(قرية الأحياء).

توصل بعض الباحثين إلى أن المسيحية تقوم بالتقريب بين الموتى والأحياء على العكس تمامًا من الأعراف الإغريقية الرومانية التي كانت تفصل بين العالمين[44].

جاء هذا الفهم من ملاحظة وجود عدد كبير من القبور تحيط بقبور القديسين ولا سيما الشهداء منهم، ومن ثم تطور الأمر إلى إقامة مقابر بالقرب من الكنائس، بل أصبح الدفن مألوفًا حتى داخل المحراب. إذ يتم دفن الميت برعاية وحماية القديسين وما تبقى من آثارهم. بمعنى أن مهمة الموتى القدماء مساعدة من مات توًا. وهنا نقصد المساعدة الروحية حتى لا يتعرض إلى اختبارات القبر والطقوس المرعبة ما بعد الموت.عبّرت المسيحية في القرون الوسطى عن العلاقة بين الأحياء والموتى عبر ابتكار عيد كل القديسين La Fete de la Toussaint ومن ثم عيد الأموات وذلك في عام 610 عندما قرر البابا بونوفيس الرابع ذلك وكان غرضه من ذلك تكريم بعض شهداء المسيحية من الرومان، عندما قرر نقل رفاتهم من سراديب الموتى إلى البانتيون[45]. ذلك الطقس الذي قام به البابا في القرن السابع تحول إلى عيد كل الشهداء وكل القديسين[46].

في مقابل ذلك عارض لوثر وكالفن ذلك التوجه الذي ينزع إلى إضفاء صفة القداسة على بعض رجال الكنيسة، فاعتبر أن تضحية المسيح فوق الصليب تعتبر القوة الشرعية الوحيدة للكنيسة المسيحية.

44- P. Ariès, L'Homme devant la mort, pp3795-, Seuil ,1977.

45- (معبد أو مكان يرقد فيه من الموتى عظماء رجال أمة من الأمم، وكان في الأزمنة القديمة (مقر الآلهة)

46- Jean Delumeau: Que reste -t-il du paradis, paris , Fayard,2000, P453.

الخوف من الفراغ

يعمل الدماغ البشري بطريقة سردية، أي أنه يحاول تمثيل أحداث بيئته، مهما كانت تافهة، من حيث القصص السببية، للتسلسلات التي يكون فيها كل حدث نتيجة لحدث آخر ويمهد للمرحلة التالية.

في كل مكان، يخترع الرجال القصص، ويستمعون إليها بشغف، ويعرفون كيف يتعرفون على العقلاء. لكن غريزة السرد لدينا أعمق. إنها جزء لا يتجزأ من تمثيلنا العقلي لما يحدث حولنا. إلى جانب ذلك، لقد ولدنا مبرمجين، وحياتنا العقلية مليئة باعتبارات لما قد يحدث، وماذا سيحدث إذا فعلنا هذا بدلًا من ذلك. هذا الأداء المنفصل هو بلا شك سمة تكيفية تسمح بحساب المخاطر طويلة المدى بشكل أفضل بكثير من تلك التي يمكن للأنواع الأخرى القيام بها، ولكن يترتب على ذلك أننا نتخيل لأنفسنا مواقف أكثر خطورة مما نعيشه، لا سيما في لحظات الكرب والحزن الشديد الذي يرافق كل إنسان في لحظة ما وكذلك الأمراض والكوارث الطبيعية. في هذه اللحظات غالبًا ما يكون احتمال الموت حاضرًا.

فكرة أن الدين ينشأ من الخوف البدائي والذي لا زال قائمًا من الموت، هي واحدة من أكثر السيناريوهات شيوعًا لأصول الدين.

إدارة الرهبة

قامت المؤسسات الدينية وعلى نحو يقيني ومنذ عصر الكتابة عند السومريين والمصريين القدماء، بإدارة والتحكم بموضوع الرهبة من الموت. الإنسان كالحيوان يجد السبل اللازمة لكي يبقى على قيد الحياة.

المدونات الثقافية التي أنتجتها المؤسسات الدينية والرموز المشتركة، والقيم المشتركة، والشعور بالانتماء ستكون بمثابة (حواجز) ضد معاناة الموت من حيث أنها توفر الأمن والحماية[47]. ومن ثم، فإن هذه النظرية تقدم على ما يبدو نسخة متطورة وقائمة على التجارب من حدسنا بأن الدين يحمينا من قلق الموت. في الواقع، يبدو أن جميع الأديان تقول إن الموت ما هو إلا مرحلة.

47- Ibid, P204208-.

الحركة – الزمن – الدين

انتبه الإنسان القديم إلى مفهوم الحركة عبر الفصول والتي سيطلق عليها لاحقًا الفصول الأربعة، عبر تعاقب الليل والنهار، عبر مراحل حياته من ولادة وطفولة إلى مرحلة الفتوة، والشيخوخة... إلخ، ومنذ أزمنة ممعنة في القدم.

الحركة والتي سيطلق عليها الإنسان القديم مصطلح (الزمن)، ملموسة وحاضرة في كل تفاصيل حياة ذلك الإنسان، ربما كان لها دور فاعل في تدين الإنسان.

الحركة وما تتضمنه من إيقاع رسم حياة الكائن البشري ومنذ أقدم الأزمنة تشير إلى أن الخوف وحده لم يكن فاعلًا لخلق المفاهيم الدينية.

في حين (الزمن) كمفهوم من الصعب إثباته، بل إن هناك جمهرة من علماء الفيزياء يرفضون مفهوم الزمن ويعتبرونه وهمًا من الأوهام[48]

ولم تكن تلك المبارزة والمطارحة بين أينشتاين، الذي جاء ليقدم محاضرة عن نظريته النسبية وبين الفيلسوف الفرنسي بيرجسون، والتي تمت في كوليج دو فرانس، في أبريل من 1922، أي قبل أكثر من مائة عام، حدثاً عابراً.

أينشتاين تكلم عن الزمن الذي يسير في اتجاه واحد. والزمن الذي يقصده أينشتاين، هو الزمن الخارجي والموضوعي، الزمن الذي تتحرك النجوم والكواكب داخله، أما الزمن الذي يشار إليه عبر الساعة واليوم والسنة، فهو يشير إلى دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس.

للفيلسوف الفرنسي هنري بيرجسون رأي جدير حقًا بالتأمل، بل حتى يمكننا أن نتساءل: ماذا لو كان بيرجسون على حق؟ فعندما نقول وحسب رأيه (الوقت يمر) فإننا في كثير من الأحيان، نعتبر ذلك أمرًا مفروغًا منه. السؤال المهم هنا هو: هل الزمن يمر أم نحن من يمر؟[49]

الحركة يلمسها الإنسان في كل ثانية في حياته، على عكس الزمن فهو مفهوم تم اختراعه ووجدنا أول أثر له عن السومريين أولًا ومن ثم البابليين الذين برعوا في علم الفلك، كما أن الصين كانت بارعة في اختراع مفاهيم الزمن.

مفاهيم الزمن فرضتها مجموعة من الاعتبارات، دورة الحياة لكل كائن

48- فالح مهدي، تاريخ الخوف، سبق الإشارة اليه، ص 55.

49- Henri Bergson, Durée et Simultanéité, Paris, Flammarion ,2021.

حي، فهي تبدأ بنقطة وتنتهي بنقطة، المواسم الزراعية، مواعيد الضرائب، والاتصال بالقوة العليا.

السومريون أولًا ومن ثم الباليون وعبر مدوناتهم التي عثرنا عليها يقدمون لنا إجابات، بل أولى الإجابات في تاريخ الإنسانية عن مفاهيم الزمن. لقد توصلوا إلى تقسيم السنة إلى اثني عشر شهرًا، والشهر إلى ثلاثين يومًا، واليوم إلى أربع وعشرين ساعة. السؤال: لماذا قسموا السنة إلى اثني عشر شهرًا؟ ولماذا يجب أن تكون السنة 360 يوم؟ إلخ من هذه الأسئلة التي ستقود خطانا إلى فهم موضوع الزمن وعلاقته بالمقدس.

حضارة وادي الرافدين والصين هما من أهم من اهتم بموضوع الزمن في العالم القديم، التقويمات التي ذكرناها، من بابل والصين القديمة، تثبت هذا الميل لتنظيم حياة البشر على ضوء النجوم.

بفضل ظهور الكتابة في بلاد الرافدين في نهاية الألفية الرابعة، توصلنا إلى معرفة مفاهيم بلاد ما بين النهرين للوقت، حيث تم تطوير صيغ تقسيم الوقت لأول مرة في أرشيف المؤسسات التي كانت قائمة آنذاك، تلك الخاصة بالقصور والمعابد، والتي تحتوي على كمية هائلة من النصوص الإدارية، والتي غالبًا ما تكون مؤرخة؛ ومن ناحية أخرى، في أرشيفات الأسرة (أي الأرشيفات الخاصة)، الموثقة بشكل خاص من الألفية الثانية، يمكن أيضًا أن تحمل العقود المبرمة بين الأفراد والمحاكمات تاريخًا.[50]

تكشف أقدم الألواح، المكتشفة في أوروك، عن نظام تدوين خاص: تشير الأيدوجرامات إلى اليوم والعلامات الرقمية التي تتوافق مع الوحدات والعشرات والثلاثين يومًا (أي الشهر) والسنة المكونة من 12 شهرًا

ومع ذلك، في القرون الأولى من الاستخدام المكتوب، لم يكن هذا التدوين للوقت موحدًا على الإطلاق. لكنه استقر في نهاية الألفية الثالثة.

في تلك الوثائق تم الإشارة أولًا إلى اسم الشهر، ثم اليوم الذي يُشار إليه بالرقم، وأخيرًا السنة. ولكن هذا التثبيت في طريقة كتابة التاريخ لا يعني أن

50- Brigitte Lion, Babylone: Le soleil et la lune, L'Histoire, N° 497498-, Juillet -Aout 2022, P1619-.

نفس التقويم كان يستخدم في كل مكان في بلاد ما بين النهرين لمدة 3000 سنة، في عالم بعيد كل البعد عن الوحدة، حيث تلعب التقاليد المحلية دورًا قويًا للغاية. ومع ذلك، يبدو أن أحد الثوابت كان الجمع بين الأشهر القمرية والسنة الشمسية. وهذا ما نسميه التقويم القمري الشمسي

تم رصد السماء بالعين المجردة، وتظهر أسماء النجوم والكواكب والأبراج في نصوص تعود إلى الألفية الثالثة. وأهم النجوم كان القمر، وكان يُدعى إله القمر نانا باللغة السومرية، وسين باللغة الأكادية.

ومن مراقبة القمر يتم اشتقاق طول الأشهر (29 أو 30 يومًا كما في معظم التقاويم القمرية)، والتي تبدأ بالقمر الجديد.

في الألفية الثانية، في بابل، تم تقسيم العمل بين عمال المعابد إلى ثلاث فترات مدة كل منها 10 أيام. وأخيرًا، يتبع تقسيم الأيام أيضًا الدورة القمرية، حيث يبدأ عند حلول الظلام.

يظهر تنوع عالم بلاد ما بين النهرين أيضًا في أسماء الأشهر التي تظهر في منتصف الألفية الأولى. لقد تنوعت حسب الموقع، وحتى إمبراطورية أور في نهاية الألفية الثانية لم تفرض تقليدًا موحدًا في هذه النقطة.

وفي بداية الألفية الثانية، كانت مدينة نيبور، مع كتابة أسماء الأشهر باللغة السومرية، والتي انتشرت عبر جنوب بلاد ما بين النهرين واستمرت حتى الألفية الأولى، سباقة في هذا المضمار.

كان لتأثير الزراعة دور أساسي في تسمية أشهر السنة، ففي القرن التاسع عشر قبل التقويم المعاصر، وجدنا شهرًا باسم شهر التين te'inatum وشهر الحصاد عند الآشوريين والذي يكتب على النحو التالي eburum.[51]

كانت مهمة الشهر القمري تنظيم الأنشطة الدينية والاحتفالية، في حين قامت السنة الشمسية في التحكم بالأنشطة الزراعية، وتحديد الفصول، حيث قُسّمت إلى أربعة فصول.

التلميحات إلى وقت من السنة تشير إما إلى المناخ، على سبيل المثال إلى الفترة (الباردة)، أو إلى الأوقات المناسبة للعمل الزراعي.

51- Ibid.

فقط في نهاية الألفية الأولى، عرض لوح فلكي تقسيم السنة إلى أربع فترات مدة كل منها ثلاثة أشهر.

وتنوعت بداية السنة الشمسية نفسها، فقد بدأت بالفصل الربيعي، ولكن الآشوريين أخذو بالاعتدال الخريفي بداية السنة الخ

منذ منتصف الألفية الثالثة، تم تحديد كل عام باسم، تخليدًا لذكرى إنجاز قام به الملك في العام السابق. ركز الاختيار، الذي قام به الملك نفسه، على أعمال التقوى (القرابين للمعبد، وتكريس فتاة كاهنة)، أو (عمله في البناء وحفر القنوات، أو حتى على انتصاراته). وكانت هذه الأسماء طويلة جدًا، مثل، على سبيل المثال، اسم سامسو إيلونا، ابن وخليفة حمورابي على عرش بابل، في العام 24: (العام الذي بنى فيه سامسو إيلونا، الملك الذي يحكم بالحكمة، على ضفاف نهر الفرات سور مدينة كيش).

التنجيم والعرافة

للتعويض عن إخفاقات الذاكرة البشرية، تم إنشاء قوائم بأسماء السنوات في جنوب بلاد ما بين النهرين، وقوائم الأسماء المستعارة في الشمال، وقوائم الملوك في كل مكان.

تعد صيغ التأريخ ذات قيمة كبيرة بالنسبة للمؤرخين، لأنها تتيح لنا معرفة السلطة السياسية التي تم الاعتراف بها في المكان الذي كُتب فيه اللوح.

كان الملك الفاتح أحيانًا يحضر معه تقويمه الذي يحتوي على أسماء معينة، ودائمًا ما تكون هناك طريقة لملاحظة أسم السنة. كما أنها تجعل من الممكن ربط مملكة بالألواح الناتجة عن التنقيب المعاصر والتي لا يُعرف مصدرها[52].

ولم تكن مراقبة النجوم تُستخدم لقياس الوقت فحسب، بل كانت المسألة

52- John H. Rogers, (Origins of the ancient constellations: I. The Mesopotamian traditions(, Journal of the British Astronomical Association 108 (1998) 9–28

Verderame, Lorenzo, (The Primeval Zodiac: Its Social, Religious, and Mythological Background(, in J.A. Rubiño-Martín et al., Cosmology Across Cultures, ASP Conference Series 409, San Francisco, 2009, 151156-.

أيضًا، جزئيًا، فلكية. كان يُنظر إلى خسوف القمر باهتمام شديد، وقد يكون إيجابيًا أو سلبيًا اعتمادًا على وقت حدوثه. من بين المجموعات التنبؤية الرئيسية التي كانت موضوع مجموعات متتالية واتخذت شكلًا قانونيًا في نهاية الألفية الثانية[53]

وفي الألفية الأولى كان الملوك حريصين بشكل خاص على عدم اتخاذ أي إجراء في يوم غير مناسب بسبب بعض الظواهر السماوية وسمحوا بالتنبؤ بها.

يعرض لوح من نهاية القرن الخامس، لأول مرة، 12 علامة زودياك (*) العديد منها، مثل الميزان أو العقرب، احتفظت بنفس الاسم حتى اليوم، وانتقلت عبر الإغريق إلى أوروبا.

في عالم تسكنه الإشارات الإلهية، كان توقيت الأحداث دائمًا مهمًا. وبالتالي، فإن علم كبار رجال الدين ممن يشرف على المعبد يعطي قائمة الأيام من كل شهر التي يكون فيها نشاط معين، أفضل من غيره. على سبيل المثال هدم وإزالة أنقاض منزل لإعادة بنائه، إيجابيًا أو سلبيًا. وبالمثل، في مجموعة تنبؤية تجمع آلاف البشائر المأخوذة من الحياة اليومية، كانت لحظة الحدث مهمة، كما يتضح من لوح يتعلق بلقاء الثعابين: (إذا خرج ثعبان في الأول من نيسان [الشهر الأول من السنة]، من جحرها دون أن تُرى فرأت رجلًا قبل أن يضع هذا الأخير قدمه على الأرض عند قيامه من سريره، سيموت هذا الرجل خلال العام).[54]

كان لتلك التنبؤات والتي تقوم بها المؤسسة الدينية دور مهما في حياة

53- Brigitte Lion, Babylone: Le soleil et la lune. Ibid.

(*)زودياك: هي البروج الاثني عشر .كان المولد الحقيقي لعلم الفلك في بلاد الرافدين؛ إذ كانت بابل القديمة مصدر المفاهيم الفلكية الرئيسة، وأهمها دائرة البروج الاثنى عشر، ونقل عنهم الإغريق ومن بعدهم الرومان دائرة البروج، فهم لم يستعيروا أسماء البروج فحسب، بل وأشكال العلامات البروجية، وبشكلٍ خاص فى تصوير برج العذراء والقوس والجدي والدلو. ولعبت مصر إبان العصر البطلمي والروماني دورًا محوريًا في التعبير عن هذه البروج وعلاقتها بالديانة والمعتقدات والأنشطة اليومية، لذا سوف تعرض الدراسة لتطور دائرة البروج منذ نشأتها فى بابل مرورًا ببلاد الإغريق والعصر الهلّينستي، وانتهاءً بالعالم الروماني، وتوضيح إسهامات كل من هذه الحضارات العريقة فى إثراء هذا العلم، فضلًا عن التعبير الفني لدائرة البروج من حيث تنوعها واستخداماتها ودلالاتها حينذاك.

54- Ibid.

الناس. ومن الواضح أن الملوك كانوا حذرين بشكل خاص من اتخاذ إجراء في يوم غير مناسب.

أخيرًا تتيح لنا ألواح بلاد ما بين النهرين معرفة بعض العناصر حول الوقت. منذ متى؟

مفهوم الحركة والزمن وعلاقتهما بالدين

ليست الحضارة السومرية والبابلية لاحقًا الوحيدة التي ربطت بين الحركة -الزمن - الدين.

ففي كل العالم القديم الذي تمكن من إنشاء حضارات نجد هذه المعادلة (حركة-زمن- دين). في مصر الفرعونية عثرنا على اهتمام قدماء المصريين بالزمن، إنما البيئة المصرية والنيل بالذات، دفع المصري القديم (وهنا نقصد رجال المعبد والسلطة الحاكمة) إلى تقسيم الفصول إلى ثلاث: فصل الفيضان: أخت، فصل انحسار الفيضان والبذر (الشتاء) پرت، وأخيرًا فصل الحصاد (الصيف): شمو.

الصين كانت بارعة جدًا فيما يتعلق بهذه المعادلة، فقد أعارتها أهمية كبيرة، لا يمكن فصلها، عن التنظيم الشعائري للمجتمع الصيني. ومن المفترض أن يضمن الإمبراطور الصيني، من خلال الطقوس، مبدأ مفاده أن الحياة الاجتماعية تتبع النظام الطبيعي للأشياء، وأن زمن المجتمع يتماشى مع زمن الطبيعة.

يوضح قصر النور، مينغتانغ، من عهد أسرة تشو (القرن الحادي عشر والثاني عشر قبل الميلاد)، هذا الدور السياسي البارز الذي لعبه التقويم.

يتكون القصر، قلب الإمبراطورية، من عدة غرف، يتحرك الإمبراطور بينها عند كل قمر جديد، ويتخذ القرارات في كل منها - (ترتيبات الحكم المتخذة عند القمر الجديد (يوي لينغ) - والتي تضم، اعتمادًا على الغرف جوانب مختلفة من حياة الإمبراطورية. هذا نظام نظري أكثر منه حقيقي، ولكنه يوضح الدور الممنوح للتقويم في ترتيب العالم الذي كان، منذ بداياته، مسئولية القوة الإمبراطورية

تم تأكيد هذا الدور قبل كل شيء من خلال أسطورة مشهورة، مسجلة في كلاسيكيات الوثائق (شانغ شو)، أحد النصوص المؤسسة للتقاليد الصينية، والتي من المفترض أنها تجمع الخطب السياسية والتأبين والمراسيم

الإمبراطورية للملوك الأسطوريين في (الصين). العصور القديمة والسلالات الصينية الثلاث الأولى: شيا (سلالة يعتبرها بعض المتخصصين أسطورية)، شانغ (القرن السادس عشر إلى الحادي عشر قبل التقويم المعاصر).

نجد في كلاسيكيات الوثائق قصة الأخوين شي وهو، اللذين أرسلهما الملك ياو (الذي كان سيحكم في الألفية الثانية قبل الميلاد) لمراقبة تقدم الشمس، والقمر والنجوم، وأنه أصبح مسئولًا، بفضل هذه الملاحظات وهذه القياسات، عن منح الخبرة للرجال لمعرفة الفصول، وهذا يعني رسم وتحديد التقويم الصيني والذي هو تقويم قمري شمسي (الصينية المبسطة)، الأشهر قمرية، أي أن اليوم الأول من كل شهر (من 29 أو 30 يومًا) يتزامن مع القمر الجديد (واليوم الخامس عشر مع اكتمال القمر)؛ نظرًا لأن 12 شهرًا قمريًا لا تشكل سنة شمسية (11 يومًا مفقودة)، تتم إضافة سبعة أشهر إضافية على مدى تسعة عشر عامًا، بحيث تظل السنة متوافقة بشكل عام مع السنة الشمسية. الارتباط القمري الشمسي قديم، حيث وجدنا في الكتابات التنبؤية من أسرة شانغ (حوالي 1570إلى 1045 قبل الميلاد) سنة 12 شهرًا قمريًا مع شهر أو شهرين فاصلين.

من الممكن أن يعتمد الإمبراطور بعد ذلك مرسومًا ينص على أن (كل من يتقدم في وقت مبكر يُقتل دون مغفرة؛ أي شخص لا يصل في الوقت المناسب سيتم إعدامه دون مغفرة).

وهذا يدل على الأهمية السياسية التي أعطيت منذ العصور الصينية القديمة لوجود تقويم يعطي الوقت الصحيح.[55]

وبما أننا نتكلم عن أهم الحضارات التي أعارت الزمن دورًا مهمًا، لا بد من الإشارة إلى الحضارة الإغريقية.

وضع قدامى الإغريق طرقًا مختلفة لقياس الوقت، والتي لا نعرف عنها الكثير بشكل كامل. خلقت حالة من الارتباك الواضح فهي غير موثقة بشكل جيد، ولا تلك اللاحقة، حيث تمارس تأثيرات أخرى، لا سيما الدينية.

55- Le calendrier traditionnel chinois par P. Rocher, Institut de mécanique céleste et de calcul des éphémérides – Observatoire de Paris [archive] », sur imcce.fr (consulté le 20 juillet 2019)

دعونا نرسم هنا جدولًا لهذه التقسيمات الزمنية التي ساهمت بتقويض وحدة العالم اليونان.

من المؤكد أن الالتباس ليس مطلقًا، ونجد عددًا معينًا من الأطر المشتركة في جميع المدن اليونانية. لحساب السنوات والشهور والأيام، حيث استخدم اليونانيون الأساس 12، الموروث من بلاد ما بين النهرين[56].

إنهم يميزون بكلمتين مختلفتين عن الحقائق المخبأة تحت كلمتنا (النهار): (hemera) تشير إلى ضوء النهار، و(nychthemros) النهار القانوني، الذي يشمل الليل والنهار. وينقسم اليوم القانوني في كل مكان إلى 12 ساعة ليلًا و12 ساعة نهارًا.

تستخدم معظم المدن اليونانية التقويم القمري الشمسي، أي سنة مكونة من 12 شهرًا قمريًا يضاف إليها، كل ثلاث سنوات، شهر إضافي مكون من 30 يومًا للتعويض عن التأخير الذي تفرضه السنة الشمسية. ثم يأخذ هذا الشهر الإضافي اسم الشهر السابق.

ورث الإغريق علم الفلك من بلاد ما بين النهرين ومصر، وسعوا بكل الوسائل، إلى الجمع بين الحقيقتين، حيث لا يمكن التوفيق بينهما، إيقاع الدورتين القمرية والشمسية.

تشترك المدن اليونانية، أخيرًا، إلى جانب التقويم الكوني، في تقويم للعمل الزراعي. يقدم هسيود ملخصًا له في كتابه «الأعمال والأيام»، حيث يجعل هذه الظواهر الفلكية تتطابق مع قيم الحقول: طلوع الصباح تعلن الثريا عن حصاد أركتوروس، الملائكة القدامى. وتقاسم هذه المفاهيم وهذه التقسيمات الزمنية لا يمنع الالتباس، بل أبعد من ذلك! لأن اليوم مقسم إلى 12 ساعة في كل مكان[57]

في القرون الوسطى الأوروبية أخذ الناس بوقت الله. حيث ثبّت ميلاد المسيح نفسه كبداية للتقويم المسيحي، مما أدى في النهاية إلى ترسيخه في المقدس. لكن زمن الله هذا يتنافس بشكل متزايد مع زمن التجار.

56- Maurice Sartre, Le Bateau de Palmyre, Quand les mondes anciens se rencontreraient, Paris, Tallandier, 2021.

57- Maurice Sartre, L'Histoire, N° 497498-, Juillet -Aout 2022, p30.

العديد من الحضارات تعطي لنفسها نقطة انطلاق. بالنسبة للرومان، فهو تأسيس روما. بالنسبة للعبرانيين، هو بداية خلق العالم، وهو الأمر الذي تناوله المسيحيون في البداية. لكن بالنسبة للأخير، شهد التاريخ نقطة تحول أساسية تمَثلت بالتجسد. إن مجيء ابن الله إلى الأرض قد أعاد بطريقة ما تنشيط التاريخ العالمي من منظور أخروي، ومن هنا جاء هذا التقسيم الأساسي الأول في تاريخ البشر بين ما قبل ميلاد يسوع وبعده.

نقطة الأصل تبقى خلق العالم وآدم وحواء، لكن التجسد هو الذي يصبح مرجعًا لحساب السنين[58]. ومع ذلك، لم يكن هذا واضحًا على الفور.

ولم يخلُ التقويم في الإمبراطورية الرومانية بالذات من الاعتباط، فقد قرر يوليوس قيصر، على ضوء النصيحة التي قدمها له أحد العرافين أن يعتبر أيام السنة 445. كان ذلك في عام 46 قبل التقويم المعاصر.

تبني الإمبراطورية الرومانية للدين المسيحي كان له دور أساسي، فأصبح الرب المسيحي سيد الساعات ولفترة طويلة.

الهيمنة الغربية هي أيضًا تمكنت من فرض تصورها على العالم كله.

******

كل تلك التقاويم التي أشرنا إليها والتي تعتمد بشكل مطلق على التقويم الشمسي القمري، نظرت بل تأملت في الزمن، فأصبح لدينا الزمن السهمي والذي ساد الشرق القديم (بلاد الرافدين ومصر وإيران وبلاد الشام)، وهناك الزمن الدائري الذي تَحَكم بالمنتوج الثقافي للهندوسية وأخذت به الصين وكذلك الإغريق، دون أن يتخلو كليًا عن مفاهيم الزمن المستقيم.

58-Jean -Claude Schmitt, Les Rythmes au Moyen âge, Paris, Gallimard,2021.

الوعي - الروح- الدين

من أهم العقبات إيجاد تعريف مقنع لمصطلح الوعي. من التعاريف المهمة نجد أن الوعي يعني: المعرفة البديهية أو الانعكاسية الفورية التي يمتلكها الجميع المتعلقة بوجوه ووجود العالم الخارجي. كما أن الوعي يعتبر تمثيلًا عقليًا للوجود ولحقيقة هذا الشيء أو ذاك[59]

غطى مفهوم الوعي ثلاث حالات مختلفة: الوعي الذاتي يحدد القدرة على التفكير ذات طابع شخصي أي غير موضوعي؛ وهناك الوعي بالعالم الخارجي يدل على قدرة الإنسان على تمثيل الأشياء الخارجية؛ وأخيراً الوعي الأخلاقي، حيث تشير الأخلاق إلى قدرة لم تعد نظرية بل معيارية، وهي قدرة الحكم على الخير والشر. كل من هذه الاستخدامات يتطلب قدرًا كبيراً من البحث التحليل[60]

لن نخوض هنا في كتابات ديكارت في تجربة الحواس وإلى كل الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا وعلماء الأعصاب، حتى هذه اللحظة.

المشكلة التي تواجهنا ما هو الوعي؟ هل هو مادة؟ هل وهم؟ هل هو وسيلة وجهاز يساعدنا لفهم نفوسنا وفهم العالم الخارجي؟ ... إلخ.

ومن ثم هل أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتمتع بالوعي؟ فعبر الدراسات الراهنة الحيوانات والنباتات واعية أيضًا، وإلا كيف يمكننا أن نفسر أن الفيّلة تتبنى الفيل الصغير الذي فقد أمه، كما أن النمل يزيل جثث المتوفى وينقلونها إلى مكان بعيد أو غرفة في العش، وفي كثير من الحالات يتم دفن الجثة. بل إن بعض السلوكيات البشرية والنباتية متشابهة. هذا التشابه يشكّل في واقع الأمر تحديًا لاستخدامنا سلوكًا معينًا للبرهنة على وجود وعي وخبرة مكتسبة [61]

هناك اعتقاد راسخ أن الوعي ينمو ويتطور عبر مراحل نمو الإنسان في حين أثبتت العلوم المعاصرة معلومات مفادها أن «الطفل الرضيع يتكون من

59- Larousse, Dictionnaire de Français,

60- Conscience, conscience : identité, individu, morale, pensée réfléchie, sens éthique , Open Edition Books,PP8187-.

61- آ ناكا هاريس: الوعي دليل موجز للغز الجوهري للعقل، ترجمة أحمد هنداوي، الناشر: مؤسسة هنداوي، 2017، ص18.

جسيمات لا تختلف عن تلك التي تحوم في قلب الشمس. فالجسيمات التي تشكل جسدك كانت ذات يوم مكونات لعدد لا يحصى من النجوم في ماضي هذا الكون. وقد سافرت مليارات السنين لتستقر في جسدك»[62].

بل إن مجموعة الخلايا التي تتكون بعد تخصيب البويضة، ستتحول ببطء شديد لتصبح جنينًا ومن ثم طفلًا ينمو فيه تدريجيًا دماغ بشري. هذا الجنين قادر إلى التعرف على صوت أمه وهو لا يزال في الرحم[63]

ليس هناك من وعي دون ذاكرة، وهنا نعود مرة أخرى لطرح نفس السؤال هل الذاكرة حكرًا على الإنسان؟

إذا كانت الذاكرة الإنسانية تقوم بفرز المعلومات ومن ثم تخزين ما تجده نافعًا ومهمًا، فإن النباتات تتذكر أيضًا «وتتذكّر شتلات القمح أن فصل الشتاء قد انتهى قبل أن تبدأ الإزهار وصنع البذور....»[64]

ولو عدنا إلى العالم القديم وهنا أقصد دفن الموتى مع عدتهم من طعام وشراب وسلاح ومقتنيات شخصية لإلقاء ضوء على عقائد ذلك الإنسان، فسنجد أن ذلك الطقس يُعَبر عن وعي يتمثل بوجود حياة بعد الموت. هذه الثيمة تطورت وسمحت لنا في العصر الكتابي أي قبل 5000 عام، من معرفة تلك العقائد القائمة على مفاهيم الحياة بعد الموت.

الوعي مرتبط بالحركة وبالزمن، فهو خير مُعَبر عن لحظة بنائه. وأبرز مثال على ذلك تقسيم الإنسان القديم للعالم الخارجي المحيط به إلى فوق: (السماء) تحت: (الأرض). هذا التقسيم منطقي جدًا ويعبر عن ذكاء وفطنة. على ضوء العلوم المعاصرة وبدءًا من نيوتن وقانون الجاذبية، أصبحنا على يقين أن مفاهيم (فوق وتحت) لا تمت إلى الحقيقة الكونية بشيء. ذلك أن الأرض تجذبنا نحو الأرض أثناء دورانها حول الشمس.

كل المعتقدات القديمة قائمة على مفاهيم فوق وتحت والتي هي بالعلم عبارة عن وهم من أكبر الأوهام.

62- نفس المرجع، ص13.

63- نفس المرجع، ص 13.

64- نفس المرجع، ص 19.

لكن ذلك التقسيم الفذ حقًا، خلق حيزًا مقدسًا وجعله فوق الأرض، حيث تسكن الآلهة في السماء أو أن السماء مقر الآلهة والأرض مقر الإنسان والحيوان والنبات.

في الأساطير البابلية جاءت عملية التقسيم بعد أن شق الإله مردوخ، تامات (ربة العالم السفلي) إلى قسمين جعل من الجزء الأسفل الأرض ومن الجزء العلوي السماء. في الديانات التوحيدية تأكيد لكل الأيديولوجيات القديمة، فالله يسكن في السماء العليا، بعد أن أخذوا بالتقسيم البابلي من أن هناك سبع سماوات. وللبرهنة على عظمة الخالق فقد اتفقت كل الديانات التوحيدية من أن الله رفع السماوات من غير عمد.

هيمنت هذه الأيديولوجية منذ آلاف السنين ولم تزل، بل قامت عليها كل العقائد منذ ما يقارب 300000 سنة.

الوعي والإرادة

نتهي هذا الموضوع بالسؤال التالي: هل لإرادتنا دور في وعينا؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فما هو حجم هذه الإرادة؟

توصل عدد كبير من علماء الأعصاب إلى أن الإرادة الواعية مجرد وهم! فعبر التجارب التي أجريت مختبريًا اعتقد المشاركون بأنهم يقومون بفعل ما بإرادتهم الحرة، بينما الواقع أن هذا الفعل بدأ قبل أن يشعروا ويتخذوا قرارهم في موضوع ما. بل تعززت «الحجة القائلة بأن الإرادة الواعية هي وهم من خلال حقيقة أن هذا الوهم يمكن تحفيزه والتلاعب به عن عمد...»[65].

في العالم القديم تمكنت الأيديولوجيا من التحكم بالإنسان وعن بعد فهو يصلي ويصوم ويذهب إلى الكنيسة والمعبد والجامع ملء (إرادته) كما يمكننا أن نتصور، ولكن وعندما نمعن النظر نجد أن (إرادته) المسكينة لا دخل لها في كل ما يقوم به. فهو مبرمج، لا يأكل إلا ما اعتبرته أيديولوجيته حلالًا ولا يصوم دون الضوء الأخضر من المؤسسة الدينية... إلخ من تلك الالتزامات. ليس هذا فحسب، فالمؤمن مبرمج لكي يقتل من خرج عما رسمته المؤسسة الدينية. وقامت الحروب الصليبية بدعم

65- نفس المرجع، ص 24- 25.

ورعاية الكنيسة الكاثوليكية في عام 1096 حيث دعا وحث عليها البابا أوروبان الثاني. لا يسأل المؤمن الهندوسي عن جدوى حرق جثته بعد موته، فهو لا يأتيه الشك من أن الوصول إلى النيرفانا يتطلب ذلك الطقس..

وإذا خرجنا من العالم القديم وهيمنة الأيديولوجيات الدينية على كل المنتج الثقافي لذلك العالم والذي لا زال قائمًا وفاعلًا في معظم أجزاء العالم حيث نجده في الإسلام وفي الهندوسية وكذلك عقائد الأجداد حيث يمارس تلك الطقوس عدد كبير من الصينيين وفي مناطق أخرى من العالم.

الغرب وبدءًا من القرن السادس عشر اختط طريقًا تمثل بتمجيد الفردية واعتبار الحرية والقدرة على اتخاذ القرار من المنتجات العظيمة لهذا الحيز. العالم القديم سادت فيه المفاهيم المطلقة، في حين قام العالم المعاصر وعبر فلسفة الأنوار على مفاهيم النسبية.

السؤال هو هل الإنسان حر وله إرادة في المجتمعات الغربية حيث يبدو أن قدراته على الاختيار لا حدود لها؟

وإذا عدنا إلى موضوع الأوهام، فسنجد أن تلك الفسحة الواسعة من الحرية تحكمت بها وعن بُعد أيضًا أيديولوجيات معاصرة. ولو نظرنا إلى موضوع الموضة مثلًا، فسنجد أن الإنسان في الحضارة الغربية تحول إلى خروف. ليس الفرد التي أتاحت له هذه الحضارة القدرة على اتخاذ قرار ومنحته عبر التعليم والثقافة خزينًا هائلًا من الأفكار التي تدعو إلى تفعيل الوعي والإرادة، إنما هذا الفرد الذي يتصرف على ضوء إرادته، لا يمثل إلا نسبة ضئيلة جدًا من مجموع المجتمع.

ونتيجة هيمنة الغرب فسنجد أن الشباب والشابات مثلًا، وفي دول العالم الثالث يتبعون الموضة. فتجد تغيير نمط الملابس وفي كل عام، تغيير تسريحة الشعر... إلخ.. ليست الموضة من يحتكر مهمة التحكم عن بعد، فالأيديولوجية السياسية لها ما تقوله في هذا الشأن. الموضة نتيجة معبرة عمن يقف وراءها من إعلام واقتصاد وسياسة.

الروح وعلاقتها بالوعي

حاول يهود المدينة إحراج النبي محمد عبر السؤال التالي: (ما هي الروح)؟ وكان جواب النبي محمد وعبر القرآن على ذلك الإنسان على النحو التالي: «يسألونك عن الروح قُل الروح من أمرِ ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا» (سورة الإسراء 85).

في هذا الجواب تواضع وذكاء. إنما لا يقدم تعريفًا لهذا السؤال. في المنتوج الثقافي الفرنسي والإنكليزي نجد أن الروح عبارة عن مبدأ روحي للخلق الإلهي. فهي منحة الرب للإنسان لكي يميزه عن الحيوان والنبات. الغرض من ذلك تمكين الإنسان من التمييز بين الخير والشر. الروح البيانات عن آثار الله في النفس البشرية.

كل ما ذكرناه لا يقدم تعريفًا دقيقا لموضوع الروح. فهي غير مادية ومنة الرب لعباده الصالحين. ولكن ما هي؟

شغلت مسألة الأمل واليقين من أن هناك حياة بعد الموت كل الجماعات الإنسانية ممن بقى على نمط الصيد أو انتقل إلى الزراعة وتدجين الحيوانات وما تبعه من تعقيد حضاري عظيم رسم المسيرة الإنسانية ولم يزل. أفكار الحياة بعد الموت قادت الإنسان القديم إلى تقسيم من مات إلى جسد انتهت صلاحيته للحياة وإلى روح خالدة ولن تموت أبدًا.

حضارة بلاد النهرين كانت المبادرة إلى مفهوم الشبح بعد الموت. الموتى يعيشون تحت الأرض، ومن مات دون أن يدفن سيظهر شبحه فوق الأرض.

تصور سكان بلاد ما بين النهرين القدماء العالم تحت الأرض على أنه العكس الكوني للسماء وكنسخة مظلمة من الحياة على الأرض. من وجهة نظر ميتافيزيقية، كان يعتقد أنه على مسافة كبيرة من عالم الأحياء.

ومع ذلك، جسديًا، كان تحت الأرض ويوصف شعريًا بأنه يقع على مسافة قصيرة من سطح الأرض. القصص الأدبية عن العالم السفلي عادة ما تكون قاتمة. توصف بأنها (أرض اللا عودة) فهي مظلمة و(منزل لا يغادره أحد بعد دخوله)، مع غبار على بابه وقفله.

ومع ذلك، هناك قصص أخرى تخفف من هذه الصورة المظلمة. على سبيل

المثال، يصف عمل سومري يسمى موت أورناما أرواح الموتى الذين يفرحون على وصول أورناما ذات السيادة إلى العالم تحت الأرض. كما زار شمش، إله العدالة والمعبر عن الشمس، العالم تحت الأرض كل ليلة خلال رحلته اليومية في الكون.

وبالمثل، اقترحت الباحثة كيتلين باريت أن أيقونية المقابر - وخاصة الرمزية المتعلقة بالإلهة إنانا/ عشتار التي نزلت وعادت من العالم السفلي - تشير إلى الاعتقاد بوجود بعد الموت أكثر رغبة من ذلك الموصوف في العديد من النصوص الأدبية. على الرغم من أن البشر لا يستطيعون الأمل في العودة إلى الحياة من خلال تقليد إنانا/ عشتار بالضبط، إلا أن باريت تعتقد أن من يستخدم الأيقونات الجنائزية التي تمثل عشتار، يمكنه السعي إلى تجنب الجوانب غير السارة للعالم السفلي التي هربت منها إنانا/ عشتار نفسها. لذلك من الأفضل فهم العالم تحت الأرض في بلاد ما بين النهرين على أنه ليس مكانًا للبؤس الكبير ولا مكانًا للفرح الكبير، ولكن كنسخة مملة من الحياة على الأرض[66]

66- J. Bottéro, La religion babylonienne, Revue de L'histoire des religions ,1953n° 1442-,PP 239240- , Yves Mambert , La naissance des religions , 2007, 147- 181. Gods, Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia: An Illustrated Dictionary Broch – 1 may 1992, Barrett, C. E. (Was Dust Their Food and Clay Their Bread? Grave Goods, the Mesopotamian Afterlife, and the Liminal Role of Inana/Ishtar.(Journal of Ancient Near Eastern Religions, 7 (2007), pp. 7- 65.

Bottéro, J. Mesopotamia: Writing, Reasoning, and the Gods. Chicago and London: University of Chicago Press, 1992.

Bottétro, J. Religion in Ancient Mesopotamia. Chicago and London: University of Chicago Press, 2001.

Cohen, A. C. Death Rituals, Ideology, and the Development of Early Mesopotamian Kingship: Toward a New Understanding of Iraq as Royal Cemetery of Ur. Leiden and Boston: Brill/Styx, 2005.

Cooper, J. S. (The Fate of Mankind: Death and the Afterlife in Ancient Mesopotamia.(Death and the Afterlife: Perspectives of World Religions,, ed. Hiroshi Obayashi. New York: Greenwood Press, 1992, pp. 19- 33.

Dalley, S. Myths from Mesopotamia: Creation, The Flood, Gilgamesh, and Others. Oxford: Oxford University Press, 1998.

كان لديانة بلاد ما بين النهرين مكانة مركزية في حياة الناس. لقد تم خلق البشر كمتعاونين مع آلهتهم لصد قوى الفوضى وضمان سير العالم بشكل منظم. تمامًا كما هو الحال في مصر القديمة، كانت الآلهة تُكرِّم يوميًا لمنحها الحياة والمعيشة للبشرية، وكان من المتوقع أن يكافئهم الناس من خلال أعمال تمجد الآلهة.

كان يُعتقد أنه في البداية كان العالم عبارة عن فوضى غير متمايزة وتم إنشاء النظام من قبل الآلهة. لقد فصلت الآلهة السماء عن الأرض، والأرض عن الماء، والمياه المالحة عن المياه العذبة، والنباتات عن الحيوانات، وكان لا بد من الحفاظ على هذا النظام. وبما أن الآلهة كان لديها العديد من المسئوليات المختلفة، فقد تم خلق البشر لمساعدتهم في سير العالم.

فمعنى الحياة هو العيش وفقًا لهذا المفهوم، وبالتالي كانت الحياة اليومية شكلًا من أشكال العبادة.

على الرغم من أن ديانة بلاد ما بين النهرين غيرت تركيزها وأسماء الآلهة على مر القرون، إلا أن الفهم المركزي للعلاقة بين الإنسانية والآلهة لم يتغير.

Foster, B. R. Before The Muses: An Anthology Of Akkadian Literature. Bethesda: CDL Press, 1996.

Scurlock, J. (Ancient Mesopotamian Medicine.(A Companion to the Ancient Near East, ed. D. C. Snell. Oxford: Blackwell Publishing Ltd., 2007, pp. 302- 315.

Scurlock, J. (Death and the Afterlife in Ancient M[illegible]otamian Thought. (Civilizations of the Ancient Near East, ed. Jack M[illegible]sasson. New York: Simon and Schuster Macmillan, 1995, pp. 188318[illegible].

The Poem of the Righteous Sufferer (Ludlul bĀ [illegible] nĀ(meqi). Trans. B. R. Foster with minor modifications following W. G. Lambert. SOAS University of London., accessed 1 Dec 2016.

Van Der Toorn, K. B. Backing, and P. W. van der Horst, eds. Dictionary of Deities and Demons in the Bible. 2d extensively revised edition. Leiden/ Boston/Koln: Brill; Grand Rapids/Cambridge, U.K.: Eerdmans, 1998

Walton, J. H. Ancient Near Eastern Thought and the Old Testament: Introducing the Conceptual World of the Hebrew Bible. Grand Rapids: Baker Academic, 2006.

حوالي عام 650 م. قبل الميلاد، كان سكان بلاد ما بين النهرين ما زالوا يعتقدون أنهم مساعدون للآلهة وأنهم يساعدون أربابهم في الحفاظ على النظام. ولم يتغير هذا النموذج إلا بعد عام 651 م. قبل الميلاد، مع غزو العرب المسلمين والنموذج الديني التوحيدي الجديد للإسلام.

ليس هناك من أمل كما سنلاحظ ذلك في الفصل القادم. الإنسان يعيش بعد الموت وإلى الأبد إنما على نحو مزري في سرديات الديانة في العراق القديم على عكس الديانة المصرية القديمة التي كانت المبادرة لخلق الأمل بحياة سعيدة بعد الموت. ومن الغريب أن نجد معتقدات بلاد الرافدين في هذا الموضوع تتشابه كثيراً مع المعتقدات الإغريقية والرومانية لاحقًا. ليست هناك سعادة بعد الموت.

فلسفيًا كان للإغريق ما يقولونه بشأن الروح. فأفلاطون يعتقد أن روحنا ليست مادية لأنها قادرة على التأمل عبر أفكار واضحة ، على سبيل المثال أشياء رياضية مجردة. وهكذا فإن روحنا لا يهمها موت الجسد، لأنها لا تنتمي إلى الواقع المحسوس.

قد تبدو هذه الفكرة بديهية: كيف يمكننا أن نتخيل أن كتلة رمادية هلامية يمكن أن تنتج أعظم روائع الفلسفة أو الرياضيات أو الأدب؟ ألا ينبغي لنا أن نستعين بروح غير مادية لحساب الروح الإنسانية؟

إن فكرة أننا مكونون من مادتين مختلفتين - الجسد والعقل - ستستمر لفترة طويلة في تاريخ الفلسفة. بل إن ديكارت، أعظم العقلانيين، سوف يدافع عنها. ووفقا له، فإن الوعي الذي أملكه بنفسي يتمتع بوضع خاص لا يمكن أن يكون هو وعي الجسد: كل ما أراه حولي لا يمكن إلا أن يكون وهمًا لأنه من الممكن دائمًا أن يكون وعيًا لا يتماشى مع الواقع. ينتج وعيي تمثيلًا لواحة في الصحراء، ومع ذلك فهي مجرد رمال. هناك فجوة بين الشيء ووعيي به، لذلك من الممكن دائمًا أن أشك في تمثيلاتي، يمكن لحواسي أو عقلي أن يضللني دائمًا بشأن حقيقة العالم. ولكن يظل هناك يقين لا يمكن أن يكون وهمًا أبدًا، وهو بالتحديد وعي نفسه. ربما الواحة غير موجودة، وأنها (ذاتية)، لا يمكن أن تكون وهمًا. قد يكون العالم كله مجرد حلم في ذهني، لكن هذا الحلم لا يزال موجودًا في وعيي.

سيصبح هذا اليقين المطلق أساس الفينومينولوجيا التي بدأها إدموند هوسرل، وصولًا إلى جان بول سارتر. وإذا حاولنا تلخيص هذا الاتجاه في جملة واحدة، فهي الفكرة التي بموجبها لا يكون الوعي حقيقة موضوعية مثل هذا الجدول أو هذا الكمبيوتر.

إن وهم وجود عامل داخل أذهاننا ناتج عن التبسيط: إذا كنا على دراية بجميع العمليات التي تقف وراء قراراتنا ونوايانا، فإن دماغنا سيكون مشبعًا بالمعلومات. عندما أكتب في برنامج معالجة النصوص، فإنني أنقر على أيقونات تجعل البرنامج أسهل في الاستخدام، لكن في الواقع أتلاعب بملايين الأسطر من التعليمات البرمجية دون أن أدرك ذلك.

******

منذ مليارات السنين، لم تكن (الذات) موجودة، ثم ظهرت الكائنات الحية الأولى. ومن أجل البقاء، أُجبِرت هذه الكائنات ميكانيكيًا على تطوير حدود بينها وبين بقية العالم. إذا تركت الحيوانات المفترسة أو الطفيليات تأكلك، فلن تنجو: هذه هي الذات البيولوجية. هذه الذات غير موجودة بالفعل، لكنها خيال مفيد جعل بقاء هذه الكائنات البدائية ممكنًا. الحلزون الذي ينتج قوقعة بفضل الكالسيوم الذي يتناوله ليس لديه أي وعي بتطوير (الذات)، فهو يفعل ذلك بشكل ميكانيكي عن طريق إنتاج حدود بينه وبين العالم، وهذا ما يسمح له بالبقاء على قيد الحياة. وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة لمستعمرة النمل الأبيض التي تتمتع بمستوى من التنظيم يعطي انطباعًا بامتلاك روح أو ذات: مليون عميل صغير مستقل يقوم كل منهم بمهمته بهدف ترسيخ المستعمرة وحمايتها..

ومع ذلك، هناك فرق كبير، كما ستخبرني: كومة النمل الأبيض لا تشكل أي تمثيل للعالم، وليس هناك، من جانبها، أي نية متعمدة.

الإنسان قادر على صياغة الرغبات، قادر على تمثيل المواقف، قادر على إنشاء بيئة خاصة به، بلى بيئته الذاتية[67].

67- 61 Lev Fraenckel, Philosophie magazine, n°182 septembre 2024.

الفصل الثاني
الأفكار الأولى للأمل

ما هو الأمل؟ على أي أساس يقوم، الواقع أم الوهم؟ هل له وظيفة في الوجود؟ هل يقودنا إلى الفعل؟ هل يسمح لنا بعدم الوقوع في الاستسلام؟ هل هو شعور يبقينا في حالة تقاعس أو بالأحرى محرك العمل والشجاعة؟ هل يمكننا أن نضع حياتنا على عدم اليقين؟ وهل يجب أن نأمل؟

الأمل ما هو إلا شعور، وكما يذهب إلى ذلك الفيلسوف توما الأكويني، في تفسيره لأرسطو. إنه واحد من العواطف الأحد عشر. حيث يقدم هذا الفيلسوف أحد عشر عاطفة تفرض نفسها علينا حسب الموقف الذي نجد أنفسنا فيه.

الأمل هو نتيجة تصرف العقل البشري في البحث عن واقع أفضل من الوضع الحالي. يعتبر الأمل كعاطفة وهو في هذه الحالة يعارض اليأس.

الأمل، والانتظار بثقة لتحقيق شيء مناسب في المستقبل، محدد كما يتصوره المتأمل، وما يرغب فيه المرء. وكما نعلم هناك آمال تتمثل في السعادة والشفاء والنجاح... إلخ من هذه الآمال التي تقرها وتأخذ بها الأدبيات الدينية في العالم القديم بما فيها الديانات التوحيدية. إنما هناك آمال لا حصر لها في أن يصبح المرء غنيًا أو سلطانًا... إلخ لا تأخذ بها هذه الأيديولوجيات.

نحن وعلى ضوء تلك الأيديولوجية أمام خيارين: نواجه الخير أو الشر. فما يعتبر سيئاً في الموروث الديني يعتبر سيئاً لدى المؤمن. وما تعتبره المؤسسة الدينية صالحًا وخيّرًا، سيفرض نفسه على مفهوم الأمل عند المؤمن.

هذا الخير أو الشر إما أن يكون حاضرًا أمامنا، أو مستقبليًا، أو حصلنا عليه مسبقًا. كما أن هذا الخير والشر إما أنه من السهل أو من الصعب تحقيقه أو تجنبه. وهكذا، يخبرنا هذا الفيلسوف أنه عندما نواجه خيراً مستقبليًا، وعندما يكون من الممكن تحقيقه حتى على حساب جهود عديدة، فإن

الشعور الذي ينشأ هو شعور الأمل[68].

كما هو الحال في مواجهة الشر الذي يمكن تجنبه، فإن ما اكتسبناه من ثقافة وتربية يلعب دورًا جوهريًا في قرارتنا.

في مواجهة خير بعيد المنال، يتولد اليأس، الذي تكافح ضده المؤسسة الدينية. كما أن في مواجهة الشر المحتوم، يتولد خوف. في كلا الحالتين، تلعب الأدبيات الدينية بما فيها من طقوس وصلوات دورًا جوهريًا في تحدي مسار المؤمن في طريق الأمل.

فالأمل إذن هو شغف يفرض نفسه علينا حسب الوضع الذي نعيشه. إذا كان الأمل عاطفة، فهذا يعني أننا نعاني منه، وبالتالي نخضع له. أنت لا تختار الشعور. نحن لا نختار أن نقع في الحب، ولكن يمكننا أن نختار ما نريد أن نفعله بهذا الشعور[69].

وعندما نعود إلى ما كتب بعض الفلاسفة عن هذا الموضوع، فسنجد الفيلسوف الروماني سينيكا (4 ق.م-65 م) يذهب إلى التالي: يجب أن نتوقف عن الأمل (واليأس) في تحقيق راحة البال! هذه هي توصية سينيكا، الذي يعتبر الأمل والخوف ابنتي عدم اليقين، وكلاهما ينتظران ويشعران بالقلق بشأن ما سيحدث. فالرجاء إذن ليس سوى بصيرة تحولت إلى الشر)[70].

يقول ديكارت (1596-1650): «الأمل هو استعداد النفس لإقناع ذاتها بأن ما ترغب فيه سيحدث». لذلك من الممكن أن نأمل، من خلال التأكد من أن هذا (الشغف) يعتمد علينا، ومن خلال التمييز بين (سوء الحظ)، الذي نحارب وجوده في نفوسنا والرغبة التي نسعى وبكل ما اوتينا من قوة حتى يتم إشباعها. غيروا رغباتنا بدلًا من التفكير بتغيير «نظام العالم».!

ماذا يمكنني أن آمل؟ يسأل كانط (1724-1804). وهو مؤيد للاهوت

68- هذا الاستشهاد وبقية الاستشهادات (ديكارت، كانت، نيتشه، وبلوخ) مأخوذة من الدورية الفرنسية المجلة الفلسفية حيث تكتب على الشكل التالي:

Philosophie Magazine ,14 Janvier 2021.

69- André Comte-Sponville. Philosophie Magazine, Hors-série n°61 juin 2024, P24- 29.

70-Ibid.

العقلاني، وهو يحاول التوفيق بين الحتمية والحرية، ووجود الشر الجذري والإرادة الحرة. وبما أن (كل أمل يميل إلى السعادة)، فإن سؤاله النظري والعملي يكون بمثابة مبدأ توجيهي للعمل وفقًا للقانون الأخلاقي.

هناك تصوران متعارضان للأمل عند فريدريك نيتشه (1844-1900). يمكننا أن نأمل في الحياة الآخرة، والعالم الآخر، والابتعاد عن الحياة الأرضية.

نيتشه، من جانبه، يعلق أمله على الإنسان، (فيما يتعلق بالأزمنة المستقبلية للوجود الأرضي)، وهو ما تجعله المسيحية مستحيلًا تمامًا، من خلال اشمئزازها من الحياة هنا أدناه.

يعيد إرنست بلوخ (1885-1977) هذا الماركسي المنشق تأهيل (اليوتوبيا الملموسة). فالأمل بالنسبة له هو (وعي استباقي) لتحولات العالم كما هو، وليس إسقاطًا غير واقعي لما ينبغي أن يكون: الحلم بالممكن وليس بالكمال. لأن (أفضل الوجود يقوده الفكر أولًا)[71].

الأمل ليس حالة عاطفية، بل هو حالة روحية. وبالروحي لا أعني دينيًا، بل كجزء من حياة الروح. ومع ذلك، وفقًا للفيلسوف توما الأكويني، فإن العقل خاص بالإنسان وله ملكتان: الذكاء والإرادة. الذكاء هو قدرة الإنسان على التعرف على الخير الحقيقي، حتى لو كانت مشاعره تخبره بغير ذلك. على سبيل المثال، دواء معين قد يثير الاشمئزاز، ومع ذلك أعلم أنه مفيد لي لأنه يسمح لي بالشفاء. الإرادة هي القدرة على الاختيار بحرية لتحقيق هذا الخير الحقيقي.

لا يعتمد الرجاء مباشرة على المشاعر، بل على الذكاء والإرادة. وبقدر ما يتم التعرف على الخير الحقيقي من خلال ذكائنا، فإن إرادتنا يمكنها أن تختار تحقيقه وتنفذ الوسائل اللازمة للقيام بذلك. هذه الوسائل لتحقيق الخير تسمى الفضائل. الشجاعة فضيلة، والصبر فضيلة أخرى، والأمل أيضًا. الفضيلة تسمح لنا بتحقيق الخير، ونهاية الأمر هي السعادة. فالفضائل إذن في خدمة السعادة.

فالأمل ليس مفروضًا علينا كفضيلة. بل يتعلق بوجودنا وبحياتنا اليومية. اختيارنا للأمل ليس ترفاً بل يفرضه علينا الواقع وعبر مسيرتنا في هذه الحياة.

71-Ibid.

الأمل هو حالة، بطريقة ما، أسلوب حياة، نعتمده في حياتنا. لا يعتمد الأمر على البؤس أو الأفراح التي تحدث لنا. إنها الدفة التي نتمسك بها في العاصفة كما في الهدوء. لذا، حتى لو شعرنا باليأس، يمكننا أن نقرر أن نبقى متفائلين.

وما هو الأمل؟ إنها الثقة الأكيدة بتذوق الخير في المستقبل. يمكن أن يُخيّب الأمل من كان في انتظاره، إذا كان يحلم به على نحو آخر كأن يصبح ثريًا، أو أن يتزوج من مارلين مونرو مثلًا، او من ولي العهد في المملكة السويدية . هذا الصنف من الآمال لا يمكن تحقيقها، بل قد تسبب حالة من الاكتئاب واليأس.

ليس أملًا من يخاطر لأنه يخاطر بحياته كلها للحصول على ما هو مستحيل. الرغبة والأمل قد يؤديان إلى أن يفقد المرء عقله، إذا كانتا تبحثان عما هو مستحيل.

وإذا عدنا إلى المدونات الدينية فسنجد أن الأمل هو فضيلة تأتي من اللاهوت. إلى جانب المحبة والإيمان، يعد الرجاء إحدى الفضائل اللاهوتية الثلاث. الرجاء في المسيحية هو الفضيلة التي تتيح للمؤمنين أن يرغبوا في الحياة الأبدية في ملكوت السماوات، ومن خلال الثقة – المرادفة للإيمان – بمن وعدهم بهذا الفردوس، يتذوقون هذا الخير وكأنهم قد نالوه بالفعل.

يتم استخدام الأمل بشكل منهجي في الأوساط الدينية على أن يستجيب الله لنا، فيما نسعى إليه.

إن الأمل يمتزج دائمًا بالخوف، كما أخبرنا سبينوزا، والعيش في الأمل، أو حتى العيش في الأمل بشكل مباشر، هو موقف الضعفاء، أولئك الذين ليسوا أسياد مصيرهم والذين هم في وضع مزعج ومغترب.

وإذا خاب أمل من ينتظره، فإنه يتحول عمومًا إلى الاستياء، ويغضب من العالم كله، ولكن بشكل خاص من نفسه لأنه آمن كثيرًا بالوهم. هناك شيء غير عقلاني، مجنون، في ظاهرة الأمل، حتى لو كان بإمكاننا دائمًا التظاهر بأن هذا الجنون بالذات هو الذي يبقينا على قيد الحياة.

لماذا نقول إن (الأمل يعطي الحياة)؟ لأنه بدون الأمل ستكون الحياة صعبة للغاية ومؤلمة للغاية، ولهذا السبب يجعل الأمل من الممكن التعويض عن ظلام الحاضر ومعاناته من خلال التمثيل، وهو الإسقاط الذي يعطي راحة معينة للموضوع. الأمل هو شكل من أشكال أحلام اليقظة، وبالتالي فهو

هروب من الواقع نحو عالم أفضل، وأكثر راحة، وأكثر محبة، وأكثر لطفًا، وأكثر سلامًا، على الرغم من أنه ربما يكون أكثر مللًا. لذا فإن الأمل هو دواء، علاج وسُم في نفس الوقت، ضد اكتئاب أولئك الذين تسحقهم حياتهم اليومية، والذين يعتبرون العالم معاديًا ومهددًا لهم. ولهذا جعلها سبينوزا (شغفًا حزينًا)، تمامًا مثل الطموح الذي هو أيضًا شكل من أشكال الأمل.

يمكننا أيضًا أن نرى في عبارة (الأمل يعطي الحياة)، صيغة ساحرة أو حتى ساخرة. إنه يشير إلى أننا نشعر بالشفقة والازدراء لسذاجة الشخص الذي يأمل في حدث غير محتمل للغاية

(بائعو) الأمل

ليس هناك أخطر من بائع الآمل في الحقل الديني. فهو دجّال وكاذب ومفتري.

في أغلب الأحيان، يكون لبائعي الأمل مصلحة في ضمان عدم خروج المؤمن من حالته السلبية.

من أفضل الأمثلة لبيع الأمل ما قامت به الكنيسة ممثلة بالبابا ليون العاشر (1513- 1521) ببيع (صكوك الغفران) لأجل إصلاح كنيسة القديس بطرس. وهو يعني الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب الدنيوي حيث سيتم الصفح عن الخطايا التي ارتكبها ذلك المؤمن في حياته. وكما هي العادة في هذه الأيديولوجية فقد بررت الكنيسة الكاثوليكية تلك البدعة التي أدت إلى انشقاق الكنيسة المسيحية وقيام البروتستانتية، من تضحية المسيح لنفسه على الصليب وشفاعة القديسين. لم تكن صكوك الغفران من بنات القرن السادس عشر والذي أدى إلى انشقاق الكنيسة المسيحية، فقد كان هناك وفي السنوات الأولى من قيام المسيحية، مبدأ الشفاعة والذي سنجد أثره في الديانات القديمة كالمصرية والبابلية، واليهودية والإسلام لاحقًا.

المؤسسات الكنسية في أوروبا الغربية ابتدعت مفهوم (بيع صكوك الغفران) إذا لم يعد لدى المؤمن الكاثوليكي الأمل في الذهاب إلى الجنة، إما لأنه لم يعد يؤمن بها أو لأنه يعلم أنه سيذهب مباشرة إلى الجحيم. في هذه الحالة سيتوقف عن أن يكون مؤمنًا وعن الوفاء بالتزاماته كمسيحي صالح. سيتوقف

الشخص اليائس عن التزاماته في أداء الصلوات والقيام بكل العبادات، وربما أيضًا عن سلوكه الأخلاقي والخيري الذي وعده بالدخول إلى الفردوس. بياعو الوعود الكاذبة ممن وضعوا أنفسهم وسطاء كالدلّال وتاجر المواد الاستهلاكية مثلًا، لم تنفرد بهم الكنيسة الكاثوليكية، فقد وجدنا لهم أثرًا كبيرًا في الإسلام سنيًا وشيعيًا وعبر مفهوم الشفاعة. المسيحية دخلت العالم المعاصر وتخلت عن تلك المفاهيم، في حين لا زال في الإسلام من يرزخ تحت نيرانها.

في انتظار عودة المسيح

جعلت المسيحية انتظار عودة المسيح معبر عن الأمل بنهاية هذا العالم وهذه الحياة. فظهور المسيح ثانية يعني أن الجنة بانتظار المؤمن الصالح.

يعود موضوع الانتظار، في نفس الوقت مع الرجاء، مع المجيء الثاني، وحضور المسيح المتوقع والمؤجل، أو ببساطة مع رجاء القيامة، والفردوس، والخلاص القائم على البعد الديني والعاطفي للمسيحية. القادم لن يخيّب ظنك أبدًا والله موجود هنا وفي كل مكان، كما تذهب كتابات كبار المفكرين المسيحيين.

وعندما نتأمل نجد في موضوع الأمل والانتظار، أن الواقع ليس هو ما يدفعنا إلى الخطأ، بل المثل الأعلى هو الذي يخدعنا فهو غير موجود ولا يمكن التحقق من وجوده. إنه موعود والمؤمن على يقين من ذلك، فلا يخالجه الشك بعودة المسيح في نهاية هذه الدنيا عندما يقرر الرب توقف الحياة فيها. وهذا الأمر ينطبق على المسلم ولا سيما الشيعي، فهو على يقين من عودة المهدي المنتظر في نهاية الدنيا.

بائعو الآمال على يقين من أن بضاعتهم رائجة ولن يصيبها الكساد، ما دام هناك سذّج وأغبياء. فلكي يستقيم أمر الانتظار يجب توفر مؤمن جاهل. المؤمن العاقل لن يشتري هذه البضاعة الفاسدة والقائمة على الدجل.

في علم المنطق المبني على الحقائق الملموسة والتي يمكن التحقق من صحتها يمكننا أن نطرح السؤال التالي: هل عرفت يومًا ما الذي تنتظره؟

لا يمكننا اليقين من الإجابة لو وجّه السؤال إلى أكثر من شخص. فعدد هائل من الناس كانوا ينتظرون أن يصبحوا أغنياء ولم يفلحوا في ذلك وعدد كبير من كتاب الرواية كانوا ينتظرون أن يحققوا منجزًا يتفوقون به على تولستوي

ودوستويفسكي وجيمس جويس وماركيز مثلًا، فخذلتهم آمالهم وتحولت مرارة ذلك الأمل إلى حقد وضغينة على العالم كله. لذا وعندما يتحول الانتظار من المستقبل إلى حاضر بائس، سنصاب بخيبة أمل لا محالة قاتلة.

تقدم رواية السعادة الزوجية لتولستوي الشابة الطيبة ماشا وهي تعبر عن نفسها على النحو التالي: «أنا نفسي لا أعرف ما الذي لا أزال أفتقر إليه. [...] كل شيء كان ينتظر، [...] وأنا أيضًا كنت أنتظر، كنت أتمنى شيئًا ما. الانتظار أمل ربما لا طائل منه»[72]

نعم ربما. ولكن سواء كان الأمر يتعلق بشيء معين أم لا، فإن التوقع يتعلق بالمستقبل، وهو غير موجود، وبالتالي وعبر هذه العبارة التي تصيغه على نحو دقيق: فهو أما ممكن أو وهمي.

الحاضر ليس موضوع أمل وانتظار أبدًا: فهو لم يعد موضوعًا للتوقع، بل موضوعًا للانتباه، ولم يعد موضوعًا للأمل، بل للعمل أو المعرفة أو الحب.

لا يتعلق الأمر بمنع أنفسنا من الانتظار أو الأمل، فذلك أمر مستحيل، لأنه لا يوجد خوف بدون أمل ونحن مملوءين بالمخاوف[73].

الموت الصانع الأول للأمل

في كتابي (تاريخ الخوف) والذي هو الجزء الأول من هذا البحث المتعلق بالجحيم والنعيم الأبديين، خصصت صفحات طويلة لطرح موضوع الموت وعلاقته الحميمية مع الجنة والنار.

لكنني أعود هنا مرة أخرى لطرح موضوع الموت من الناحية الأنثروبولوجية، أي على ضوء ثقافة الجماعات الإنسانية لهذا الموضوع الحيوي.

كل الجماعات الإنسانية في العالم القديم عالجت هذا الموضوع وأعارته مكانًا مرموقًا. فتلك التي يطلق عليها بدائية ومتوحشة لا تختلف عن الجماعات الأكثر تحضرًا، قدرة على التأمل والتفكير فيما يتعلق بموضوع الموت وما بعد

72- ليو تولستوي، السعادة الزوجية وبوليكوشكا، روايتان، ترجمة سامي الدروبي، دار التنوير، القاهرة، الطبعة الأولى 2013.

73- André Comte-Sponville, Ibid.

الموت. في الديانات التوحيدية توصلت الأيديولوجيات الدينية في هذه الديانات الثلاث إلى موضوع الجنة والنار. إنما المبادر إلى موضوع الجنة كانت الزرادشتية بل حتى التسمية جاءت من اللغة البهلوية القديمة وعبر كلمة فردوس.

يهود بابل لم يأخذوا بالتسمية فحسب بل خرجت العبرية من الدائرة البابلية التي لا تؤمن بحياة سعيدة بعد الموت، إلى تبني موضوع الأمل بعد الموت. حيث نجد الحديقة في أعلى جبل جيما jima، في الزرادشتية، والتي تمثل العصر الذهبي حيث تنمو الأشجار الساحرة ولا سيما شجرة الحياة وتصب المياه بسخاء تسمح لأن يتحول ذلك الحيز إلى خضار دائم.

في كل الموروث الثقافي الإنساني نجد أن هناك حياة مؤقتة وهي الحياة التي يعيشها الكائن البشري وحياة ما بعد الموت. البعض مثل الهندوسية والبوذية عبروا عن الجنة عبر مفهوم النيرفانا، فمن يصل إلى هذا الحيز المتخيل فقد خرج كليًا من دائرة الولادة والتناسخ. ووجد الصينيون والكثير من الأفارقة وأقوام أخرى كثيرة سنأتي على ذكر بعضها لاحقًا، في موضوع عبادة الأسلاف طريقهم لوصل المؤقت بالثابت والدائم.

الطقوس والشعائر

إذا كانت الطقوس الأكثر بدائية غير قادرة على صياغة مفاهيم دقيقة، فقد كانت قادرة على استحضار مفاهيم ضخمة، تُعَبر عن الرغبة بالاتصال بالقوى الكونية. يمكن أن تأتي التحليلات اللفظية بعد ذلك. فالضرب بالأقدام، والعويل واللطم والبكاء من أجل عودة المطر مثلًا تُعَبر عن الرغبة الجامحة بالاتصال بالقوى العليا، وإعلامها أن طفلًا عزيزًا على أبويه مات توًا، أو الطلب منها وعبر العويل والبكاء بعودة المطر الذي انقطع لزمن طويل. هذه الطقوس وجدت منذ أزمنة سحيقة ولم تغب في العصر الزراعي بل تخبرنا المدونات البابلية والمصرية وعبر الرسومات المصرية أيضًا، من حضورها الفعال في الحياة الدينية، وتقدم المجموعات وانكماشها، كلها تمنحنا الفرصة لمعرفة عقائد تلك الأقوام.

الطقوس تحتل مركز الصدارة في ربط المؤمن بالمؤسسة الدينية. هذا هو الحال بالنسبة للعديد من المهرجانات الموسمية الأخرى في العديد من المجتمعات، والتي احتفظ الفولكلور أحيانًا ببقاياها حتى يومنا الحاضر،

كصلاة المطر عند المسلمين وهي لا تختلف من حيث الجوهر عن صلوات الأقوام البدائية والتي يتم التعبير عنها عبر البكاء والعويل.

كما أن المهرجانات والاحتفالات جزء مهم من الطقوس، الاحتفال بعيد السنة البابلية مثلًا لم يغب كليًا، وكذلك الأعياد في مصر الفرعونية كعيد رأس السنة الزراعية مثلًا، بل تأقلمت مع الزمن فأصبح عيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي خير معبر عنه.

هناك طقوس بدائية تتمثل باللوم والبكاء واللطم واللجوء إلى العنف عبر ضرب الرجال ظهورهم بسلاسل حديدية كما هو الأمر عند الشيعة في ذكرى عاشوراء. هذه الطقوس تحط من شأن من يقوم بها، إنما لم تصدر المؤسسة الشيعية فتوى تمنع الكائن البائس من ممارستها، لأن وجودها قائم على جهل وغباء اتباعها.

لعبت الأيديولوجية الدينية دورًا بارزًا في احتواء كل ما يتعلق بالطقوس المعبر عنها عبر الكلمة أو بالإشارة أو بالصلوات والقرابين... إلخ.

تقع على عاتق المؤمن مسئولية المشاركة في هذا النظام وتعزيزه من خلال الاحتفال به. وهكذا تُظهر الأعياد الموسمية، في جميع البلدان، أنه يجب على المؤمن أن يتعاون مع المؤسسات الدينية لكي يتمكن من إتمام هذه الطقوس والتي ترتبط بالقانون والنظام. وهذا يعني أن الطقوس التي يراد منها إظهار قوة الآلهة، تقودنا أيضًا للامتثال للقوانين التي ساهم في خلقها المعبد.

هذه التنظيمات مدعومة بل مُعّبرة عن الشرعية المتعالية. إن مفهوم التعالي الذي تظهره الطقوس يعبر عن الشرعية المطلقة لهذه المؤسسات، وتؤدي عملها بواسطة الكهان والشمان والمعالجين والسحرة.

بل تقوم هذه الأيديولوجية البارعة على اتفاق اجتماعي ضمني: المؤسسة الدينية تقرر والمؤمن ينفذ.

وهكذا فإن المعبد والسلطة يكملان بعضهما البعض. القوة الإلهية، مهما كانت خارقة للبشر، تسمح لنفسها بالتعامل مع المؤمنين من خلال الاحتفالات المرتبة بدقة. والنظام الجيد للعالم في أجزائه المختلفة لا يمر دون تدخل أو حضور الآلهة.

التكامل الذي لا يفترض أن المصطلحين موجودان دائمًا في نفس العلاقة. يمكن

تصميم كل منها بعدة طرق، ويمكن أن يكون التركيز على واحد أو الآخر.

ومن هنا تأتي أهمية هذه الطقوس حيث يتحد البشر والآلهة لتعزيز الحركة المنتظمة لعالمنا في مراحلها المختلفة. وهكذا، فإن قوة الآلهة هي من يقوم بترتيب سير الكون.

الآلهة في تنوعها لا تشكل كلًا فوضويًا حيث يفعل كل منهم ما يشاء. إذا اختلفوا في أصلهم وتاريخهم - سواء كان حقيقيًا أم أسطوريًا - فإنهم مع ذلك يجتمعون معًا. الإنسان القديم ليس له القدرة على صحة هذا الادعاء، فتلك الأساطير والحكايات المقدسة تجد آذانًا صاغية لا يعتريها الشك في تلك السرديات.

في حالة التوحيد، يتوافق مطلق القوة الإلهية مع فكرة النظام. يعطي الله شريعته للناس. هو خالق هذا النظام. ومع ذلك، فإن أفكار الاختيار، والنعمة، وحتى الأقدار، تدفع بفكرة الحرية الإلهية إلى أقصى حد ممكن في مواجهة أي نظام على الإطلاق.

الدين المصري باعث الأمل

اعتقد المصريون أن كل شخص يمتلك كا، قوة الحياة، وبا، الروح. عند الموت، يغادر الكا الجسد أولًا، ويتجول بلا هدف، بينما يبقى البا في الجسد حتى الدفن. بعد ذلك، تستمر البا، مسترشدة بالتعاويذ والصور المرسومة على جدران المقبرة والتمائم الملحقة بالجسد، في رحلتها إلى العالم السفلي. يقود الإله حورس ذو رأس الصقر، الميت عبر بوابات العالم السفلي إلى قاعة الحكم، حيث يتم اختبار المتوفى. أن يُمنح المتوفى الحياة الأبدية، كان لا بد من محاكمته على الحياة التي عاشها.

وتحت إشراف الإله أنوبيس ذي رأس ابن آوى، يتم وزن قلبه على ريشة ماعت، إلهة الحقيقة والتناغم الكوني. وتشمل هذه الطقوس بشكل خاص (الاعتراف السلبي)، حيث يجب على المتوفى أن ينكر ارتكابه للسرقة والقتل والتسبب في الأذى للآخرين وغيرها من التجاوزات. أوزوريس، ملك العالم السفلي، يراقب كقاضي إلى جانب آلهة أخرى، كل ذلك. إذا فشل المتوفى، فإن إلهة وحشية تدعى عموت، لها قوائم أسد أمامية ورأس تمساح وجسم فرس

النهر، تلتهم روحه وتحكم عليه في غيبوبة دائمة[74]

الحياة الأبدية التي خطتها ببراعة مخيلة المصري القديم مثيرة حقًا للدهشة.

وعندما نعود إلى تلك السرديات المقدسة والتي وردت في (كتاب الموتى) نجد التالي: إذا توازن القلب، فإن با يجتمع مجددًا مع كا (التي كانت تتجول منذ الموت)، مما يخلق روحًا تسمى آخ. تخرج الروح إلى العالم المشرق الذي يحكمه أوزوريس، ويسمى حقل القصب، وهي أرض الجبال والأنهار الجميلة.

هنا يجد المتوفى أحباءه وحيواناته. هذه الحياة الطوباوية تُقدم له إلى الأبد.

أن تكون ميتًا لا يعني رحيلك إلى الأبد. يمكن للمتوفى أن يعود جزئيًا إلى عالم الأحياء للاستمتاع بملذاته، مثل عروض الطعام وحياة زوجته وأولاده بعد موته.

نحن هنا أمام مخيلة فذة حقًا تركت آثارها في كل السرديات التوحيدية عن موضوع الجنة والنار.

فقدان الأمل في الدين السومري

لم ترد في السرديات السومرية المقدسة أي فكرة تبعث الأمل في النفوس بعد الموت. في عالم الأموات السومري أو العالم السفلي (كور أو أريشكيجال) تمضي جميع ارواح الأموات دون تمييز، إلى السكن الأبدي في ذلك الحيز. فلا فرق بين الصالح والطالح وبين غني أو فقير أو بين ملك ورعيته، إلّا أن كل إنسان يحتفظ بنفس المكانة التي كانت له في الحياة الأولى، ففي أحد الألواح السومرية ورد بأنّ أحد الملوك بعد موته قام بتقديم القرابين والهدايا إلى آلهة العالم السفلي، وكيف أنّه اقتيد إلى مكان تمّ تهيئته خصيصًا له.

هناك حيث البقاء الأبدي الذي لا عودة منه ولا يوجد فيه لا بعث ولا حساب.[75]

يتم الدخول إلى العالم السفلي من فتحات في الأرض كتلك التي تشرق منها الشمس والفتحة التي تغرب منها أو من القبر. بعد نزول روح الميّت إلى أرض اللاعودة يصادفه نهر العالم السفلي وسمّاه السومريون بـ (هابور) وهناك يحُيِيّه ملّاح النهر (هامو طابال) ذو الأربعة رؤوس الشبيهة

74- راجع ما ذكرنها عن هذا الموضوع في تاريخ الخوف.

75- نفس المرجع.

برأس الطير وينقله في قاربه إلى الطرف الآخر حيث بوابات مدينة الموتى. عالم الموتى حسب الأساطير السومرية عالم حصين خلف سبعة جدران عالية وسبع بوابات حصينة عليها حراس شداد غلاظ، وعندما يقترب القادم من البوابة الأولى، يعلن البواب اسمه لتسمعه اريشكيجال (إلهة العالم السفلي)، ثم يقاد عبر البوابات السبع، وعند كل بوابة يتخلى عن شيء من متاعه وملبسه وزينته وفق القوانين الموضوعة لذلك العالم. (انظر ما ذكرناه عن الرقم سبعة في ثقافات العالم القديم في كتابنا تاريخ الخوف).

ثمّ يمثل عاريًا أمام اريشكيجال وبطانتها السبع، وهم كبار آلهة العالم الأسفل لتقرير مصيره ومكانه ووضعه العام في عالم الأموات.

في الملحمة السومرية (جلجامش) نجد وفي لحظة ما أنكيدو في العالم الأسفل. هذه الملحمة تقدم وصفًا مفصّلًا لعالم الموتى، سنجد آثاره لاحقًا في الديانات التوحيدية.

في هذه الملحمة ينزل أنكيدو صديق جلجامش إلى عالم الموتى لجلب (الباكو والماكو) وهما آلتان موسيقيتان مهداتان إلى جلجامش من الإله أنانا اللتان سقطتا منه في كوّة إلى العالم الأسفل.

نتعرف في هذه الأسطورة على أحوال الموتى في العالم السفلي. وللأسطورة أهداف تتعلق بإقرار عدد من الممارسات الدينية والاجتماعية. ففيها حض على الإكثار من الإنجاب لأن الفرد يعامل في العالم السفلي وفق عدد الأولاد الذين أنجبهم في الحياة.

الجزء التالي المنقول من نص الأسطورة يعطينا فكرة عن أحوال الأموات وهي محاورة بين جلجامش وروح أنكيدو العائد من العالم السفلي:

- هل رأيت الذي لا ولد له؟
- أجل رأيته (وطعامه التراب والطين).
- هل رأيت الذي خَلّف وراءه ابنا واحدًا؟
- نعم لقد رأيته وهو ممدد أسفل الجدار ويبكي بكاء مرًا.
- هل رأيت من له ابنان؟
- أجل لقد رأيته، إنه يضطجع في بناء من الآجر ويأكل الخبز.

- هل رأيت الذي خلف ثلاثة أبناء؟
- أجل رأيت. إنه يسقى الماء من زقاق ماء العمق.
- والذي له أربعة أبناء هل رأيت؟
- أجل شاهدته وهو فرح القلب.
- وهل رأيت الذي خلف خمسة أبناء؟
- نعم رأيته وهو كالكاتب الطيب ويده مبسوطة ويسمح له بدخول القصر.[76]

يتوقف طه باقر مترجم هذا النص من اللغة الأكدية بسبب انخرام النص فلا نعرف حالهم في عالم الأموات. ولكن الترجمات التي جاءت فيما بعد وعثرت على ألواح لها علاقة بهذه الملحمة، نجد أن الأسئلة والأجوبة تتوالى.

في ترجمة عالم الآثار العراقي نائل حنون وهي من الترجمات الحديثة وتتفوق على ترجمة طه باقر مثلًا وسامي سعيد الأحمد وغيرهم، في أن فيها إضافات مهمة فيما يتعلق باللوح الثاني عشر.

عند مقارنة ترجمته بترجمة طه باقر نجدها قريبة جدًا منها، إنما هناك إضافات مهمة لم ترد في ترجمة طه باقر.

في ترجمة حنون نجد أسئلة أخرى.

- هل رأيت من له ستة أبناء؟
- رأيته مثل حارث مبتهج القلب.
- هل رأيت من له سبعة أبناء؟
- نعم رأيته يجلس في وسط الإلهة الصغرى على كرسي ويستمع للوقائع[77].
- هل رأيت من لا وريث له؟
- رأيته يأكل خبزًا كالآجر المحروق.
- هل رأيت الذي قُتِل في ساح المعركة؟ نعم لقد رأيت أنّ أباه وأمه يمسكان جسده وزوجته تبكي عند رأسه.

76- طه باقر، ملحمة كلكامش، بغداد، وزارة الثقافة والأعلام / مديرية الثقافة العامة، الطبعة الثانية 1971.

77- نائل حنون، ملحمة جلجامش، ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدي.، دمشق، دار الخريف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2006. ص 144.

-هل رأيت الميت الذي تُرِكت جثته في العراء؟ نعم لقد رأيت. انّ روحه لا تجد راحة في العالم السفلي.

هل رأيت الميت الذي لا تجد روحه من يعتني بها؟ (المقصود هنا ما يقدّمه الأحياء من أضحيات وقرابين لأرواح موتاهم)

- لقد رأيت، إنّه يأكل الأقذار وما يُرمى في الشوارع من فتات.[78]

حسب العقائد السومرية كان لزامًا على أهل الميّت دفنه وفق الطقوس المتّبعة وتزويده بما يلزم ريثما يصل للعالم الأسفل. ومن ثمّ الاستمرار في تقديم الطعام والشراب والكساء له بعد دفنه عن طريق التقدمات المختلفة، وتقديم القرابين لآلهة العالم الأسفل لتكون رفيقة به. وهذه الطقوس الجنائزية والأضاحي هي التي تعين الميّت أكثر من أي شيء آخر.

ولكن ما فائدة العمل الصالح والحالة هذه، إذا كان الجميع يهبطون إلى العالم السفلي دون استثناء، ولا يجازى الصالحون بالجنّة، فيعاملون على قدم المساواة بشكل عام مع بعض الاختلافات التي تفرضها المكانة الاجتماعية السابقة للمتوفى؟ في الواقع أنّ العمل الصالح من شأنه أن يُفيد صاحبه في هذه الحياة. فخشية الآلهة وعبادتها وإقامة المعابد لها واتّباع أوامرها، كلّها أمور من شأنها إطالة حياة صاحبها والمد في العمر (وخشية الانوناكي تطيل أيامك على هذه الأرض).

ولعل معرفة بعض عادات الدفن لدى سكان المنطقة القدماء (أرض الرافدين) تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة تصوّرهم للعالم الآخر وطبيعة الاستمرار فيه، ذلك أنه أبدي.

عندما كان يوضع الميّت في قبره، توضع معه سبع جرار من الجعة، وأربعمائة رغيف من الخبز، ووزنتان من الحنطة، وعباءة ووسادة) وقد تطابقت مكتشفات المقابر مع هذا النص إلى حد بعيد.

من المهم ملاحظة أن الموتى في أعراف بلاد الرافدين يدفنون في وضع شبه القرفصاء. ربما كان الغرض من ذلك العودة الأولى لولادته فهو في وضع الجنين في بطن أمه. وربما يعني هذا الوضع عودة الميت إلى أمه الأرض. السرديات المتعلقة بالموت وأخذت بها كل الديانات التوحيدية تقوم على فكرة أن

78- نفس المرجع.

الإنسان خلق من طين، لذا يجب أن يصبح طينًا مرة أخرى [79].

وعند عودتنا للنص وقراءته قراءة أنثروبولوجية، نجد هذه المقاطع التي اخترناها من هذه الملحمة العظيمة وهي الأولى في تاريخ البشرية، معبرة وعلى نحو كبير عن ثقافة المكان. فعند التأمل نجد التالي:

أولًا: يفصح النص عن طبيعة المجتمع فمن لم ينجب ولدًا ذكرًا بالذات سيكون طعامه التراب والطين.

في مجتمع زراعي كالمجتمع السومري والبابلي لاحقًا للإنجاب دورٌ مهم، ولا سيما من الذكور، فهم يحلون محل الأب عند وفاته ويشاركون أباهم أعمال الحقل. وهذا الأمر ينطبق على التجارة التي سادت في بابل. من ليس له ولد ذكرًا ينظر له ذلك المجتمع بريبة، تلك الثقافة الذكورية انتقلت إلى عالم الموتى.

79- Death in Mesopotamia (Copenhagen, 1980) et en particulier pp. 25 ss.: « La mythologie de la mort en Mésopotamie ancienne ». R.F. Harper, Assyrian and Babylonian Lettres..., London-Chicago, 1892-1914, tome IX, n° 962, 9 sqq.C.H.W. Johns, Assyrian Deeds and Documents, II, Cambridge, 1898, pp. 246 sq., n° 1016: rev.4 sq.

Cf. A.K. Grayson, Assyrian and Babylonian Chronicles (Texts from Cuneiform Sources, 5), New York, 1975, p. 127: 23, A.T. Clay, Miscellaneous Inscriptions in the Yale Babylonian Collection (Yale Oriental Series, 1), New Haven 1915, p. 60.Clay, op. cit., n° 43: 10,6 cm de hauteur sur 5,4 cm de diamètre (entier) ; F.J. Stephens, Votive and Historical Texts frome Babylonian and Assyria (Yale Oriental Series, 9), New Haven, 1937, n° 82: 10,3 cm sur 4,9 cm en haut et 3,3 cm en bas, donc en forme de tronc de cône (restent seulement 15 ou 16 lignes centrales ; début et fin perdus).par un particulier haut placé, de sa propre « tombe ». Or, il ne s'agit, à la lettre, que d'une « maison » (bîtu):Face 5, 12, 16 ; Rev, 2, 10, c'est-à-dire essentiellement d'un édifice, qui n'a rien de souterrain, et le terme mânatu (ligne 3 du Rev.) ne signifie évidemment pas « lieu de repos » (contreCAD, M/1, p. 206 b: 6), mais « peine », « labeur » (sens courant du mot: ibid., p. 203s):dMarduk be-li bîta ša-a-tu li-mur-ma[a-n]î ma-na-ah-ti-ia li-[q]í-ša (Rev. 23-): « Que Marduk, Monseigneur, ayant vu cette maison, me (l')accorde pour (=en récompense de) ma peine... »

ملحمة كلكامش معبرة عن ثقافة سادت ولم تزل في كثير من بلدان العالم.

ثانيًا: وعلى عكس ما هو شائع ليس للموتى مصير واحد. هنا نجد تراتبية مثيرة للعجب. في ثقافة هذا البلد نجد أن هناك تراتبية تبدأ بعقاب من ليس له ولد وتنتهي للأب الذي أنجب سبعة أولاد فهو سعيد ومقرب من الإلهة في العالم السفلي.

ثالثًا: التأكيد على الرقم سبعة، فهو يعبر عن البركة والخير. حيث نجد صداه في كل الموروث الثقافي لهذا البلد (وأقصد هنا الحضارات التي اتبعت نفس الموروث واعتمدت على السرديات السومرية).

رابعًا: يُظهر ويعبر النص عن وجود مفهوم (الشفاعة) الذي تبنته الديانات التوحيدية وأصبح حضوره فاعلًا في المسيحية والإسلام.

وخامسًا وأخيرًا: الحضور الفعّال للخبز. فمن يأكل خبزًا في العالم السفلي، خرج من البؤس الذي يكون نصيب من لا ولد له ولم يقدم أضحيات للإلهة في حياته... إلخ.

العالم السفلي في هذه الحضارة وفي هذه الأديان المتلازمة (سومرية، أكدية وآشورية) ليس عالم الجحيم الذي أتت به الديانات التوحيدية، فكما ذكرت قبل قليل هناك تراتبية، البعض يعيش تعيسًا في هذا العالم والبعض يعيش سعيدًا وبالقرب من إلهة العالم السفلي، أي ذاك الذي أنجب سبعة ذكور.

نحن وأقصد كل من ولد في حيز توحيدي، يربط بين العالم السفلي الذي جاء من هذه الحضارة وبين الجحيم وجهنم والنار في الديانات التوحيدية.

وكما ذكرت سابقًا فإن الديانة الإغريقية والرومانية لاحقًا، أخذت بمفهوم العالم السفلي الذي وجد أصلًا عند السومريين.

فنجد أن هناك إلهًا للعالم السفلي اسمه هاديس، وهو أخ كبير الإلهة زيوس. في اللغات اللاتينية يطلق على الجحيم عبارة infernus والتي تعني العالم السفلي وهي ترد في كل اللغات التي تمتد جذورها إلى اللاتينية كالفرنسية والإيطالية والإسبانية على نحو قريب من الأصل اللاتيني ففي الفرنسية أصبحت Enfer وتكتب على نحو مقارب في الإيطالية والإسبانية مثلًا، بل أن عبارة Inférieur الفرنسية والتي تعني تحت وأسفل تستمد جذورها

من كلمة enfer. والعبارة الجرمنية Hell والتي انتقلت إلى اللغة الإنكليزية تعني أيضًا العالم السفلي.

الجحيم التوراتي

عقائد الموت والعالم الآخر في التوراة هي امتداد لعقائد السومريين والبابليين. فعالم الموتى هو عالم سفلي تذهب إليه ارواح الموتى جميعًا دون تمييز. فنجد فيه القديسين والناس العاديين معًا. وليست عملية الموت إلّا مرحلة تقود الفرد من حالة إلى أخرى من أحوال الوجود، عن طريق مفارقة الروح للجسد. إنّ الأرواح تكون متساوية في مصيرها كما هو الأمر في ثقافة وادي الرافدين: فلا بعث هناك ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، بل وجود ثقيل راكد، واستمرار لا فرح فيه ولا نشوة. في سفر الجامعة من التوراة نقرأ وفي الإصحاح الأول: «مَا الْفَائِدَةُ لِلإنسان مِنْ كُلِّ تَعَبِهِ الَّذِي يَتْعَبُهُ تَحْتَ الشَّمْسِ؟ دَوْرٌ يَمْضِي وَدَوْرٌ يَجِيءُ وَالأَرْضُ قَائِمَةٌ إِلى الأَبَدِ. وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ وَتُسْرِعُ إِلى مَوْضِعِهَا حَيْثُ تُشْرِقُ. اَلرِّيحُ تَذْهَبُ إِلى الْجَنُوبِ وَتَدُورُ إِلى الشَّمَالِ. تَذْهَبُ دَائِرَةً دَوَرَانًا وَإِلَى مَدَارَاتِهَا تَرْجِعُ الرِّيحُ. كُلُّ الأَنْهَارِ تَجْرِي إِلى الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ لَيْسَ بِمَلآنَ. إِلى الْمَكَانِ الَّذِي جَرَتْ مِنْهُ الأَنْهَارُ إِلى هُنَاكَ تَذْهَبُ رَاجِعَةً.... فَلَيْسَ تَحْتَ الشَّمْسِ جَدِيدٌ».

ويؤكد الإصحاح الثاني ما ورد في الأول: «لأن مَا يَحْدُثُ لِبَنِي الْبَشَرِ يَحْدُثُ لِلْبَهِيمَةِ وَحَادِثَةٌ وَاحِدَةٌ لَهُمْ. مَوْتُ هذَا كَمَوْتِ ذَاكَ وَنَسَمَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْكُلِّ. فَلَيْسَ لِلإنسان مَزِيَّةٌ عَلَى الْبَهِيمَةِ لأن كِلَيْهِمَا بَاطِلٌ. يَذْهَبُ كِلاَهُمَا إِلى مَكَانٍ وَاحِدٍ. كَانَ كِلاَهُمَا مِنَ التُّرَابِ وَإِلَى التُّرَابِ يَعُودُ كِلاَهُمَا. مَنْ يَعْلَمُ رُوحَ بَنِي الْبَشَرِ هَلْ هِيَ تَصْعَدُ إِلى فَوْقٍ وَرُوحَ الْبَهِيمَةِ هَلْ هِيَ تَنْزِلُ إِلى أَسْفَلَ إِلى الأَرْضِ؟ فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لاَ شَيْءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَفْرَحَ الإنسان بِأَعْمَالِهِ لأن ذلِكَ نَصِيبَهُ».

إنّ جزاء الصلاح في العقيدة اليهودية ليس في الدار الآخرة، بل على هذه الأرض وفي هذه الحياة. والرب يمد في عمر الصالح ويزهق روح الطالح، تمامًا كما هو الأمر في الفكر الديني البابلي وتتردد هذه الفكرة في مواضع كثيرة من التوراة: (أكرم أباك وأمّك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك).. سفر الخروج، الإصحاح 20-1. و(مخافة الرب تزيد الأيام وسنوات المنافقين تقصّره). سفر الأمثال، الإصحاح 27:10.

ولكن لماذا إذن نجد إنسانًا صالحًا يموت في زهرة الشباب وآخر شريرًا يمتد به العمر؟ تُجيب التوراة على ذلك بطريقة طريفة فنقرأ في سفر أشعيا: «هلك الصديق ولم يكن تأمّل في قلبه. وضم أهل التقوى ولم يفطن أحد أنّه من وجه الشر ضمّ الصديق» أشعيا، الإصحاح 57:1. أي أنّ موت الأتقياء المبكّر هو تخليص لهم من الكوارث وشرور قادمة قد تصيبهم، أمّا حياة الأشرار وامتداد أعمارهم فإنّ الحكمة منها مهما كانت بالغة لم تقنع رجلًا صالحًا كأيوب عندما نسمعه يرفع عقيرته بالشكوى صارخًا: «لماذا يحيى المنافقون ويسنون ولماذا يعظم اقتدارهم. ذريتهم قائمة أمامهم، وقومهم وأعقابهم لدى أعينهم، بيوتهم آمنة من الفزع وقضيب الرب لا يعلوهم».. أيوب، الإصحاح 21: 7-9. التوراة تصوّر الدار الآخرة كما تصوّرها أساطير حضارة الرافدين فهي في عالم أسفل يقع تحت عالمنا هذا. وعُبّر عن هذا العالم الأسفل بالاسم العبري (شيئول) الذي تعبّر عنه الترجمات العربية باسم (الهاوية) أو (الجحيم). كما تصفها التوراة بأرض اللاعودة والظلام ونهارها كالديجور وبواباتها تشبه بوابات العالم الأسفل في بابل «ما رجائي إنّما الهاوية بيتي وفي الظلام مُهدت مضجعي قلت للفساد أنت أبي وللديدان أنتِ أمّي وأختي. إذن أين رجائي. رجائي من يراه. إنّه يهبط إلى أبواب الهاوية».. أيوب الخروج، الإصحاح 10: 19-22. وفي فقرة وردت في أشعيا، نجد أنّ الموتى في العالم الآخر يحتفظون بمكانتهم التي كانت لهم في الحياة، كما هو الأمر تمامًا في النظرة البابلية، ولكن التوراة لا تحدّثنا عن موكلين بتسيير شئون العالم السفلي، ولكننا نعلم مؤكدًا أنّ هذا العالم لا يقع تحت سيطرة يهوه وأنّ الأموات هناك لا يعبدونه ولا يُسبّحون بحمده. في سفر الجامعة نجد بأنّ القوى العمياء هي المسيطرة على شيئول ويحدّثنا عن ضرورة تزوّد الإنسان بما يستطيع من هذه الحياة لأن بعدها يأتي النسيان، فنقرأ في الإصحاح التاسع كلمات تشبه إلى حد بعيد كلمات فتاة الحانة إلى جلجامش: «اذهب كُل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيّب.. لتكن ثيابك في كلّ حين بيضاء.. التذ عيشًا مع المرأة التي أحببتها.. لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس. كلّ ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوّتك

لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها».. في التوراة استقرار الإنسان في العالم السفلي أبدي فلا بعث ولا نشور: «يضجعون معًا لا يقومون قد خمدوا كفتيلة انطفأوا».. أشعيا، الإصحاح 17:43. إنّ مسألة الموت والعالم الآخر قد عولجت في التوراة بكثير من الغموض والتناقض. فما تعطيه النصوص المتأخرة يختلف عمّا قدّمته النصوص السابقة، والمسألة برمّتها قد خضعت كغيرها من مسائل التوراة للتطوّر البطيء والمديد الذي طبع الفكر التوراتي عبر مسيرته الطويلة منذ الخروج و ما يطلق عليه السبي والعودة من بابل، وهو بعيد عن السبي، فكما ذكر عالم الآشوريات البريطاني فينكل في كتابه (الطوفان قبل نوح) لم يعد إلى فلسطين إلا نسبة ضئيلة جدًا من يهود بابل «هناك نفر قليل جدًا من اليهود ممن عاد إلى فلسطين في زمن كورش، إذ تحولوا في غالبيتهم إلى رعايا هذا البلد»[80]

مراحل تطوّر عقائد ما بعد الموت في التوراة:

المرحلة الأولى: تميّزت هذه المرحلة بالسكوت المطبق عن عالم ما بعد الموت وبالتلميح البعيد عن العالم الأسفل والذي لا تُعرف ماهيته ولا أحوال العيش فيه.

أما أهم مرحلة سمحت للعهد القديم ولا سيما الكتب الخمسة الأولى (التوراة) من أن يكون لها وجود، تمثل بوجود اليهود في بابل، حيث نجد لا قيمة ولا وجود للعهد القديم دون معتقدات وأساطير وسرديات بابل.

أما المرحلة الثانية: فقد تمثلت بتأثر كتّاب العهد القديم بما وجدوه في الديانة الزرادشتية بعد الغزو الأخميني لبابل والتي تؤكّد على الحياة الآخرة تأكيدًا مطلقًا. حيث كان للزرادشتية دورًا في غنى الموروث اليهودي.

يوضّح اللاهوت الزرداشتي بكل دقّة وتفصيل حياة العالم الآخر. فبعد الانتصار النهائي (لأهورامزدا) الإله الممثل للقوى الخيّرة والضياء والنظام

80- Irving Finkel, The Ark Before Noah: Decoding The story of The Foold, Ed: Hodder&, UK.2014. Irving Finkel, Arche avant Noé, Ed: JC Lattès2015, P93.

وايضًا كتابي: البحث عن جذور الإله الواحد، الطبعة الأولى 2017، الطبعة الثالثة وعن بيت الياسمين 2020.

على (أهريمان) الإله الممثل لقوى الشر والظلام والفوضى، يتوّج أهورامزدا إلهًا واحدًا أحدًا مطلقًا على الأكوان وتبعث الأموات من مرقدها إلى يوم الحساب فيوضع أمام كل إنسان ميزانه الذي يوزن حسناته وسيئاته، فمن زادت حسناته فإلى نعيم دائم، ومن كثرت سيئاته فإلى جحيم مقيم. وهكذا وبدافع التأثيرات المصرية أولًا ومن ثم الفارسية أخذت فكرة الثواب والعقاب بالظهور في التوراة ولكن بشكل غامض. وبقيت هذه الفكرة موضع أخذ ورد ومناقشات بين اللاهوتيين حتى مولد المسيح دون أن يتم التوّصل لرأي قاطع فيها، ففي سفر دانيال نقرأ: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار، للازدراء الأبدي».. الإصحاح 2-3:12.

وهنا نجد أنّ النص فيه غموض ويعطي مجالًا للتأويل دون إعطاء رأي قاطع، فجملة (كثيرون من الراقدين) تركت فجوة تمنع وجود تفسير قاطع للنص بأنّه دلالة على بعث حقيقي.

الموت وما بعده في الزرادشتية:

عقائد ما بعد الموت الزرادشتية أحدثت انقلابًا فكريًا في المعتقدات الدينية ونلاحظ تأثيراته في الديانات التوحيدية (اليهودية والمسيحية والإسلام)، فلأول مرة يتعرّف الفكر الإنساني على مبدأ الثواب والعقاب في الآخرة، ويُمكن تقسيم عقائد ما بعد الموت إلى ما قبل الزرادشتية وإلى ما بعد الزرادشتية. يوضّح اللاهوت الزرادشتي بكل دقّة وتفصيل حياة العالم الآخر.[81] فبعد الانتصار النهائي (لاهورامزدا) الإله الممثل للقوى الخيّرة والضياء والنظام على (أهريمان) الإله الممثل لقوى الشر والظلام والفوضى. يتوّج أهورامزدا إلهًا واحدًا أحدًا مطلقًا على الأكوان وتبعث الأموات من مرقدها إلى يوم الحساب فيوضع أمام كلِ إنسان ميزانه الذي يوزن حسناته وسيئاته، فمن زادت حسناته فإلى نعيم دائم، ومن كثرت سيئاته فإلى جحيم مقيم.

يرتبط معتقد نهاية التاريخ ارتباطًا وثيقًا بمعتقد البعث والحساب والحياة الثانية.

81- راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع في تاريخ الخوف، الطبعة الثانية، بيت الياسمين 2020.

فبعد أن دخل الموت في نسيج الحياة خلال فترة التمازج بين الخير والشر صار الموت من نصيب كل كائن حي، وبوابة عبور من الحالة المادية إلى الحالة الروحانية الهلامية القاصرة. فالأرواح بعد مغادرة الأجسام عقب الموت تبقى في برزخ المينوغ تنتظر يوم القيامة بشوق وترقُّب لكي تلتقي بأجسادها التي تبعث من التراب. يحدثنا زرادشت في أناشيد الغاثا عن مصير الروح بعد الموت وأحوالها إلى زمن البعث والنشور. فبعد مفارقتها الجسم تَمثُل الروح أمام ميترا قاضي العالم الآخر (وهو رئيس فريق الأهورا الذين يشكلون مع الأميشا سبنتا الرهط السماوي المقدس) الذي يحاسبها على ما قدمت في الحياة الدنيا من أجل خير البشرية وخير العالم. ويقف على يمين ميترا ويساره مساعداه سرواشا وراشنو اللذان يقومان بوزن أعمال الميت بميزان الحساب، فيضعان حسناته في إحدى الكفتين وسيئاته في الأخرى. وهنا لا تشفع للمرء قرابينُه وطقوسه وعباداته الشكلانية، بل أفكاره وأقواله وأفعاله الطيبة.

فمن رجحت كفة خيره كان مآله الفردوس، ومن رجحت كفة شره كان مثواه هاوية الجحيم. بعد ذلك تتجه الروح لتعبر صراط المصير، وهو عبارة عن جسر يتسع أمام الروح الطيبة، فتسير الهوينى فوقه إلى الجهة الأخرى نحو بوابة الفردوس، ولكنه يضيق أمام الروح الخبيثة، فتتعثر وتسقط لتتلقَّفها نار جهنم. هناك أنغرا مانيو نفسه يسوم المذنبين سوء العذاب. أما من تساوت سيئاته وحسناته فيعبر الصراط إلى مكان وسط بين النعيم والجحيم، حيث يستمر في وجود باهت كظل شبحي بلا إحساس (في الدين الإسلامي تطوّرت هذه الفكرة فالذين تتساوى أعمالهم الحسنة والسيئة ينتظرون في منطقة عالية بين الجنة والجحيم تُسمّى بالأعراف، إلى أنْ يقرر الله مصيرهم).. هذا وتقدِّم شروح اللاهوتيين الزرادشتيين مزيدًا من التفاصيل حول هذه القيامة الفردية. فبعد أن يوارى الميتُ في مثواه الأخير تمكث روحه عند رأسه ثلاث ليال تتأمل في حسناتها وسيئاتها. وخلال ذلك تزورها ملائكة الرحمة إن كانت من الصالحين، أو شياطين العذاب إن كانت من الكافرين، فيسومونها سوء العذاب (في المعتقد الإسلامي يزور الميّت في القبر ملكان هما منكر ونكير لامتحان الميّت). وفي اليوم الرابع تُساق الروح إلى جلسة الحساب (في المعتقد

الإسلامي يكون الحساب في يوم القيامة وليس بعد أربعة أيام من الوفاة).. وبعد اجتياز امتحان الميزان الذي يقرر مكان الروح تتجه إلى الصراط، وهو عبارة عن جسر يشبه السيف: فإذا كان العابر روحًا خبيثة فإن السيف يستدير بطرفه الحاد نحو الأعلى، فتخطو الروح عليه ثلاث خطوات، هي الفكر السيئ والقول السيئ والعمل السيئ، وعندما تحاول الخطوة الرابعة تنزلق إلى مهاوي جهنم؛ أما إذا كان العابر روحًا طيبة فإن السيف يستدير بطرفه العريض لتعبره الروح إلى الطرف الآخر بسلام.

وفي رواية أخرى، نجد أن الصالح، بعد خطوته الأولى على الصراط، تهب عليه ريح عطرة آتية من الجنة، وعند منتصف الصراط تظهر له فتاة في ريعان الصبا لم تقع العين في الحياة الدنيا على أجمل منها، فيسألها: (من أنتِ)؟ فتقول: (أنا عملك الطيب). ثم تأخذ بيده إلى الجنة. وأما الإنسان الطالح، فبعد خطوته الأولى على الصراط تهب عليه ريح نتنة من أعماق الجحيم، وعند منتصف الصراط تظهر له عجوز شمطاء نتنة لم تقع العين على أقبح منها، فيسألها: (من أنتِ)؟ فتقول: (أنا عملك السيئ). ثم تقبل عليه وتعانقه، فيهويان معًا إلى الجحيم.

يتألف الجحيم من عدة دركات، يقع أسفلها في مركز الأرض، حيث يتكاثف الظلام حتى يمكن إمساكه باليد، وحيث تتصاعد ريح نتنة لا تطيقها نفس بشرية. فيستقبل كل درك أهلها حسب فداحة ذنوبهم، وتُقدِّم لهم من صنوف العذاب ما يوازيها. أما السماء فتتصاعد على ثلاث درجات تقابل الفكر الحسن والقول الحسن والعمل الحسن. فالدرجة الأولى عند خط النجوم، والثانية عند خط القمر، والثالثة عند خط الشمس. فتصعد الروح هذه الدرجات تباعًا وصولًا إلى السماء العليا غارو-دمانا، أو مسكن الغناء، وهناك تقيم في بركة وسلام إلى يوم الحساب الأخير. بظهور المخلّص شاوشنياط[82] تحل الأيام الأخيرة وتقترب الساعة: يوم

82- شاوشنياط (أو شاوشيانز):هو الذي يقود المعركة الفاصلة بين قوى النور وقوى الظلام. وسوف يولد المخلّص شاوشنياط من عذراء تحمل به عندما تنزل للاستحمام في بحيرة كانا سافا، فتتسرب إلى رحمها بذور زرادشت التي حفظتها الملائكة هناك إلى اليوم الموعود (في العقيدة المسيحية الإله المخلّص ابن الله أيضا يولد من عذراء ولكن عن طريق روح القدس،

تلفظ الأرض ما أُتخِمَت به من عظام الموتى خلال مراحل التاريخ الثلاثة، ويُفرَغ الجحيم والفردوس من سكانهما ليعودوا إلى الحشر العظيم. هناك يلتقي من مات منذ آلاف السنين بمن بقي حيًا إلى يوم الدينونة، ليأتي الجميع إلى الحساب الأخير. في ذلك اليوم، يسلِّط الملائكة نارًا على الأرض تذيب معادن الجبال وتشكل نهرًا من السائل الناري. فأما الأخيار فيعبرونه كمن يخوض في نهر لبن دافئ؛ وأما الأشرار فينجرفون في التيار الذي يفنيهم ويمحو عن الأرض أثرهم بعد عذاب أليم. ويكون جند الظلام قد اندحروا في المعركة الفاصلة مع جند النور واستؤصلت شأفتهم، فيغوص في نهر النار إلى أعماق الجحيم حيث لجأ أنغرا مانيو ومن بقي معه، فيلتهمهم جميعًا ويتم التخلص من آخر بقايا الشر. كما أن الجحيم نفسه يتطهر مثلما تطهرت بقية أجزاء الكون، ويغدو إقليمًا من أقاليم الأرض الزاهرة. عند ذلك يعيش الذين عبروا نهر النار سالمين في أرض جديدة وتحت سماء، هي نفس الأرض ونفس السماء وقد تطهَّرتا وصارتا نقيتين إلى الأبد. ثم يقوم أهورا مزدا بسقي هؤلاء الأخيار شراب الخلود الذي يجعل أرواحهم وأجسادهم في اتحاد أبدي، ويغدون خالدين في جنة وِسعُها السماوات والأرض، كل بقعة فيها ربيع أخضر دائم، وتحتوي على كل شجر وثمر وزهر.

الفصل الثالث
لماذا الجنة؟

تشير كلمة (الجنة) في الأصل إلى المحميات النباتية والحيوانية الهائلة المحاطة بالأسوار، والتي بناها ملوك الفرس في الألفية الأولى قبل الميلاد.

بل يعتقد كبار الباحثين ومنهم الفرنسي بوتيرو، أن الحديقة التي سكنها آدم مع حواء ترديد للحدائق المعلقة في بابل وغيرها من الحدائق الآشورية.

إنها الكلمة اليونانية (paradèisos)، (gan-éden) بالعبرية، التي استُخدمت للإشارة إلى الفردوس الأرضي. أيّ الجنة التي طُرد منها آدم وحواء، في سفر التكوين. وقد فُهمت فيما بعد على أنها تعني ملكوت السماوات، الذي وعد به يسوع في العهد الجديد. وبما أن نفس الكلمة استخدمت للإشارة إلى كل من جنة عدن، الفردوس الأرضي والمملكة السماوية، فقد تم الخلط بين المفهومين في كثير من الأحيان.

أصل كلمة (الجنة) يأتي من الكلمة الفارسية (pairidaêza) التي تعني منطقة محاطة بالحواجز. عندما استعارت الثقافة اليهودية وعبر العهد القديم هذه الكلمة تحولت هذه الكلمة إلى بارديه في العبرية لتعيين بستان أو حديقة بها مياه وأشجار. ومن ثم فهي مرادفة لـ gan)) الحديقة (بالعبرية) و (Eden) (السهوب والبهجة)، (بالسومرية).

لقد لجأ العهد القديم إلى عبارة باردس pardés، وهي مأخوذة من اللغة الفارسية القديمة حيث كان يشار إلى عبارة جنة في الدين الزرادشتي على هذا النحو apiri-daeza، والتي تعني بستان محاطة بأسوار. في تلك الحديقة الموجودة في حيز سعيد، أطلق عليه العهد القديم (عدن)، حيث الرقة والذوق والعطور، يعيش رجال ونساء بانسجام مع الطبيعة.

في ذلك الحيز المتخيل تنساب المياه الرقاقة وبكرم. الجنة تعكس الماضي

الصحراوي للأجداد ودور المخيلة في حفظ ذكريات أليمة عن شحة المياه وعن حيز وعر وقاس لا يسمح بالحياة الكريمة. سيكون وجودهم في هذا الحيز المتخيل للأبد حيث السعادة لا تفارقهم كما يؤكد أشعيا وسترافقهم الموسيقى في ذلك الحيز [83].

اليهودية والمسيحية والإسلام تشترك بنفس النصوص التأسيسية، عندما يتعلق الأمر لاستحضار أسلافنا البعيدين والحديقة التي كانت قد عهدت إليهم، وهنا نقصد آدم وحواء أولًا.

مؤلف الصفحات الأولى من سفر التكوين لا يخاف من المبالغة فهي من أهم سمات المحبطين. لكنه وفي نفس تلك المهمة المستحيلة لا يريد أن يكتب نصًا أسطوريًا، بل مؤرخًا معبرًا عن حيز مقدس.

فهو يدون ومنذ السطور الأولى مذكرات ويوميات الله العظيمة للأيام الستة الأولى من العالم إذ بدأ بخلق السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وكان الظلام يغمر الأرض وكانت روح الله تَرف على وجه المياه. وقال الله ليكن نور، فكان نورًا... إلخ.

سفر التكوين ومنذ السطر بل الكلمة الأولى أراد أن يربط بين النظام والخلق، كما فعل الإله البابلي مردوخ بشقه تيامات إلى نصفين جعل من الأول سماءً ومن الثاني أرضًا.

كما نلاحظ أن هناك أرضًا واحدة ولكن عددًا من السماوات وهذا أيضًا يعود إلى الثقافة البابلية التي اعتبرت أن الكون يحوي سبع سماوات.

نشأة الكون الذي لا يتفق مع علم الفلك وعلم الإنسان والحيوان والنبات، يتضمن درسًا رائعًا في اللاهوت: الإنسان مخلوق، رجلًا وامرأة، على شبه الله لا على صورته. إنه هو من أمر آدم وحواء أن يكدا ويزرعا فالنص يقول: «بعرق وجهك تأكل خبزًا».. (التكوين 19:3).

ليس هناك شك في خلق الحديقة الأرضية التي وردت في هذا السفر.

الراوي في هذه النسخة الثانية من الخلق، يجعل القصة ترتد مرة أخرى مع

83- Jean Delumeau, Une Histoire Du Paradis. Vol 1 Le Jardin des Délices, Paris, Fayard ,1992 P 12.16-

تشير كلمة (الجنة) في الأصل إلى المحميات النباتية والحيوانية الهائلة المحاطة بالأسوار، والتي بناها ملوك الفرس في الألفية الأولى قبل الميلاد.

بل يعتقد كبار الباحثين ومنهم الفرنسي بوتيرو، أن الحديقة التي سكنها آدم مع حواء ترديد للحدائق المعلقة في بابل وغيرها من الحدائق الآشورية.

إنها الكلمة اليونانية (paradèisos)، (gan-éden) بالعبرية، التي استُخدمت للإشارة إلى الفردوس الأرضي. أيّ الجنة التي طُرد منها آدم وحواء، في سفر التكوين. وقد فُهمت فيما بعد على أنها تعني ملكوت السماوات، الذي وعد به يسوع في العهد الجديد. وبما أن نفس الكلمة استخدمت للإشارة إلى كل من جنة عدن، الفردوس الأرضي والمملكة السماوية، فقد تم الخلط بين المفهومين في كثير من الأحيان.

أصل كلمة (الجنة) يأتي من الكلمة الفارسية (pairidaêza) التي تعني منطقة محاطة بالحواجز. عندما استعارت الثقافة اليهودية وعبر العهد القديم هذه الكلمة تحولت هذه الكلمة إلى بارديه في العبرية لتعين بستان أو حديقة بها مياه وأشجار. ومن ثم فهي مرادفة لـ gan)) الحديقة (بالعبرية) و (Eden) (السهوب والبهجة)، (بالسومرية).

لقد لجأ العهد القديم إلى عبارة باردس pardés، وهي مأخوذة من اللغة الفارسية القديمة حيث كان يشار إلى عبارة جنة في الدين الزرادشتي على هذا النحو apiri-daeza، والتي تعني بستان محاطة بأسوار. في تلك الحديقة الموجودة في حيز سعيد، أطلق عليه العهد القديم (عدن)، حيث الرقة والذوق والعطور، يعيش رجال ونساء بانسجام مع الطبيعة.

في ذلك الحيز المتخيل تنساب المياه الرقاقة وبكرم. الجنة تعكس الماضي

وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون، وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع أرض كوش واسم النهر الثالث حداقل، وهو الجاري شرقي أشور. والنهر الرابع الفرات وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلًا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت».

نجد في القرآن خلق العالم قريباً جدًا من سفر التكوين. فقد خلق الله الإنسان، كما خلق يسوع فيما بعد، بقوة كلمته وحدها (القرآن سورة البقرة 29 -32) أن يقول له: كن فيكون وخلقه فسواه من الطين كما ورد في سفر التكوين وقبل ذلك في السرديات السومرية أولًا. لقد شكل الإنسان بانسجام ونفخ فيه من روحه. الله في القرآن خلق السموات والأرض في ستة أيام (هود 7).

ومن خصائص الجنة أنها لا تُمّثل ولا توصف. إنها (ما لم تر عين، وما لم تسمع أذن، وما لم يخطر على بال إنسان، كل ما أعده الله للذين يحبهم)، كما ورد في كتب القديس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس.

يقدم التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية تعريفًا لا يقل غموضًا. إنها (حالة من السعادة القصوى والنهائية)، ووعد بالعيش دائمًا مع المسيح: «لأولئك الذين يموتون في نعمة الله وصداقته، والذين تطهروا تمامًا». أولئك الذين يصلون إلى الفردوس هم (مثل الله إلى الأبد)، لأنهم يرونه (كما هو)، (وجهًا لوجه). الجنة تهزنا لأنها لا تتناسب مع تمثيلاتنا البشرية للمكان والزمان. إنه ليس مكانًا، بل حالة، مشاركة الإنسان في الطبيعة الإلهية.

في العصر الراهن أخذت الكنيسة الكاثوليكية بمعطيات العلوم المعاصرة كالفلك والفيزياء، فذهب البابا فرنسيس (1936) إلى اعتبار الجنة معانقة الرب وليست قصة خيالية ومكانًا لا وجود له.

نجد في الكتاب المقدس بعض التشبيهات التي تخاطب خيالنا البشري. (ادخل إلى فرح سيدك، وهكذا، غالبًا ما يُقارن الوصول إلى ملكوت السماوات

بـ (الوليمة)، (وليمة العرس). يؤكد الأب جان مارك بوت أن (رمزية الوجبة هي أقوى ما لدينا في لغة المسيح). هل سنجد أحبابنا في الجنة؟ هذا ما تؤكده القديسة تريزا الأفيلية عندما تروي أنه ذات يوم، انتقلت بالروح إلى السماء، وكان أول الناس الذين رأتهم هناك (أباها وأمها). يضيف الأب موران: (هناك سنجد أحباءنا، وأيضًا الأشخاص الأقل أهمية لنا، حيث سنكون في سلام مع أنفسنا، ومعهم، ومع الله). «إنه على عكس سارتر: نجده يقول الجنة هي الأشخاص الآخرون، يلخص الأب فرانسوا أوفيه، هذه المقولات والتي تصر على البعد الجماعي للخلاص»[85].

حديقة عدن، أو الجنة الأرضية

يظهر مصطلح بارديس ثلاث مرات فقط في العهد القديم. ويفهم بمعنى (البستان) ويمثل حديقة يزرعها الإنسان. المقطع الأكثر وضوحًا هو بالطبع وصف (جنة) عدن في سفر التكوين (2: 3-8).

بعد خلق العالم والإنسان، يزرع الله حديقة في عدن. يرويها نهر ينقسم إلى أربعة أذرع ويوفر طعامًا وفيرًا بفضل الفواكه اللذيذة التي تنمو على الأشجار. ولكن الله يمنع أكل ثمر شجرة معرفة الخير والشر، تحت عقوبة الموت. في الحديقة، إلى جانب الإنسان، تعيش الحيوانات أيضًا. وفي وقت لاحق، تم خلق المرأة الأولى، حواء، لترافق آدم.

يعتبر سفر التكوين من أقدم النصوص المؤسسة لموضوع الجنة والأمل في حياة هانئة بعد الموت في الديانات التوحيدية. في هذا السفر الذي يشكل العمود الفقري للعهد القديم لم ترد عبارة جنة بل حديقة عدن Jardin d'éden، مع أننا وعندما نقرأ العهد القديم عربيًا لن نجد حديقة بل جنة! في نسخة الآباء اليسوعيين المنشورة في بيروت وردت جنة، وعندما قابلتها ببقية النسخ العربية ومنها (الكتاب المقدس والذي اعتمد اليونانية والعبرية والمنشور في عام 1995 والمنشور في بيروت)، لم نجد عبارة حديقة البتة. وعندما عدت إلى النسخة الفرنسية والإنكليزية وجدت حديقة وليست جنة،

85- La CROIX, Héloïse de Neuville, 282011 /10/.

كما أن النص العبري المعتمد وردت فيه عبارة حديقة وليست جنة. والسبب أن مصطلح جنة جاء متأخرًا. في الإصحاح الثاني من سفر التكوين ورد التالي: «وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. ». (2: 8-17).

هذا التصور الذي يتضمن مخيلة معتمدة على ثقافة كانت مصدرًا لكل عظمتها وأوهامها. في سفر حزقيال المتأخر عن سفر التكوين نجد مادة متممة وتذهب بنفس الاتجاه، ففي الإصحاح 47:12 نجد التالي: (وَعَلَى النَّهْرِ يَنْبُتُ عَلَى شَاطِئِهِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ كُلُّ شَجَرٍ لِلأَكْلِ, لاَ يَذْبُلُ وَرَقُهُ وَلاَ يَنْقَطِعُ ثَمَرُهُ. كُلَّ شَهْرٍ يُبَكِّرُ لأن مِيَاهَهُ خَارِجَةٌ مِنَ الْمَقْدِسِ, وَيَكُونُ ثَمَرُهُ لِلأَكْلِ وَوَرَقُهُ لِلدَّوَاءِ).

عند حزقيال نجد مفاهيم الشجر الذي لا يذبل ورقه ولا ينقطع ثمره، هنا بدأ التفكير بمسألة الخلود.

المسيحية مبتكرة للجنة السماوية

العهد الجديد يسير على نفس الخطى ويطور منهجًا وأسلوبًا يؤكد على أهمية مفهوم (دين الله السليم). ففي الإصحاح الحادي والعشرين من سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي نجد مادة جديرة بالتأمل..« ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لأن السَّمَاءَ الأُولَى وَالأَرْضَ الأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لاَ يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ. وَأَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا. وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا. وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلهًا لَهُمْ. وَسَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ، وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لأن الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ».... وَقَالَ لِيَ: «اكْتُبْ، فَإِنَّ هذِهِ الأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ». ثُمَّ قَالَ لِي: «قَدْ تَمَّ! أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّانًا. مَنْ يَغْلِبْ يَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُونُ لَهُ إِلهًا وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْنًا. وَأَمَّا الْخَائِفُونَ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ الْكَذَبَةِ فَنَصِيبُهُمْ فِي

الْبُحَيْرَةِ الْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الثَّانِي».

في هذا النص نجد معالم الجنة السماوية واضحة، حيث نجد مصطلحات تعبر عن ثقافة وأيديولوجية الدين الجديد.. «وَذَهَبَ بِي بِالرُّوحِ إِلى جَبَلٍ عَظِيمٍ عَالٍ، وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ... وَكَانَ لَهَا سُورٌ عَظِيمٌ وَعَالٍ، وَكَانَ لَهَا اثْنَا عَشَرَ بَابًا، وَعَلَى الأَبْوَابِ اثْنَا عَشَرَ مَلاَكًا.....»

ويستمر في وصف المدينة المقدسة حيث نجده يقول: «وَالْمَدِينَةُ لاَ تَحْتَاجُ إلى الشَّمْسِ وَلاَ إلى الْقَمَرِ لِيُضِيئَا فِيهَا، لأن مَجْدَ اللهِ قَدْ أَنَارَهَا، وَالْحَمَلُ سِرَاجُهَا. وَتَمْشِي شُعُوبُ الْمُخَلَّصِينَ بِنُورِهَا، وَمُلُوكُ الأَرْضِ يَجِيئُونَ بِمَجْدِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ إِلَيْهَا. وَأَبْوَابُهَا لَنْ تُغْلَقَ نَهَارًا، لأن لَيْلًا لاَ يَكُونُ هُنَاكَ...»

وعلى نحو مشابه ذهب الكتّاب الإغريق واللاتينون للحديث عن جنات على شكل حدائق وذلك عندما يتطرقون إلى العصر الذهبي وجزر السعادة. بدءًا من القرن الثاني أصبح الكُتّاب المسيحيون على قناعة من أن ما جاء في كتابات الكتاب المشركين من إغريق ولاتينيين تتطابق مع الجنة الأرضية التي وردت في كتاب التكوين العبري. هذا الرأي بقي محافظًا على بريقه وحيويته حتى القرن السابع عشر بما يحمله من حكاية آدم وحواء والعصر الذهبي لكبار الشعراء الإغريق والرومان حيث أصبحت حديقة عدن معبرة عن السعادة الأبدية[86].

عدن أو الجنة المفقودة

وفي وسط هذه الطبيعة الوفيرة يسود جو هادئ وسلمي، حيث لا يعرف المرء المعاناة ولا الموت. هذا المكان البدائي، الذي يشير إلى أسطورة الأصول، هو المكان الذي يسود فيه الانسجام بين الله والخليقة، ولكن أيضًا بين الطبيعة (النبات والحيوان) والإنسان.

في الواقع، آدم، الإنسان الأول، خُلق من تراب الأرض (أداما بالعبرية) ويعود جذر الكلمة إلى الأكدية، ومن ثم نجدها حاضرة في اللغة العربية (أديم الأرض). ثم ترمز الجنة إلى علاقة العهد القائم بثقافة المكان (يجب على

86- Jean Delumeau : Que reste -t-il du paradis, paris, Fayard,2000

الإنسان أن يزرع الأرض ويجعل منها بستانًا) ولكن أيضًا مع الرب لأنه، في وقت الراحة هذا، لم ينكسر الاتحاد بين الله والإنسان بعد.

ويتفق العديد من المؤرخين على أن سفر التكوين قد كتب إما أثناء (السبي البابلي) (597-539 ق.م.) أو عند عودتهم (538-333 ق.م).

سبق لي وذكرت وعبر كتابي (البحث عن جذور الإله الواحد) أن عبارة سبي غير دقيقة، فقد عاش اليهود في بابل حياة هانئة لا تختلف عن حياة البابليين عبدة الأوثان... بل يؤكد عالم الآشوريات البريطاني فنكل أن عدد من رجع من اليهود إلى فلسطين في الحقبة الأخمينية، لا يتجاوز ٥٪ [87].

أراد المؤلفون بلا شك صياغة هوية فريدة حول قصة أسطورية، مسترشدة بيد الله. وهكذا يروي سفر التكوين أصول الشعب العبري، وهو أمر شائع بين الحضارات القديمة. ومن ثم يمكن أن تكون حديقة عدن رمزًا للأرض الموعودة ولكنها ضاعت واحُتلت ونهبت من قبل الدول المجاورة.

تأثير أساطير بلاد ما بين النهرين واليونانية

كان ذلك التواجد في بابل مصدر نعمة وخير لليهود، فلولا بابل كما يذهب إلى ذلك كبار الباحثين الغربيين في هذا الشأن، لما رأى النور العهد القديم ولا التلمود والذي يطلق عليه التلمود البابلي...

كان العبرانيون، على اتصال وثيق بأساطير بلاد ما بين النهرين. ففي أسطورة إنكي ونينخورساج السومرية، قصة خلق الإنسان، نجد نفس السرد يتكشف كما في قصة التكوين: الإله إنكي يخلق دلمون، وهي أرض خصبة واسعة ينبع منها الماء، مصدر الحياة، حيث يسود جو سلمي. يخدع زوجته، نينهورساج، عن طريق أكل النباتات غير الصالحة للأكل التي قطفها، ثم يعاني من المرض والمعاناة وسرعان ما يموت. لكن نينهورساج يعيد النظر في قراره ويقرر أن يسامح إنكي ويشفيه.

يمكننا أيضًا العثور على توافقات مع بعض الأساطير اليونانية، مثل أساطير العصر الذهبي، الموصوفة في أعمال وأيام هسيود (القرن الثامن قبل الميلاد)

87- فالح مهدي، البحث عن جذور الإلهة الواحد، بيت الياسمين، الطبعة الثالثة،2020.

والتي تناولها في التحولات. العصر الذهبي هو الفترة التي تلت خلق الإنسان ويمثل عصر الوفرة والوئام والسعادة. إنه يميل إلى الإشارة إلى الماضي الأسطوري، وهو نوع من الجنة المفقودة.

الجنة والآخرة

منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ظهرت فكرة الحكم النهائي الذي يحدد مصير المتوفى في الأدب اليهودي، وبشكل أكثر تحديدًا، في الأدب الرؤيوي. هذا النوع الأدبي، الذي يظهر رسميًا مع سفر دانيال، يعمل على إلقاء الضوء على الأزمات الاجتماعية والسياسية التي يمر بها الشعب اليهودي وإسقاط نفسه على المستقبل حيث تتحقق وعود الله.

وهذا الحديث عن نهاية الزمان يسمى علم الأمور الأخيرة. إنه منظور تاريخي يتجه نحو مستقبل متسامٍ: بعد فترة صعبة، اتسمت بالدمار والفوضى، سيتدخل الله - من خلال شخصية المسيح -المُخلِّص اليهودي - لتحرير إسرائيل، وتجديد العالم، في هذا المستقبل المتُخيل لن يكون هناك سوى الأشخاص المختارين في هذه المملكة....

كتبة التوراة والتلمود لاحقًا كانوا أوفياء لثقافتهم، فالمختارون ممن سيقيم في هذه المملكة هم اليهود أنفسهم...

صناعة الأمل في الديانات اليونانية واللاتينية

لم تستحوذ الديانات التوحيدية بمفاهيم الحنين للعصر الذهبي، بل يكمن الأمل بعالم خالد لا شيخوخة فيه ولا أمراض.... إلخ في معظم ثقافات العالم القديم ، فوجدنا أثرًا له عند الإغريق والرومان وقبل ذلك عن الهنود.

يشترك هسيود (700 ق.ت.م) وهو الشاعر اليوناني العظيم مع هومروس من أنهما من الشعراء الملحميين الأوائل إلى حد ما. لا يقارن غنى أعمال هسيود بما أنتج هومروس. ألف عملين كاملين مما وصل إلينا وهما (ثيوغونيا) و(الأعمال والأيام).

في الأعمال والأيام المُؤلف من 828 بيت تمكن من جمع كل السرديات والتقاليد المتعلقة بأصول العالم. نسب الآلهة، وصول الرجال إلى الأرض،

وأفضل ما وجدوه من طرق للزراعة. تبرير لعمل الإنسان الشاق، حكايات وقصص أخلاقية، ولم يفته الكتابة عن أفضل الطرق لتصبح مزارعًا جيدًا

بدأ العالم بالعصر الذهبي فقد كان الجنس الأول من الذهب والذي تم تشكيله من قبل سكان أوليمبوس الأبدية. الرجال كانوا موجودين في زمن مبكر. لقد عاشوا كالآلهة، قلوبهم خالية من الهموم، محمية من التعب والبؤس؛ الشيخوخة المؤسفة لم تهددهم، عاشوا حياة بهيجة دون أن يفقدوا قوة أرجلهم وأذرعهم، ، بعيدًا عن كل شر؛ ثم ماتوا، وكأن النوم قد روضهم.

لم يدم الحال فانتقل الإنسان من عصر إلى آخر. ومر بالعصرين الفضي والبرونزي.

أما أوفيد، الشاعر اللاتيني، بل أعظم الشعراء الرومانيين، فنجده قد سار على خطى هسيود، ففي قصيدته الغنائية التي كتبها بعد أكثر من سبعمائة سنة من قصص هسيود التأسيسية عن الأساطير اليونانية، نجد مادة جديرة حقًا بالتأمل. ففي الكتاب (مسخ الكائنات) ويترجم في اللغة الفرنسية بـ (كتاب التحولات) لهذا الشاعر والذي قام بترجمته ثروت عكاشة، يتطرق ومنذ البداية إلى عملية خلق الكون. ففي الكتاب الأول وتحت عنوان خلق العالم نجد التالي: «قبل أن تكون أرضٌ، وقبل أن تكون بحارٌ، وقبل أن تكون سماءٌ تُظلُ هذا الكون أجمع، كان ثمة عماء يلفّ العالم كله بردائه ولا يستبين منه غير شكل واحد لا سواه. فكان كتلة مضطربة لا شكل لها، جمادًا لا حياة فيها، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء، ليس ثمة بينها صلة أو رابطة. ولم تكن ثمة شمس (تيتان) يفيضُ نورها على العالم، كما لم يكن ثمة قمر «فُيبي» له مع كل يوم وجهٌ جديد، يكمُلُ ثم يعود ناقصًا كما بدأ. ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمها الفضاء تتهادى بثقلها، كما لم تكن المياه قد بسطت ذراعيها على شطآن البرّ.....»[88].

88- كتاب المسخ للشاعر أوفيد، ترجمه وقدم له ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص31-35. وهناك ترجمة اخرى قام بها الشاعر أودنيس وهي بعنوان التحولات، نُشرت في عام 2002 عن المجمع الثقافي في أبو ظبي. ولا يمكن الاعتماد على ترجمة أودنيس، فترجمة ثروت عكاشة أكثر دقة وامانة وكتبت بلغة انيقة.

وعندما يصل إلى مسألة الخالق لهذا الكون والذي أخرجه من الظلمات إلى النور ومن الاضطراب والفوضى إلى الدقة نجده يقول «وما إن فرغ الإلهُ من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التي لم تكن على شكل ما، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة في تماسك كي يجنّب الأرض أن يختل أيّ قطر منها، من أجل ذلك سوّاها كروية ضخمة.....»[89]

وفيما يتعلق بخلق الإنسان فنجده وعبر مخيلته الفذة وثقافته العظيمة يفُرّق بين الحيوان والإنسان، فقد خلقت الآلهة الإنسان على شاكلتها وجعلته ينظر إلى السماء..

قسم أوفيد العصور التاريخية إلى أربعة مراحل أولها العصر الذهبي.. «تأسس دون ردعٍ، ودون شرائع. من تلقاء ذاته يمارس الفضيلة والصّدق. الخوف مجهولٌ والعقوبات غير معروفة. وفي هذا الزمن، لم تكن الخنادق العميقة تحيط بالقلاع، ولا وُجدتْ أبواق الحرب بأعناقها الطويلة، لا القرون المقوّسة التي تضرب البرونز كي يرنّ، ولا الخوذ، ولا السّيوف. الشعوب تعيش في أمانٍ، دون حاجة إلى جنودٍ، حياةً عذبة هادئة.... »[90]

إن تقارب هذا الموضوع مذهل بين الأساطير اليونانية واللاتينية والنصوص الشرق أوسطية إن جاز التعبير، مثير للعجب. فكما لاحظنا في النصوص السومرية باعتبارها أقدم ما وصلنا، الآلهة هي التي قررت خلق الإنسان على شاكلتها ومن ثم لم تختلف السرديات المصرية والفينيقية والكنعانية عن تلك الثيمة.

وإذا استبعدنا مسألة نقل الأساطير من حضارة إلى أخرى، فهذا يدفعنا للقول إن ذلك التوافق ناتج عن فهم مشترك لأصل الوجود.

العبرية ونتيجة حضور اليهود في بابل، نَقلت تلك السرديات بعد أن أضافت لها بما يتفق والدين الذي طورته والذي سيطلق عليه الدين العبري. وكما نعلم فإن تلك السرديات الممعنة في القدم وجدت طريقها في المسيحية والإسلام.

89- نفس المصدر، ص32.

90- نفس المصدر، ص33.

الفصل الرابع
الجنة المسيحية

كما ذكرنا سابقًا، طورت الأدبيات المسيحية ومنذ زمن مبكر مفاهيم الجنة والنار، ومفاهيم الإقامة الدائمة والخلود.

في هذه الأدبيات حدث تحول، حيث ستصبح الأرض مكان الإقامة المؤقت حيث تنتظر نفوس الأبرار، الذين لم ينقضوا العهد مع الله (الذين لم يخطئوا)، لحظة قيامتهم.

في العهد الجديد، يتم تقديم يسوع على أنه آدم الجديد، الذي جاء لإصلاح الخطأ الأصلي الذي ارتكبه الإنسان الأول وتسبب في الطرد (النفي!) من جنة عدن. يبدو أن الجنة تشير إلى حالة حاضرة يجب على المرء أن يعمل عليها للاستعداد للمستقبل: أي أداء الصلوات والحضور إلى الكنائس يوميًا إضافة إلى بقية الطقوس التي تشترك فيها المسيحية مع بقية الأديان. عندما يضع المسيحي نفسه في حضرة الله، فهو على يقين من الدخول إلى ملكوت الله.

ننقل هنا الإصحاح 24 من سفر متي: بدءًا من 23 إلى نهاية الإصحاح لأهميته فيما يتعلق باليوم الآخر: «حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَذَا الْمَسِيحُ هُنَا أو هُنَاكَ فَلاَ تُصَدِّقُوا. لأنه سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ. فَإِنْ قَالُوا لَكُمْ: هَا هُوَ فِي الْبَرِّيَّةِ فَلاَ تَخْرُجُوا! هَا هُوَ فِي الْمَخَادِعِ فَلاَ تُصَدِّقُوا! لأنه كَمَا أَنَّ الْبَرْقَ يَخْرُجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَيَظْهَرُ إِلى الْمَغَارِبِ هكَذَا يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الإنسان..... وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ. وَكَمَا كَانَتْ أَيَّامُ نُوحٍ كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الإنسان. لأنه كَمَا كَانُوا فِي الأَيَّامِ الَّتِي قَبْلَ الطُّوفَانِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ إلى الْيَوْمِ الَّذِي دَخَلَ

فِيهِ نُوحٌ الْفُلْكَ وَلَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ الطُّوفَانُ وَأَخَذَ الْجَمِيعَ كَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الإنسان. حِينَئِذٍ يَكُونُ اثْنَانِ فِي الْحَقْلِ يُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيُتْرَكُ الآخَرُ. اِثْنَتَانِ تَطْحَنَانِ عَلَى الرَّحَى تُؤْخَذُ الْوَاحِدَةُ وَتُتْرَكُ الأُخْرَى».

في سفر متي والمكتوب بلغة آخاذة، نعود إلى الحدث المهم الذي قسم التاريخ الإنساني إلى ما قبل الطوفان وما بعده

وعندما نتأمل مليًا في هذا الإصحاح من إنجيل متي وعندما نعود إلى الترجمة الفرنسية لنفس السفر نجد التالي: «لا تقوم مملكة الله بحركة أو إشارة خارجية؛ يجب عليكم أن تعلموا أن مملكة الله موجودة في داخلكم. لا تبحثوا عن الله في كل مكان إنه قريب منكم بل موجود في دواخلكم.

الجنة السماوية

تظهر الخطوط العريضة الأولى للتمييز بين الجنة الأرضية والجنة السماوية في سفر الرؤيا. يوضح يوحنا فكرة أن أي شخص خالٍ من الخطيئة، وبالتالي يعتبر ابنًا أو ابنة لله، سيكون قادرًا على العيش إلى الأبد في (أورشليم السماوية)».

كيف تقدم الأديان الموت؟ هل هي نهاية أم ممر؟ هل جنة الآخرة، مكان الراحة ومكافأة؟

تم تبني هذه الفكرة لاحقًا من قبل القديس أوغسطين (354-430) الذي ميز في كتابه المدينة السماوية (الذي اكتمل عام 426) بين (الجنة الأرضية) و(الجنة السماوية). وعلى حد قوله هناك مدينتان إحداهما أرضية والأخرى سماوية. كلتاهما متميزتان ومترابطتان؛ قد تكون المدينة السماوية موجودة هنا بالأسفل ولكنها في المنفى. بالنسبة لأوغسطين، فإن ملكوت الله ليس ذا نظام أرضي أو زمني، بل هو نظام روحي. في يوم القيامة، سيتم فصل الأبرار (المؤمنين) والأشرار (الوثنيين): الأول سيدخل ملكوت الله ويعيش في السعادة الأبدية؛ هذا الأخير سوف يحترق في النار الجهنمية.

وسيكون لفكر أوغسطين تأثيره في أكثر من جانب، أبرزها الإيمان بالعقاب الأبدي في الجحيم الذي سيصبح عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في القرون التالية.

من يستطيع الذهاب إلى الجنة؟

بحسب الأب إيف كومبو، لدى الجميع إمكانية الخلاص لأن كل من يبحث عن محبة الله سيجد السعادة وتحقيق هذه المحبة في الجنة.

كانت الجنة ولزمن طويل جنة أرضية في تصور كبار رجال الدين المسيحي حتى القرن السابع عشر. الجنة كانت تعني المكان الذي عاش فيه آدم وحواء بسعادة. ولم يخالجهم وعبر قرون طويلة من الكتابات المقدسة بدءًا من سفر التكوين العبري (8:2 - 17) الشك، بل هم على يقين من أنها وجدت في عدن[91].

هذه النظرة للجنة سنجدها في سفر حزقيال (28:1-14) على النحو التالي: «كُنْتَ فِي عَدْنٍ جَنَّةِ اللّهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سِتَارَتُكَ, عَقِيقٌ أَحْمَرُ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرُ وَعَقِيقٌ أَبْيَضُ وَزَبَرْجَدٌ وَجَزْعٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَزْرَقُ وَبَهْرَمَانٌ وَزُمُرُّدٌ وَذَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صِيغَةِ الْفُصُوصِ وَتَرْصِيعِهَا يَوْمَ خُلِقْتَ. أَنْتَ الْكَرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلِّلُ. وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ اللّهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمَشَّيْتَ».

في هذا السفر وفي هذه العبارات، نجد أن الجنة ذات طابع مادي ففيها أحجار كريمة وفيها ذهب.

إذا أخذنا قول جورج برناردشو في رده على أحد منتقديه (كل إنسان يبحث عن ما ينقصه)، نجد أن هذا القول ينطبق على حزقيال، فهو تعبير عن فقر الواقع وعن الأمل أن يجزي ياهو عباده بجنة فيها كل تلك الأحجار الثمينة والنادرة وفيها ذهب...

تلك الفترة الذهبية التي يطلق عليها جزافًا (السبي البابلي)، هي من منحت التوحيد بنيته وأيديولوجته ومخيلته، في ذلك القرن والذي يصادف السادس قبل التقويم المعاصر.

ففي رأي كل الباحثين الغربيين أن ذلك (السبي) كان نعمة اتت ثمارها عبر الثقافة، التعليم، والتطور الحضاري الذي كانت تعيشه تلك المدينة. وإذا اقتصرنا على جنة عدن التي وردت في العهد القديم، سنجد أن الجنة العبرية والتي بنيت على ضوء المكان والذي هو بابل حيث المياه عذبة تنساب بكرم

91- Jean Delumeau, Ibid.

ودون انقطاع، المياه هنا ظاهرة للعيان. على العكس من الجنة الإسلامية حيث تجري المياه تحت تلك الجنة، كما أن الجنة العبرية تماثلت مع ثقافة المكان واعتبرت الموسيقى جزءًا من متع تلك الأبدية على العكس تمامًا من الجنة الإسلامية، حيث لا وجود للموسيقى فيها.

هذه الجنة لها علاقة وثيقة بالثقافة البابلية، ففي أسطورة إنكي يبدأ النص بوصف السلام الذي يعم دلمون، حيث لا تتقاتل الحيوانات بينها، كما أن من يسكن في ذلك الحيز لن يصاب بأي مرض. في ذلك الحيز ومع كل ذلك هناك نقص في المياه العذبة، لذا يحصل الرب إنكي وهو كبير الآلهة السومرية من الرب أوتو (رب الشمس) على المياه اللازمة من أجل ديمومة بستانه المتخيل فبدون مياه عذبة لا يمكن أن تستقيم الحياة الأبدية.

كما أن ملحمة كلكامش تحوي ديكورًا سنجد أثرًا له في العهد القديم (جبل الأرز، جنائن الإلهة العجيبة، منابع الأنهار والعشب الذي يمنح الأبدية، إضافة إلى الأفعى).

كما أن لإيران الزرادشتية فضلًا في قيام الجنة العبرية حيث نجد الحديقة في أعلى جبل جيما jima، والتي تمثل العصر الذهبي حيث تنمو الأشجار الساحرة ولا سيما شجرة الحياة، حيث تصب مياه بسخاء تسمح لأن يتحول ذلك الحيز إلى خضار دائم.

في العالم الإغريقي الروماني، ارتبط مفهوم حديقة بمفهوم العصر الذهبي أو الجزر السعيدة. لقد تم اغتنامهما على نحو متبادل مما أدى إلى تقوية المخيلة التي بنت مفهوم الجنة. فالجنة الأرضية اعتبرت (أفضل مكان للعيش).

نصرنة الأساطير الإغريقية الرومانية.

رفض المسيحيون الأوائل الأساطير المتعلقة بالعصر الذهبي وجزر السعادة ولكن وبدءًا من القرن الثاني بدأت تلك الأساطير والحكايات تجد طريقًا لها فتم نصرنتها. إذ ينسب إلى القديس جوستين الشهيد (165+) تأكيده من أن هومير كان في مصر وكان على معرفة بأسفار موسى (قصة التوراة)، لا سيما تلك المتعلقة بخلق الكون وقام بترجمتها. لقد قال موسى: في البدء خلق الله السماء والأرض ومن ثم الشمس والقمر والنجوم، فقام هومير بتقليد موسى وذلك بتحويل

النص العبري إلى حكاية الإله الإغريقي ڤولكان Vulcain، إذ عبره عرض موضوع الخلق متمثلًا فوق درع أشيل، بل تحولت حديقة الكينوس Alkinoos ذات الطابع والمخيلة الإغريقية إلى جنة أرضية كما وردت في العهد القديم، حيث نجدها مليئة بالفواكه وبلا انقطاع وعلى طول السنة. فجنة موسى السومرية منقولة من أسطورة إنكي التي تطرقت لها ملحمة كلكامش [92]

في ذلك الفعل قام كبار الوثنين بتشريف رب موسى وذلك بإلباسه أثوابًا إغريقية وأية اثواب عندما نجد هومير يقوم بنفسه بترجمة تلك النصوص وتحويلها إلى التراث اليوناني....

الأرض كانت هي الجنة قبل خطأ آدم وحواء

يلعب ذلك الخلط بين العصر الذهبي الإغريقي -الروماني وجنة آدم وعبر مستويات عديدة أدورًا عظيمة في تبلور المفاهيم الماورائية المسيحية. ونجده في أعمال شعرية أخرى أدت إلى تأثر أجيال عديدة بتلك الثقافة.

بقى اليهود والمسيحيون يعتقدون ولأزمان طويلة من أن الجنة الأرضية حقيقة واقعة، ولعدة قرون. حيث اعتبرت المكان الذي يجب على الصالحين الانتظار فيه حتى يحين يوم القيامة

كان هناك رأي متفق عليه في القرون الأولى من ولادة المسيحية، يتمثل في أن المسيح وعلى ضوء العهد الذي قطعه إلى اللص الطيب من أن يقوم بفتح الجنة الأرضية التي أغلقت أبوابها منذ خطيئة السيد آدم. وقد كان القديس أثناس الكبير Athanase le Grand(+373)، على يقين من ذلك حيث يقول: «سيفتح لنا المسيح الجنة في المكان الذي طرد منه آدم، وبحضور اللص، حيث سيقول له المسيح، في هذا اليوم ستكون معي في الجنة» [93]

بل يذهب القديس جون كريوستوم Jean Chrysostome(+407)، ويطمئن جمهور المؤمنين «يفتح لنا الرب أبواب الجنة التي أغلقت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة».

92-Jean Delumeau: Une histoire du Paradis, P21.
93- P45.

الجنة الأرضية وجغرافية القرون الوسطى

في أثناء القرون الوسطى، كانت الإقامة الوسطى أو ما يطلق عليه إقامة انتظار يوم القيامة هي السائدة، إنما اختفت تدريجيًا من المخيال المسيحي. ولكن القناعة من أن جنة عدن لم تختف أبدًا بقت صامدة[94].

مفهوم الجنة الأرضية سبق ظهور المسيحية، ففي كتاب اليوبيلات (ويسمى أحيانًا سفر التكوين الصغير) وهو كتاب يحتوي على سفر التكوين والخروج. ويقسم أيام الشريعة وأحداث السنين والسنوات والأسابيع إلى يوبيلات العالم كما أوحيت إلى موسى بشكل سري على جبل سيناء....

وعند تتبعنا لما ورد في تلك الأدبيات فسنجد أن الجنة هي مركز العالم. لم تختف الجنة الأرضية بل أصبح الوصول إليها مستحيلًا، بل تقوم بتغذية أنهر العالم الأربعة. هكذا كان فهم الجغرافيين المسيحيين حيث وجد هذا التصور عند الإغريق واللاتينين.

تقع الجنة في الشرق وفي الشرق الأوسط حسب مصطلحاتنا المعاصرة. تُرجم مصطلح الجنة بعبارة بورتيس bortus، إنما في العهد القديم وردت على شكل حديقة عدن، وعندما تترجم إلى اللغات اللاتينية ,فتعني اللذة والبهجة والفرح وعند الجمع بين العبارتين bortus deliciarum، فتعني زراعة كل الأشجار المثمرة بالفواكه على نحو خاص. وتحتوي أيضًا شجرة الحياة، حيث يختفي كليًا البرد والحر ويكون الهواء معتدلًا جدًا. في هذه النقطة تتفق تلك الثقافات القديمة على اعتدال الجو في العصر الذهبي وفي جزر السعادة.[95].

الحديقة أو الجنة المثالية يجب أن تكون مغلقة في القرون الوسطى لأوروبا الغربية، على عكس جنة عدن التي كانت مفتوحة على بلدان عدن. لقد قامت تلك الفكرة على القراءة الكلاسيكية لنشيد الإنشاد (4،12)

94- Ibid,59- 97.

95- Ibid,64- 65.

النص العبري إلى حكاية الإله الإغريقي ڤولكان Vulcain، إذ عبره عرض موضوع الخلق متمثلًا فوق درع أشيل، بل تحولت حديقة الكينوس Alkinoos ذات الطابع والمخيلة الإغريقية إلى جنة أرضية كما وردت في العهد القديم، حيث نجدها مليئة بالفواكه وبلا انقطاع وعلى طول السنة. فجنة موسى السومرية منقولة من أسطورة إنكي التي تطرقت لها ملحمة كلكامش [92]

في ذلك الفعل قام كبار الوثنين بتشريف رب موسى وذلك بإلباسه أثوابًا إغريقية وأية اثواب عندما نجد هومير يقوم بنفسه بترجمة تلك النصوص وتحويلها إلى التراث اليوناني....

الأرض كانت هي الجنة قبل خطأ آدم وحواء

يلعب ذلك الخلط بين العصر الذهبي الإغريقي -الروماني وجنة آدم وعبر مستويات عديدة أدورًا عظيمة في تبلور المفاهيم الماورائية المسيحية. ونجده في أعمال شعرية أخرى أدت إلى تأثر أجيال عديدة بتلك الثقافة.

بقى اليهود والمسيحيون يعتقدون ولأزمان طويلة من أن الجنة الأرضية حقيقة واقعة، ولعدة قرون. حيث اعتبرت المكان الذي يجب على الصالحين الانتظار فيه حتى يحين يوم القيامة

كان هناك رأي متفق عليه في القرون الأولى من ولادة المسيحية، يتمثل في أن المسيح وعلى ضوء العهد الذي قطعه إلى اللص الطيب من أن يقوم بفتح الجنة الأرضية التي أغلقت أبوابها منذ خطيئة السيد آدم. وقد كان القديس أثناس الكبير Athanase le Grand(+373)، على يقين من ذلك حيث يقول: «سيفتح لنا المسيح الجنة في المكان الذي طرد منه آدم، وبحضور اللص، حيث سيقول له المسيح، في هذا اليوم ستكون معي في الجنة» [93]

بل يذهب القديس جون كريوستوم Jean Chrysostome(+407)، ويطمئن جمهور المؤمنين «يفتح لنا الرب أبواب الجنة التي أغلقت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة».

92-Jean Delumeau: Une histoire du Paradis, P21.
93- P45.

الجنة الأرضية وجغرافية القرون الوسطى

في أثناء القرون الوسطى، كانت الإقامة الوسطى أو ما يطلق عليه إقامة انتظار يوم القيامة هي السائدة، إنما اختفت تدريجيًا من المخيال المسيحي. ولكن القناعة من أن جنة عدن لم تختف أبدًا بقت صامدة[94].

مفهوم الجنة الأرضية سبق ظهور المسيحية، ففي كتاب اليوبيلات (ويسمى أحيانًا سفر التكوين الصغير) وهو كتاب يحتوي على سفر التكوين والخروج. ويقسم أيام الشريعة وأحداث السنين والسنوات والأسابيع إلى يوبيلات العالم كما أوحيت إلى موسى بشكل سري على جبل سيناء....

وعند تتبعنا لما ورد في تلك الأدبيات فسنجد أن الجنة هي مركز العالم. لم تختف الجنة الأرضية بل أصبح الوصول إليها مستحيلًا، بل تقوم بتغذية أنهر العالم الأربعة. هكذا كان فهم الجغرافيين المسيحيين حيث وجد هذا التصور عند الإغريق واللاتينين.

تقع الجنة في الشرق وفي الشرق الأوسط حسب مصطلحاتنا المعاصرة. تُرجم مصطلح الجنة بعبارة بورتيس bortus، إنما في العهد القديم وردت على شكل حديقة عدن، وعندما تترجم إلى اللغات اللاتينية فتعني اللذة والبهجة والفرح وعند الجمع بين العبارتين bortus deliciarum، فتعني زراعة كل الأشجار المثمرة بالفواكه على نحو خاص. وتحتوي أيضًا شجرة الحياة، حيث يختفي كليًا البرد والحر ويكون الهواء معتدلًا جدًا. في هذه النقطة تتفق تلك الثقافات القديمة على اعتدال الجو في العصر الذهبي وفي جزر السعادة.[95]

الحديقة أو الجنة المثالية يجب أن تكون مغلقة في القرون الوسطى لأوروبا الغربية، على عكس جنة عدن التي كانت مفتوحة على بلدان عدن. لقد قامت تلك الفكرة على القراءة الكلاسيكية لنشيد الإنشاد (4،12)

94- Ibid,59- 97.

95- Ibid,64- 65.

الإيمان بالعصر الألفي

يعني ذلك الإيمان بالعصر الألفي، الإيمان بقيام مملكة عبارة عن جنة أرضية ومرتبطة كمصطلح على نحو حميمي بمفهوم العصر الذهبي.

مفهوم الألفية لا يعود فقط إلى الأديان التي ترى في التاريخ حركة تسير باتجاه واحد، إنما نجده في العقائد والأديان التي تؤمن بتجدد الكون عبر النظام الزمني الدائري. هنا نجد أن نهاية الزمان دائرية على العكس من الأديان التوحيدية التي أخذت بالنظام السهمي للزمن

من الجدير بالملاحظة أن هناك علاقة بين حمى الألفيات والجماعات التي تمر بأزمات اجتماعية وعقائدية، ففي الغالب، أيديولوجيو هذه العقائد هم من جماعات شردت من مواطنها الأصلية واقتلعت جذورهم، وتم استعمارهم فهم وعبر أيديولوجي ألف عام من السعادة في بحث دؤوب عن عالم تسود فيه المساواة داخل جماعة من الجماعات باعتبارهم شعب الله المختار.

الاستيطان البشري للأوربيين (والذي شمل الميادين السياسية والاقتصادية والدينية في ميلانزيا في القرنين التاسع عشر والعشرين)، أثار عند جماعة پاپواسي PAPOUASIE، بروز أسطورة الكاركو والتي تقوم على حضور رجل يمثل القمر ويسمى بجون فرووم يحمل ثروات هائلة سيقوم بتوفير السعادة لتلك الجماعة ويمنحهم وعدًا بطرد ورمي الغزاة الأوربيين عبر البحر وينهي كليًا أعمال السخرة. هبوط ذلك الرجل الذي يمثل القمر يعني قرب حلول يوم الانتقام ويوم الأنقاذ والخلاص. وستكون هناك سفينة بخارية يقودها الأجداد تحمل بنادق لهؤلاء المسخرين ومواد غذائية لا نهاية لها. وصول السفينة يعني ولادة مملكة السعادة والمساواة. [96]

مفاهيم الخلاص والطوباوية الألفية تعبر عن مفهوم الانتظار. الوعد الألفي يعبز عن انقلاب في المفاهيم لا مثيل له فهو يعبر عن لحظة خلاص جماعية وشيكة الحضور بل سترى النور بعد قليل وهي غالبًا ما تصور الخلاص كنهاية لمعاناة طويلة، اعتبرت فترة كارثية في سرديات تلك الجماعة.

96- P.Worsley Le Culte du cargo, Elle sonnera la trompette, paris, fayard,1974.

العنف الألفي

في نهاية القرن الرابع عشر ومنتصف القرن السابع عشر، كان حضور التوقعات الأخروية فاعلًا في المسيحية اللاتينية. وتمكنت من اجتياز كل المرحلة التي نطلق عليها عصر النهضة، وهذا ما يقتضي تصحيح الفكرة التي تتردد كثيرًا أن إحداهما تخضع للتصور الأوغسطيني أي التصور الألفي لنهاية العالم وهي تعتبر نهاية العالم قريبة. هذا التصور يدخل في عالم الخوف أو أيديولوجية الخوف والتي تقوم على مفهوم المساومة والابتزاز. الثقافة المؤدلجة لتلك القرون تؤكد أن العالم شاخ واقتربت لحظة نهايته. بل حتى لوثر وشخصيات مهمة في الفكر المسيحي كانت تؤمن بتلك النظرة. في حين كان هناك اتجاه آخر يأخذ بمفهوم التناوب بين الألفيات السابقة، ذهبت إلى العكس من ذلك أي إلى تمتع الإنسانية بمستقبل مزدهر في المستقبل الأرضي.

هذا التوجه انقسم إلى عائلتين روحانيتين. الأولى تنزع إلى إقامة الجنة الأرضية عن طريق العنف في حين تذهب العائلة الفكرية الأخرى إلى الإيمان بقيام جنة الله فوق الأرض عن طريق السلام والمحبة الذي سيقود إلى جنة الألف عام.

مفهوما الألفية والتطور

من غير الدقيق تصورنا عن ابتعاد الطوباويات عن مفاهيم الألفيات (من ألف)، فهي مترسخة في الذهنية الغربية تلك الفكرة عن الأمل في العيش في سعادة فوق الأرض لكل (أبناء الإنسانية).

وفي الحقيقة فإن هذه الفكرة غنوصية في طبيعتها. العلاقة بين الألفية والتطور يأتي من الأمل في أن تتطور البشرية نحو الأفضل وذلك بناءً على مفهوم الزمن الخلاق وليس الزمن الدائري.[97]

في البداية نجد التأكيد الذي يعتبر جوهريًا في التفكير المسيحي من أن البشرية تسير نحو مفهوم الخلاص الأبدي. لذا ينظر إلى التاريخ بدءًا من تلك

97- **Encyclopédie universelle (PUF),1990, P2046, J. Delvaille, Essai sur l'histoire de l'idée de progrès jusqu'à la fin du XVIIIe, Paris 2010.**

اللحظة ليس كعودة أبدية على نفسه، بل كحركة متجهة نحو الكمال النهائي، بل الأكثر من هذا قيام القديس أوغطسين في كتابه (مدينة الله Cité de Dieu) بإيجاد مفهوم الزمن ما فوق الطبيعي.

أوغسطين الذي ولد في الجزائر عام (354) لم يجد في الزمن الأفقي ما يمثل سعادة حقيقية وأبدية فوق الأرض، فالحياة عبارة عن معركة بين الخير والشر. وجودنا في هذه الأرض محاط بفقدان الأمان وبالحذر في كل لحظة، ولن نجد الراحة والسلام إلا في العالم الآخر.

من يأخذ بمفهوم التطور سيجد صعوبة في التوفيق بينه وبين المبادئ المسيحية .فمفهوم التقدم والتطور مرتبط بمفهوم السعادة خلال قرنين من الزمان. وقد شهد القرن الثامن عشر قناعة متعاظمة بمفهوم التطور والتقدم عبر الزمن القادم (سأعود إلى هذا الموضوع في الملاحظات النهائية)..

يعتقد دافيد هيوم (1711 - 1776) من تقارب الفعل الإنساني عبر كل الجماعات وعبر كل العصور، فالكائن الإنساني، قام ومنذ زمن مبكر بتطويع المعادن التي منحتها له الطبيعة كمواد خام/ الإنسانية تتطور مع تطور أنماط الحياة ولنا أن نلاحظ بتطور أذواق وأخلاق الناس[98].

وكانت مساهمة آدم سمث في عام 1776 من أعظم المساهمات بعد مساهمة الفرنسي تيركو TURGOT، وعبر كتابه ثروة الأمم والذي اعتبر أهم ما كتب في القرن الثامن عشر[99]. يعتقد آدم سمث أن التنظيم الفاعل والذكي للاقتصاد وعبر كل المجتمعات التي يكون فيها الفرد قادرًا ومستعدًا لتحقيق طموحاته عبر تلك القوة الاندفاعية الكامنة فيه من أجل مصالحه الشخصية، سيؤدي إلى خلق السعادة الأرضية.

الله كما يزعم سمث يريد سعادة البشر ولكل فرد القدرة على تحسين شروط عيشه. إذا هناك تطور طبيعي للوصول إلى وضع أفضل.

التاريخ يعلمنا أن هناك صلة بين أفكار التطور التي جاء بها عصر الأنوار وبين تقسيم العمل، ذلك التقسيم ضاعف من حيوية التبادلات وهو من

98-Ibid, P463.

99- Ibid, P 493.

قاد الرغبة الجامحة إلى ابتكار المكائن وضاعف من التبادلات المالية، كما أن مضاعفة رأس المال ساهم في الازدهار العام... إلخ.

العصر الذي ارتبط بفلسفة الأنوار من الناحية الفلسفية هو نفسه الذي سمح من الناحية الاقتصادية بانتعاش الأفكار الرأسمالية والتي ستؤدي لاحقًا إلى الدمار الذي نشهده اليوم.

مرة أخرى يجد بعض المفكرين، أن هناك ترابطًا بين أفكار التقدم وبين السعادة. وقد عبر الفيلسوف آيمانويل كانط عن ذلك التطور المذهل الذي حصل في التاريخ الإنساني، ففي رأيه هناك خطيئة أولى وأساسية ولا يمكن تجنبها وتتمثل في اكتشاف الإنسان أن له القدرة على الاختيار. لذا أصبح وبدءًا من قناعته التي أوجدها العصر الراهن في حركة مستمرة لتطوير قابلياته وقدراته الكامنة فيه[100].

في نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، كان كبار المفكرين على يقين أن مفاهيم التقدم والتطور تقود إلى صناعة السعادة البشرية، على عكس من يؤمن بالألفية أن هناك سعادة أبدية في نهاية الطريق ولن تتحق إلا عن طريق العنف وهنا يقصد بالعنف القيامة.

إذًا وبناء على ما ذكرنا نتساءل عن العلاقة بين الطوباوية والألفية ومفهوم التقدم والتطور.. من دون شك أن التيار الغنوصي عبر أزمنة متعددة، بقي مصرًا على تحقيق السعادة الأبدية فوق الأرض وقد تكون على شكل روحاني أو بطريقة واقعية وذلك بتأكيده على خطأ آدم وحواء.

ملامح الحيز الأفقي ودوره في صناعة السعادة

مفهوم التقدم الذي بدت تتضح معالمه في القرن السابع عشر، أصبح واسع الانتشار في عصر الأنوار، بل أصبح يشار إليه في كل مكان في القرن التاسع عشر، وأخذ به كبار المفكرين ممن شيدوا الفلسفة والفكر الغربي. وهكذا أصبح الأمل بألف عام للعيش في مدينة لا يشيخ فيها المرء ودرجة حرارتها معتدلة طوال السنة، لا أمراض ولا شيخوخة، محركًا فاعلًا لهذه الحضارة

100- Jean Delumeau, Ibid, PP 314- 318.

الأفقية، وذلك بالجمع بين الجانب الديني والجانب العلماني. في هذا العصر وهو العصر الراهن الذي بدأ في القرن الثامن عشر، أصبح مفهوم المستقبل المشرق ممكن التحقيق فوق الأرض. أي هنا وليس في مدينة متخيلة، لا يتم الوصول إليها دون أقصى درجات العنف [101]

يقول جون ديلمو: هل سنصاب بالعجب إذا أدركنا أن ما حصل في الجزء الأول من القرن التاسع عشر تمثل باحتواء مفهوم التقدم عبر الثقافة المسيحية؟[102].

يخصص نفس الكاتب صفحات طويلة للربط بين المسيحية الألفية وبين مفاهيم التطور الأفقي. [103]

قام هذا الحيز على تهديم السماء دون المساس بالآخرة وبمفاهيم الجنة، لأنهما وبدءًا من هذه اللحظة سينفصلان عن بعضهما. فهوجمت السماء عبر المنهجية التي اقتحمت أبواب المقدس وأيضًا عبر المفهوم الذي ساد بدءًا من القرن الثامن عشر الذي يؤكد على سيادة الإنسان أولًا وما قام به كوبرنيك وجاليلو وكل من أتى بعدهما أثبتوا أن السماء ليست قبة وليست منزلًا.

مفهوم الجنة في الحيز الأفقي

شهدت مفاهيم العالم الآخر تحولات مهمة عبر تاريخها الطويل من روما أولًا ومن ثم في الثقافات الأوربية لاحقًا لاتينية أم لا.

كما نعلم من أهم خصائص الحيز الأفقي، قيام مفاهيم الحرية والرغبة والإرادة وتسّيد الإنسان فوق الأرض. ما سمح لأفكار الحرية والإرادة أن تشق طريقها في هذا الحيز تمثل بفصل الدين عن الدولة بما يطلق عليه عربيًا (العلمّانية: من عالَم).

في كتابه (ماذا تبقى من الجنة) يذهب جون دليمو وهو المؤمن والمؤرخ الكبير للعصور الوسطى إلى أن «الأدب والتمثيل عبر الأيقونات في العالم المسيحي كان لهما دور مهم، فلم ينتظر العصر الباروكي (1600-1750)، حتى يشيد ويمجد

101- J. Delumeau, Ibid, P 331- 332.

102- Ibid.

103- Ibid, PP331 – 429.

ما ورد في سفر مانويل وسفر القيامة والمملكة المقدسة و(عرش المجد) حيث سيقيم ابن الله عندما تقوم القيامة كما يطلق عليه في الأدبيات، أي يوم الحساب الأخير في المسيحية. ولكن ومع عصر النهضة والذي شهد ثورات علمية وفكرية وسياسية وفنية في أوروبا في بداية القرن الخامس عشر وإلى بداية القرن السابع عشر، حيث تمت العودة إلى التراث الإغريقي والروماني، ومع ظهر قوة الملكيات في أوروبا تم اللجوء إلى مصطلح (مجد) ومن خلال عملية التمثيل والتخيل. أصبح مألوفًا في ثقافة وأدب تلك الفترة الركون إلى مصطلح قوة مقدسة ومملكة أرضية. هذا التوجه أدى بدورة إلى الخلط بين المفهومين »[104].

النصوص الروحانية في تلك الفترة تشير إلى التأثر المصطلحي بالأيديولوجية الملكية، فالقديسة تيريز دافيلا تتكلم: «عن جلالة فوق العادة للسيد المسيح، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فأطلقت على الرب لقب الملك، المهيمن، الحكيم الغني والمالك لكل شيء»[105]

وعلى ضوء ما كتب هذا العارف جون دوليمو، نجد أن ثقافة المكان كان لها الدور الحاسم في التمثيل والتخيل وحياكة المفاهيم. لذا أصبحت مصطلحات الملكية حاضرة في آداب القرن السابع عشر حيث نجد (السماء التي تحمي ملك الأرض. بل أصبح هذا الأدب الذي يربط بين مملكة السماء ومملكة الأرض غنيًا وواسع الانتشار، فقامت المملكة الأرضية بالاستحواذ على المخيلة والرموز والإشارات التي حملتها اللغة الدينية، ومنحت تلك الثقافة وتلك اللغة القوة والعظمة للملكة الأرضية)[106].

الملك الفرنسي الشهير لويس الرابع عشر، أخذ بتلك المقولات فأصبح يومه في قصر فيرساي مرتبط بالشمس، فسار اليوم الملكي على ضوء رحلة الشمس ونتائج تلك الرحلة اليومية، حيث يهيمن الملك عبر الشمس التي تنير كل شيء على مملكته.

واعتبر البلاط الملكي مُعّبرا عن الإرادة الكونية. فكما هو الوضع في الجنة

104- Jean Delumeau: Que reste -t-il du paradis, paris , Fayard,2000, P346.
105- Ibid.
106- Ibid.

حيث يتساوى في المقام من اختارهم الرب، قصر فيرساي مثّل تطابقًا مع الإرادة الربانية . إذ ربطت تلك الأيديولوجية بين الإرادة السماوية وإرادة ملك فرنسا لويس الرابع عشر. فلكي يتمتع أحد أفراد الحاشية بعطف وحظوة الملك، وذلك بالسماح له في الدخول إلى قلب قصر فيرساي من الصباح وحتى غياب الشمس، يجب أن يبدي كل آيات الطاعة لكي يكون برفقة جلالته [107].

ليس هناك في التاريخ المسيحي قصرٌ بهذه السعة كفرساي حيث تبلغ مساحة واجهته 670 متر. لم يكن لويس الرابع عشر وحيدًا، بل ينطبق هذا الأمر على كل ملوك أوروبا ولا سيما شارلمان.

وإذا تأملنا جيدًا فسنجد أن هؤلاء الملوك يأخذون مكان الله في الحيز الذهبي من السماء.

ما كانت تنزع إليه تلك الثقافة التي سادت في عصر النهضة هو ربط سماء متخيلة بالأرض التي يحكمها الملوك المسيحيون في أوروبا، بل تم الربط بين مملكة السماء ومملكة الأرض.

عصر النهضة والباروك لجَأ إلى الآلهة الأولمبية من أجل تمجيد الملوك في أوروبا. تلك الثقافة أدت إلى الربط بين مجد الملوك وبين السماء الأسطورية التي عبرت عنها كتاباتهم. الرسومات الإيطالية والهولندية كشفت عن تلك التحولات في الثقافة الغربية.

من الملاحظ أن الجنة البروتستانتية تميزت بالاعتدال واختلفت كليًا عن الثقافة المسيحية السابقة. فالبنسبة إلى لوثر فإن التجديد المتخيل إلى نهاية العالم يعني كل البشر.

فنجد آثار تلك المقولة المهمة في ما ورد من كتابات بروتستانتية إبان تلك الفترة، ما ورد عن لوثر حيث نجده يقول: «وفي نفس الوقت يسمح الرب لكل البشر وليس نحن فقط عندما يبعثون مجددًا ويخضعون للمساءلة عن غرورهم وآثامهم. بعد تلك المحاسبة من قبل الرب سيتحررون من الآثام والخطايا وسيدخلون في المجد»[108].

107- Ibid, P347.

108- M. Lienhard, Au cœur de la fois de Luther, Paris ,1991, p298.

في كتاباته عن نهاية العالم، نجد أن لوثر أسهب عند الكلام عن يوم الحساب والعودة المجيدة للمسيح، إنما كان حذرًا في تناوله لتفاصيل الحياة الأبدية، إذ يقول في أهم كتبه: «حتى الأطفال وعندما يكونون في أحشاء أمهاتهم لا يتذكرون ما حصل لهم قبل ولادتهم، لذا فمعرفتنا بالآخرة ضئيلة جدًا»[109]. كما أظهر حذرا عند الكلام عن السموات العليا ولم يعطِ رأيًا عن المياه التي تعلو السموات وتقوم بمهمة ترطيب الأجواء في السموات التي تحتها.

القرون الأخيرة للسماء المقدسة

في الفصل القادم سنتناول النمو التدريجي للعلمانية والتطور العلمي كالسيل الجارف الذي لا يمكن إيقاف جريانه. إنما سنتوقف هنا كما يذهب دوليمو (والكلام دائمًا له) حتى نفهم تفاصيل الدعوة التي رُفِعت ضد جاليلو ولكي نتأكد مرة أخرى من إن الإيمان بسماء مقدسة وبثقافة الجنة والنار كانت جبارة في قوتها وفي رسوخها في أوروبا الغربية بالذات.

لا نجد ضرورة للتأكيد من الحضور الفعّال لتلك السماء في الثيولوجيا الدينية وفي علم الفلك. فذاك العلم لا يقوم على التجربة والبرهان بل يبرر تفسيراته للكون عبر التفسيرات التي تعود لآلاف السنين.

هذا العلم الدوغماتي لا يلقي أسلحته بسهولة أمام البراهين العلمية والحسابات والرصد الجوي. هناك أسماء كثيرة ساهمت بشكل أو آخر في تقدم المعارف فيما يتعلق بالأنواء الجوية ورصد السماء وأهمها بطبيعة الحال ما قام به كوبرنيك.

الفيلسوف والأخلاقي جون دو سيلون Jean de Silhon، سكرتير رئيس الوزراء رشيليو، اعترف بالنظام الكوبرنيكي، إنما كان يصر على البقاء على النظام القديم الذي وجد في الكتاب المقدس وهو لم يكن وحيدًا في هذا الأمر [110].

وعندما نعود إلى تعريف السماء الذي ورد في قاموس الاكاديمية الفرنسية عام (1694) أي نهاية القرن السابع عشر نجد التالي: «الجزء العلوي من

109- Jean Delumeau: Que reste -t-il du paradis,P373.

110- Ibid, P477.

العالم، الذي يحيط بكل الأشياء حيث تتحرك النجوم. شموس السماء وسماء القمر وسماء المريخ وسموات الكواكب، السماء المقدسة، السماء الصافية، السماء المشمسة...). وتعني أيضًا مقام السعداء (أي من أنعم الله وأدخلهم الجنة)، والمكان الذي توجد فيه الجنة، حيث يقيم ربنا المسيح...[111]

عندما نعود إلى ثقافة تلك المرحلة نجد أن عددًا لا يستهان به من كبار المتعلمين في القرون الوسطى كتب في موضوع الفلك والسماء، بل عبّر بعضهم عن خروجه الخجول من النظرة البطلمية التي تقول إن الأرض المركز المداري لجميع الأجرام السماوية. وكما نعلم فإن هذا النموذج في النظرة إلى الكون لم يكن سائدًا في اليونان القديمة وروما لاحقًا، بل نجده جليًا عند الفلكيين البابليين حتى يمكننا أن نعتبرهم الموجدين لهذا النظام الكوني والذي قام على يقين من أن الشمس والقمر والكواكب السيارة التي ترى بالعين المجردة تدور حول الأرض. نظرة القرون الوسطى الأوربية إلى الكون مستمدة من كتابات أرسطو وبطليموس[112].

الموضوعية تقتضي الإشارة إلى كوبرنيكوس الراهب وعالم الرياضيات والفيلسوف والفلكي البولندي المولد في عام 1543، فهو أول من صاغ نظرية مركزية الشمس واعتبر الأرض جرمًا يدور في فلكها. ويعد مؤسس علم الفلك الحديث وقام بَحْث علماء ومثقفي عصره على تحدي القوانين السائدة وتقديم العلم على العقائد الدوغماتية.

ما قام به يعتبر فتحًا تمكن من زعزعة الجمود العقائدي الذي كان سيد ذلك العصر، فأدى إلى انهياره وبدون رجعة، إذ أتت نظريته فاعتبرت تلك العقائد غير قابلة للإصلاح. بمعنى آخر نتائج نظرية كوبرنيكوس تخطت الفلك لتؤثر في الدين والسياسة والثقافة لا في أوروبا فحسب في العالم أجمع. أدت نظرية كوبرنيكوس إلى إسدال الستار على نظرية أرسطو وبطليموس التي استمرت لعشرين قرنًا وأصبحت جزءًا من المعتقدات المسيحية المتعلقة

111- Dictionnaire de l'Académie française,1694, article « ciel », et aussi jean Delumeau, Ibid, P392.

112- Russell M. Lawson, Science in the Ancient World: An Encyclopedia, ABC-CLIO ,2004.

بالكون لمدة 12 قرن، حيث اعتبر مجرد التشكيك بها كفرًا.

وعند التأمل في نظرية كوبرنيكوس، نجد أنه لم يخصص أي دور حيوي للشمس. ولم يقترح نظامًا شمسيًا. لم تكن الشمس بالنسبة له في موضع مركزي في المدارات الدائرية وكل كوكب يتواجد بعيدًا عن المركز مما يصعب مراقبته[113].

ولم تهدأ الاعتراضات على أطروحات كوبرنيك علمًا أنه الرائد الأول في زرع بذور الشك في الأيديولوجية الدوغماتية، فأدلى المفكر الفرنسي پاسكال بدلوه واعتبر مع صغر سنه (عاش 39 سنة، إذ توفي في عام 1662) من أن الكون غير مغلق. على عكس الفلكيين المسيحيين ممن سار على درب بطليموس، أعتبره حيزًا غير محدد حيث يوجد المركز في كل مكان ولا مكان للمحيط[114].

هجوم على نظرية مركزية الشمس

هل ولّد جاليليو الخوف في قلب الكنيسة الرومانية لأنه اتخذ موقفًا مؤيدًا لمركزية الشمس، أم لأن القنبلة الذرية التي تختفي وراء بعض نظرياته تهدد بانهيار العقيدة الكاثوليكية؟[115]

الفرضية أو التساؤل الثاني والذي شق طريقه يتمثل بمحاكمة جاليليو في عام 1633 ومع التعاطف الخفي من أصدقائه (ومن ضمنهم البابا أيربان الثامن Urbain VIII) نجا بأعجوبة من موت مؤكد في تلك المحاكمة التي أوجدت أعذارًا لجاليلو. ويبدو أن رجال الدين اليسوعيين دقوا نافوس الخطر من النتائج المحتملة لنظرية جاليليو من أنها ستنسف العقيدة القائمة وتتلاعب بجوهر الإيمان. وهكذا لم يكن جاليليو الأول بل سبقه كوبرنيك وكبلر في تغليب العلم والعقل على الدوغماتية الدينية. فقد أحدث هؤلاء الثلاثة زلزلًا وهزة أرضية لم تشهدها الأرض سابقًا على مستوى التفكير والتأمل. هذا الانقطاع الثقافي أثر على الأسس الأكثر يقينية في علم الفلك والفيزياء

113- Jean- pierre Luminet : le Secret de Copernic, Librairie Générale Française,2008, pp 45- 77.

114- LES PROVINCIALES PENSEES DE PASCAL 1967 EDITION, Lausanne,, n°161.

115- Jean Delumeau : Que reste -t-il du paradis, P396.

التي صمدت لأكثر من عشرين قرنًا وهنا أقصد من اللحظة الأرسطية، حيث ربط الفكر المسيحي في القرون الوسطى بين السماء التي تخيلها وكتب عنها أرسطو وبطليموس وهي نفس السماء التي كتب عنها البابليون وقبلهم السومريون والمصريون وكل حضارات هذا الشرق القديم. الفكر المسيحي جعل منها مقر الله ومقر السيد المسيح. هذه السماء التي بنيت خلال12 قرنًا، أصبحت حكاية مسلية خلال قرنين بعد جاليلو.

في تلك المحاكمة قرر القضاة إدانة مركزية الشمس والتأكيد على أن الأرض هي المركز الكوني. فما جاء في نظرية جاليليو باطل واعتبر ما ورد في كتابات كوبرنيك مجرد افتراضات. وأنذرت الكنيسة وعلى رأسها البابا، جاليلو من العودة إلى تلك الأطروحات (الباطلة).

في تلك المحاكمة وهي بطبيعتها محكمة تفتيش في عام 1633، وبفضل الصداقة القديمة بين جاليليو والبابا، اعتبرت كتابات جاليليو الفكلية حوارات مع ذاته. واعتبرت تلك المحكمة فكرة مركزية الشمس هرطقة.

محاكمة جاليلو لم تتوقف واستمرت حتى بعد رحيله من هذا العالم ولنفس الأسباب، عندما واجهت الكنيسة الكاثوليكية، اكتشافات بيفون **Buffon**، عن عمر الأرض ومن ثم البراهين التي لم تنفك بالتكاثر عن مفاهيم التطور.

سيكون من الخطأ الفادح أن نرى الأشياء التي تمت في الماضي بعيوننا المعاصرة، ذلك أن عددًا من العقول النيرة في القرن السابع عشر انتقدت بشدة إكراه المسيحين على قراءة الكتاب المقدس قراءة حرفية ومن ضمنهم جاليليو نفسه الذي دعا إلى الكف عن قراءة الكتاب المقدس قراءة حرفية.

عدد كبير من كبار المتعلمين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ساهموا في الحوار الذي قاده مؤمنون (كوبرنيك كليبر وجاليليو)، حيث توصلوا في بحوثهم إلى الخروج من الفهم الأرسطي والبطلمي للكون، بيد أنني وجدت أن ضرورات البحث لا تسمح بسرد كل ما جرى في تلك القرون، بل الإشارة إلى نتائج تلك الطفرة التي ساهمت بخلق العالم المعاصر.

السماء تتغير

وقوف الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها روما بحزم ضد علم الفلك الجديد يعود إلى أن الفهم الأرسطي والبطلمي يتفق كليًا مع ما ورد في الكتاب المقدس، وأيضًا لأن، الفهم الإغريقي القديم مقنع ومتماسك، بل شديد التماسك ويحدد مكان الجنة على ضوء جغرافية العالم القديم.

هذه الثقافة الجغرافية والفلكية التي استمرت تمارس نشاطها الدوغماتي لأكثر من 12 قرنًا، انهارت في غضون قرنين!

قام كوبرنيك باستبدال الشمس بدلًا من الأرض كمركز للعالم، إنما لم يمس النظرية التي تقول إن السماء مركز الكواكب المتجانسة. ولكي نفهم ما يقصده كوبرنيك، لا نمتلك إلا العودة إلى النظام القديم (أرسطو – بوتليموس)، حيث نجد أن النجوم ثابتة والسماء الثامنة تتسيد على كل السموات الأخرى التي تضمها. السماء الثامنة في حركة بما يطلق عليه أرسطو (المحرك الأول)[116]

هذا المحرك ثابت ولا يتحرك إنما ينقل الحركة إلى الأجواء التي توجد تحته، أي إلى النجوم والكواكب المثبتة على نفسها.

تلك الحركات بمنتهى الدقة، أي دائرية وموحدة، وفي حركتها تلك لا تسرع ولا تبطئ. الأرض المحاطة بالمياه والهواء والنار لا يمكنها أن تكون إلا مركزًا لهذا العالم الثابت.

المفهوم القديم للعالم جمع في نفس المنهج النظام الفيزيائي والنظام الروحي. وذلك يعني ما قلناه سابقًا في كتابنا (نقد العقل الدائري)، تقسيم العالم على ضوء مفاهيم أساسية (فوق - تحت، يمين -يسار، شرق- غرب..... إلخ)[117]

تصور الجحيم في عمق الأرض أوجده السومريون، إنما منطق الأشياء اقتضى أن تتبنى الثقافة الإغريقية والرومانية ومن ثم المسيحية هذا المفهوم دون أن تكون هناك علاقة مباشرة إلا على ضوء العهد القديم الذي تسربت ثقافة بلاد الرافدين في كل شرايينه.

116- C.S. LEWIS: The Discarded Image, Cambridge University Press,1967, PP 92- 121.

117- فالح مهدي، نقد العقل الدائري، الطبعة الثانية مكتبة النهضة العربية، بغداد، 2017.

الجحيم في أعماق الأرض والجنة في السماء.

في الكوميديا الإلهية، أوجد دانتي رحلة فلكية قامت بانتشال المسافرين ممن انتقاهم ربهم ومن ضمنهم مؤلف الكوميديا الإلهية من تحت إلى فوق، من الدناسة إلى الرفعة. ونجد أثرًا لذلك في اعترافات القديس أوغسطين وكذلك حلم يعقوب (وَرَأَى حُلْمًا وَإِذَا سُلَّمٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ وَهُوَذَا مَلاَئِكَةُ اللهِ صَاعِدَةٌ وَنَازِلَةٌ عَلَيْهَا) (28:12) كما أن كتاب الموتى المصري يقدم لنا مادة مهمة عن مفاهيم العالم القديم عبر (فوق: سماء، وتحت: أرض)

تحطيم العمودية

كما لاحظنا، أحدثت تلك الثورة العلمية انقلابًا في المفاهيم ومن أهمها في موضوعنا هذا، تمثل بانهيار العمودية والتضاد بين الجنة والنار وبين المفاهيم التقليدية عن الفساد والكفر والإيمان.

ورثت القرون الوسطى المفاهيم التي جاءت في كتابات أفلاطون وأرسطو ما بين العالم عالم زائل وبعيد بطبيعته عن الكمال والفكرة التي تدعي أن الأجساد مكونة من عوامل فاسدة.

أما بقية الكون فهو موضع إجلال، وينظر إليه باعتباره ممثلًا للكمال... إلخ تلك الأفكار المعبرة عن الحيز الدائري. ما يميز عالم القرون الوسطى ليس في أوروبا المسيحية فحسب، في كل العالم، هو سيادة اليقين فيما يتعلق بمفاهيم الكون وأن الجنة مقامها في السماء. كما أنها مقر الله.

هذه المفاهيم وجدناها عند المصريين والعراقيين القدماء، بل كل ثقافة العالم القديم قائمة على تلك المفاهيم. وتتكرر دون هوادة العناصر الأربعة المكونة للعالم: التراب والماء والهواء والنار حيث تشكل فيما بينها عالمًا قابلًا للزوال، في حين هناك في الأجواء التي اعتبرت خارج الأرض عنصر خامس يطلق عليه (جوهر)، عنصر أثيري، مادي بكل تأكيد، ولكنه فريد في نوعه وشديد النقاء.

هذا الفهم للكون أصبح عقيدة وفي وعينا ونظرتنا أصبح جدارًا وقفلًا لا يسمح لنا برؤية الأشياء كما هي.

تلك النظرة، بل تلك العقائد تحكمت في كل سلوكيات المسيحيين لمدة

12قرنًا ولم تهزم إلا مع التطور الفلكي المذهل الذي قاده رجال مؤمنون!

وبفضل التلسكوب الذي طوره جاليليو بنفسه توصل إلى نتائج باهرة حتى إن أينشتاين اعتبره أبا العلم الحديث، بل اعتبر ستيفن هوكنغ أن مولد العلم الحديث ربما يعود إلى جاليلو أكثر من أي شخص آخر. أهم ما يميزه هو اتباعه الطرق التجريبية في البحوث العلمية. فقد أكد أن الأرض كوكب صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب. فمن خلال التلسكوب الذي طوره توصل وعلى نحو متواتر إلى معرفة خصائص القمر بعد أن كان ينظر إليه كجسم مسطح. واكتشف البقع الشمسية وعدد لا يحصى من النجوم، وإن لكوكب المشتري أقمار ورأى في الطريق اللبني (أو درب التبانة) ليس مجرد سحابة من الضوء إنما يتكون من عدد هائل من النجوم... إلخ. لقد توصل من خلال بحوثه إلى أن الأرض كوكب صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب.

تمكن في كتابه حول النظامين العظيمين لهذا العالم، والذي عرّضه لتلك المحاكمة من الإتيان بمادة تستند على براهين عارض فيها أرسطو والنظام الفلكي القديم [118]

في هذا الكتاب يقول جاليليو: «وبفضل التلسكوب أصبحنا من ثلاثين إلى أربعين مرة أكثر قربًا من السماء مما جاء في كتابات أرسطو، ويمكننا ملاحظة مئات الأشياء لم يكن بمقدور أرسطو مشاهدتها وملاحظتها ولم يكن متاحًا له من ضمن أشياء أخرى معرفة البقع الشمسية حيث كانت مخفية كليًا عن ناظريه.. ويمكننا القول وعلى نحو يقيني أن البقع الشمسية تولد وتختفي...»[119]

انحسار اليقينيات

أدى علم الفلك الجديد إلى حدوث هزة معرفية فريدة من نوعها ولم تحصل هزة معرفية كما حصل مع معطيات ما توصل إليه علم الفلك المعاصر. الهزة الأرضية نتائجها محدودة مع الخراب الذي تتركه خلفها، في حين أدت هذه الهزة إلى أن تفقد السماء قدسيتها. فحتى مع كوبرنيك (وهو البادئ بل

118 Galilée, Dialogue sur les deux grands systèmes Paris , seuil,1992 P7.
119 Delumeau, Ibid, p 415.

مؤسس علم الفلك الحديث) ولا سيما من جاء بعده ولا سيما جاليلو انتهت مفاهيم (فوق تحت) في النظرة إلى الكون وأخرجت السماء من يقينية الجنة والنار، والمجالات الشفافة ذات الطابع المقدس التي تتحرك بفضل الملائكة. علماء الفلك في العصر الراهن قللوا من شأن الأرض ورفعوا عنها كل الأدبيات المتعلقة بعظمتها باعتبارها مركز الكون!

ففي كل الأدبيات القديمة وليس المسيحية فحسب، الكون كله يُسبّح بمجد الأرض! الكون كله في خدمتها. فولادة المسيح وصعوده إلى السماء تم في مركز الكون أي هذه الأرض. أدت تلك الثورة العلمية إلى تتفيه (من تفاهة) الأرض واعتبارها كنقطة ممعنة في الصغر في هذا الكون الشاسع.

هذه المعرفة العلمية وضعت حجر الزاوية في معتقداتنا والتي هي بطبيعتها ذات طابع يقيني، اعتمادًا على الفيزياء النوعية وعلى الحركة والفراغ.

على ضوء العلوم القديمة الأرض ثابتة، وحسب ما جاء في كتابات أرسطو ليس في العالم السماوي إلا حركة دائرية منتظمة وموحدة. تلك الحركة التي قال بها أرسطو أصبحت من المسلمات في الثقافة المسيحية في القرون الوسطى.

الفيزياء الجديدة قامت بإعادة تركيب فهمنا لمفهومي الحركة والاسترخاء اللذين وردا في علوم الفلك القديم. الحركة أصبحت من الآن فصاعدًا معبرة عن معادلة رياضية، في حين اختفى كليًا مفهوم الاسترخاء الذي قامت عليه الأيدلوجية المقدسة، وتبخرت أهدافه ووظائفه.

بل الأهم من ذلك اختفى مفهوم الخوف من الفراغ. غياب الفراغ في الكون جزء من الفهم الأرسطي. لا وجود للفراغ في النظرة القديمة للكون. جاليليو في كتابه خطب وعروض رياضية الذي طبع في ليدن عام 1638 وقف بحزم وانتقد بشدة ذلك التطّير والخوف من الفراغ[120].

وليس صدفة أن تلميذ جاليليو، توريسلي Torricelli، أقام تجربة في فلورنسا في عام 1643 وربط بين الفراغ والجاذبية. مفهوم الفراغ مرتبط كليًا بمفموم الجاذبية الجوية [121]

120- Ibid, PP418420-.

121- Pietro Redondi, Galilée hérétique, Paris, Gallimard, 1985, pp 123- 325.

تلك التجربة فتحت الأبواب لتعميم المفهوم القائم على أن الجاذبية عامل مهم لتفسير الكون.

بعض اليسوعيين ممن أدان جاليليو وجدوا أنفسهم من جديد في حالة تعبئة ضد مفهوم الفراغ، ما جاء به نيوتن وهو عالم مؤمن نسف جهود كبار رجال الدين. فقد أتى بمفهوم الجاذبية الكونية والذي يجدد الجاذبية الأرضية، إضافة إلى دراسته الأخرى عن الضوء التي لا مجال للتوسع بها هنا إنما كان النور والضوء حتى تلك اللحظة علامة من علامات القداسة الربانية، فأصبح مادة للبحث والتجريب.

لقد أدت تلك الاكتشافات والبحوث الجريئة للقول وحتى في القرن الخامس عشر من إمكانية وجود عوالم أخرى خارج الأرض وأن هناك كائنات إن لم تكن موازية لنا في الذكاء فقد تكون أكثر ذكاءً.

رفض جاليليو هذه الفرضية، في حين سمح النظام الذي أوجده كوبرنيك بافتراض وجود كائنات فوق سطح القمر، بل كان هذا السؤال المتعلق بوجود كائنات أخرى في هذا الكون، موضوع بحث في انسكلوبيديا ديدرو. فتحت عنوان لأجد التالي: «النظام الذي شيده كوبرنيك وجاليليو وديكارت، لم يقم فقط بتدمير الفرضيات القديمة البلطمية حول بنيوية هذا العالم، إنما الأكثر من هذا وضع مكان السعادة والتي نطلق عليه على نحو مبتذل (جنة).... في مكان آخر. ما ورد في الانسكلوبيديا فتح الباب للكنيسة الكاثوليكية لكي تنشر في عام 1992 مع البابا بولص الثاني «من يكون في السموات؟ هذا التعبير لا يعبر عن مكان محدد في الوجود»[122]

يقصد من هذا ،أن الرب في السموات، ذلك الدعاء الذي يردده الكاثلوليك يحتوي على اليقين أن الله في السموات، ليس من المسلمات[123].

تلك الثورة الثقافية أدت وعلى حد تعبير عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر إلى ما أطلق عليه حزن هذا العالم، حيث انسحب المقدس بكل حكايته

---

122 Catéchisme de l'Église catholique, Paris, Mame /Plon, 1992, p566 (n°2794).

123- Catholique.org. 1er décembre 2021.

الجميلة وذات الألوان البراقة، تدريجيًا من هذا العالم وترك الساحة للعلم والتجارب الميدانية.

ومع ولادة نظرية التطور التي جاء بها دارون، أصبح خلق العالم في ستة أيام والقراءة الحرفية لكل ما يتعلق بجنة عدن مجرد حكايات للتسلية.

بل إن لحظة مهمة في تاريخ الحساسية الدينية الكاثوليكية قد بدأت ولا يمكن لأي كائن أن يتصور الجنة كما تم تصورها خلال 1500 عام.

ما تم تصوره من قبل فيبر من حزن العالم بسبب الخروج من الأوهام في غاية الأهمية. لم يتوقف الأمر هناك، فقد أضاف رودولف بيلتمان (الخروج من الأساطير) Démythologisation أو العالم المنزوع من الأساطير، مادة جديدة. بل يذهب بيلتمان إلى اعتبار مفهوم الأمل بالذهاب إلى الجنة مرتبطًا بالمفاهيم القديمة التي أتينا على ذكرها وأن السماء مركز النور، أي بما أطلقت عليه الجغرافية الفلكية القائمة على فوق - تحت. بل يذهب هذا الباحث إلى القول إن من الهراء الكلام عن فوق وتحت في عالم الكون. عودة المسيح فوق السحب طريقة في التمثل والتخيل لا يمكننا الأخذ بها [124]

الحلم بالجنة الأرضية

تلك النظرة وذلك الفهم قاد إلى الانفصال وإلى تلك الحرب الدموية بين الكاثوليك والبرتستانت. يعتقد كبار المؤرخين والباحثين أن النظرة البروتستانتية إلى موضوع الجنة والنعيم هي من قادة كبار المفكرين ممن تشبع بالثقافة البروتستانتية وأولهم ماركس وأنجلز إلى البحث عن الجنة الأرضية.

ومن علم اللاهوت الذي أوجدته البروتستانتية، خرج مفهوم السعادة الفردوسية حيث يكون مركزها الأول والأخير: الجمال (حيث تركز على الرؤية الجميلة). فحسب المفاهيم التي جاء بها كالفن ولوثر، ليس للنخب الدينية أي وظيفة عدا النظر إلى الله وجهًا لوجه. فكل رغباتهم تحققت عبر وجودهم في حضرة الرب. بل الأهم أن تختفي التراتبية وكل أشكال السلطات

124- R. Bultmann, Foi et compréhension, t 2 Paris, seuil, 1969 pp.103- 106.
وعليك بهذه القائمة المهمة عن الجنة التي ستجدها في مصادر الكتاب.

في السماء، بما فيها الزواج الذي يتطلب خضوع المرأة لزوجها.

تلك المقولات المكتوبة بلغة جرمنية صارمة والمتحورة حول مفهوم السعادة في العالم الآخر تتطابق مع أدبيات القرون الوسطى. من فقد أحباءه في هذه الأرض سيجدهم في السماء وسيجتمع شمل العوائل مجددًا، ومن فرّقهم الطاعون في القرن السادس عشر سيجتمع شملهم مجددًا[125]

تلك الأدبيات دفعت بالباحث الفرنسي فيليب أيرس إلى اعتبار تلك الكتابات (ثورة في عالم العواطف[126]).

الكتابات البروتسانية المؤسسة أدت إلى قيام ثقافة وأدب استلهمت عددًا من الكتاب، كما يمكننا أن نجد ذلك عند جان جاك روسو في روايته التي نالت شهرة واسعة عند نشرها (هيلواس الجديدة La Nouvelle Héloise) ثم وجد نفس المنهج عند عدد كبير من كتاب القرن الثامن والتاسع عشر بمن فيهم جوته. هذا الأدب يؤكد على مسألة الحب. وقد أطلق عليه الرومانسية الحزينة.

تلك الكتابات أدت إلى قيام أدب التذكر، بل تحول عيد كل القديسين عند الكاثوليكك إلى عيد الاحتفال بمن اختفى من الأحياء ومن هم أعزاء على الأحياء.

شهدت نهاية القرن الثامن عشر ولادة علاقة جديدة مع الموت، دون أن يتخلى الكاثوليك عن مفاهيم القيامة في أدبياتهم الدينية، فقد بقي على سبيل المثال فكتور هيجو مسكونًا بحضور الموت والصلوات.

مع أن مفاهيم الدين الجديد فوق الجسد المسيحي كالمرمون في الولايات المتحدة على نحو خاص، حيث أُعطى مكانًا متميزًا للعلاقة بين الأحياء والموتى. كان من نتائج ذلك الأدب المتعلق بالموت والحب تكاثر القبور العائلية (الأب والأم والأولاد)....[127]

يقول جون دوليمو إننا في الأرض المسيحية نزرع الأمل والحنين إلى جنة عدن والرغبة ببناء مستقبل مشرق وفي نفس الوقت واضح المعالم. نأمل في العيش بعد نهاية هذا العالم في أورشليم والتي تمثل السعادة الأبدية والتي

125- Jean Delumeau: Que reste -t-il du paradis, Ibid, P455.

126- P Aries, Ibid, 464.

127- Delumeau ,Ibid, P 467468-.

ستهبط من السماء (راجع رُؤْيَا يُوحَنَّا اللاَّهُوتِيِّ21:10).

إنما وخلال القرون الثلاثة الأخيرة تبخرت هذه المفاهيم، حتى إن كبار المؤمنين وأحدهم هذا المؤرخ الكبير جون دوليمو (2020-1923) يتساءل ويقول هل كانت تلك الأدبيات المتعلقة بالجنة منذ بداية المسيحية تعبيراً عن حنين مزمن للطفولة؟ هذا القول ومن هذا الباحث والمؤرخ ينطوي على الاعتراف بسذاجة مفاهيم الجنة. ومن ثم يستمر بطرح الأسئلة: هل كانت السماء عبارة عن شاشة كبيرة عبّر من خلالها أسلافنا عما يدور في مخيلتهم؟

إنما شهد التاريخ الأوربي وهو بطبيعته ذو ثقافة مسيحية عن تحولات عميقة في الفهم فيما يتعلق بالمفاهيم الميتافيزيقية وكل ما هو خارج الحيز الإنساني.

فلزمن طويل بقيت العلاقة بين السماء والأرض بين القوى الفوقية متداخلة وشديدة التعقيد بسبب النظرة المقدسة لها وتداخلت واشتبكت بعلاقة حميمية. بل كان الماورائي الطبيعي يتحكم بالعلاقات اليومية وبكل تفاصيل الحياة.

ولزمن طويل كانت المخيلة الدينية مُنظِّمة وصانعة للعلاقة مع المقدس. إنما وبدءًا من عصر النهضة، دخلت في حقل الفنون، إضافة إلى انتشار أفكار العلمانية وربما الأهم من ذلك الثورة العلمية في القرن السابع عشر، حيث انتمت السماء إلى نفس هذا الكون ويخضعان لنفس القوانين الكونية. ففقدت السماء صفتها باعتبارها مقر الله. وبدءًا من القرن السابع عشر أصبح النظر وتعريف الجنة كمدينة فاضلة طوباوية أي متخيلة كما ورد في كتابات توماس مور، حقيقة وأمرًا مألوفًا. فكما ذكرنا سابقًا الطوباوية تعني مكان لا وجود له (راجع نقد العقل الدائري).

هل يمكن للإنسانية أن تعيش دون طوباوية؟

الحقيقة أن عبارة (جنة) أو فردوس كما ترد في اللغات اللاتينية والجرمانية تحتوي على كل مفردات الطوباوية. فهي لا تحتوي على حيز بل عن مستقبل سيأتي بعد الموت.

في الثقافة المسيحية (الجنة) التي ولدت مع الأناجيل وعبرها نفهم أن الإنسان خالد وأن الموتى بعد أن يناديهم ربهم ويأخذ بأيديهم يخرجون من الثقب الأسود المُعبر عن الموت، وبدءًا من تلك اللحظة يدخلون في حياة ثانية

إنما هذه المرة ستكون حياة أبدية

وعند الابتعاد عن إغواءات كل ما هو عجائبي، ليس أمام المؤمن الآن إلا بقبول هذا الفراغ الهائل المتمثل والمعبر عن العلاقة مع السماء ومع الله الذي يسكن فيها.

العصر الراهن وما فيه من ثورات علمية وقدرات ذهنية وثقافات تثير العجب، وضع المؤمن أمام خسائر ليس من السهل بل من المستحيل تعويضها.
الفهم المعاصر أخرج المؤمن من اليقين إلى القلق، من المطلق إلى النسبية.

هذه الخسائر الجسيمة تم تعويضها عبر بعض الكتابات المتميزة عن مستقبل خال من الأمراض ومن الجوع والبؤس والشقاء!

هذه الآمال بعالم مشرق في يوم غد هي أيضًا تمثل شكلًا من أشكال اليوتوبيا.

الفصل الخامس
الجنة الإسلامية

مع إن الجنة الإسلامية امتداد لما ورد في المنتوج الثقافي العبري والمسيحي ولا سيما الكتب المقدسة لكلا الديانتين، بيد أنني قررت أن أخصص (لها فصلًا كاملًا) نظرًا لغناها وتعبيرها عن حيز آخر لا علاقة له باليهودية والمسيحية.

تعني الجنة في القرآن والأدب الإسلامي، الإقامة الدائمة ما بعد الحياة الفانية وفي إحدى السموات والتي سنأتي على ذكرها لاحقًا. وهي وعد الله لعباده الصالحين.

ليس هناك من مفهوم يعبر عن المكافأة والجزاء وفي كل الأديان حتى الهندوسية والبوذية، أعظم من مفهوم الجنة. حيث سيكونون خالدين فيها.

أسماء الجنة

تشير الجنة في المراجع اللغوية الكبرى كابن منظور إلى (الاختفاء والاستتار « وجن عليه الليل أي ستره، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأنظار، ومنه سمي الجنين لاستتاره في بطن أمه... ووجنته في القبر أي واريته.. والجنان القلب لاستتاره في الصدر..»[128]

وتعني الجنة وهذا مهم في بحثنا: الحديقة ودار الشجر والنخيل وجمعها جنان. والجنة: دار النعيم في الآخرة[129]

أما أسماء الجنة في القرآن فهي عديدة منها جنات الخلد، وجنات عدن، ودار السلام، ودار المتقين، وجنّات الفردوس، ودار المُقامة، ومثال ذلك من القرآن الكريم: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ

128- إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة، دار رياض الريس 1998، ص103.
129- لسان العرب، أبن منظور، دار صادر، بيروت (د.ت) مجلد 13، ص 92-100.

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)، (يونس: 9) هناك ذكر اسم آخر للجنة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا). (الكهف: 107)

وأمّا عن جنات عدن فوردت على الشكل التالي: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» التوبة 27. ولذلك فإنّ لفظ جنات عدن يشير إلى اسم من أسماء الجنة التي ورد ذكرها في القرآن. ومعنى لفظ عدن كما ورد في قاموس اللغة هو الإقامة، فجنات عدن هي جنات الإقامة، ويقال للرجل عدَن بالمكان عدْنًا إذا أقام به.

وكذلك فقد ورد في كتب التفاسير في تفسير جنات عدن أي جنّات الإقامة يدخلها المؤمنون يوم المعاد إلى ربهم. «جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» فاطر 33. وفي تفسير ابن كثير هي مأوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة. جنات عدن « أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم، عز وجل، (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا)، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء. ولباسهم فيها حرير». ولهذا كان محظورًا عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[130].

موقع جنة عدن

تقع جنات عدن فوق السماوات، فقد ورد في سورة النجم: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى*عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى*عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى). يفهم من ذلك أنّ الجنّات ليست على الأرض بل فوق السماوات، ولقد ثبت في السنة النبوية أنّ سدرة المنتهى فوق السماء. وكذلك ففي السنة الشريفة العديد من الأحاديث التي تصف الجنة تثبت

130- ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار ابن حزم 2009، ص 438.

أنّ الجنة فوق السماوات، ففي البخاري يقول النبي «إنَّ في الجنةِ مئةَ درجةٍ، أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيلِه، كلُّ درجتيْنِ ما بينهما كما بين السماءِ والأرضِ، فإذا سألتم اللهَ فسلُوهُ الفردوسَ، فإنَّهُ أوسطُ الجنةِ، وأعلى الجنةِ، وفوقَه عرشُ الرحمنِ، ومنه تَفجَّرُ أنهارُ الجنةِ».[131] ولقد أورد ابن القيم في كتابه حادي الأرواح قولًا عن ابن عباس يقول فيه: الجنة في السماء السابعة، ويجعلها الله حيث شاء يوم القيامة، وجهنم في الأرض السابعة، كما روى ابن المنذر عن عبد الله أنّه قال: الجنة في السماء الرابعة، فإذا كان يوم القيامة جعلها الله حيث يشاء[132].

وصف جنات عدن إذا كانت الجنة جائزة الله لعباده المؤمنين المستحقين للأجر والثواب، فإنّها لا شكّ تضاهي بعظمتها عظمة الخالق مالك الملك جل شأنه، كما تذهب الى ذلك الأدبيات العظيمة الإسلامية عن هذا الموضوع .

بل تذهب تلك الأدبيات الى إنّ من يقف على أوصاف الجنّة وجمالها يكاد لا ينتهي من تعداد حسنها وبهائها، بل إنّها كما قال النبي نقلاً عن ربه «أعدَدتُ لعِبادي الصَّالحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَت، ولا خطَر على قلْبِ بشَرٍ، ذُخرًا، بَلْهَ ما أُطْلِعْتُم عليه، ثمَّ قرَأ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[133].

فكل ما يخطر على قلب الإنسان من تخيل لجمالها يظل أقل من حقيقتها حين يراها. ولقد وصف القرآن حجم الجنات «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» آل عمران 133. فأهل الجنة تنضر وجوههم حين يدخلونها، ويجلسون فيها على منابر من ياقوت، ويسقون من رحيق مختوم، وتجري من تحتهم ومن خلفهم أنهار الخمر والعسل، وتحفهم الغلمان، وقد تزينت الجنة بالحور العين الجميلات، لم يطمثهنّ قبلهم إنسٌ ولا جانّ.

فقد ورد في الحديث النبوي «ولو أنَّ امرأةً من أهلِ الجنَّةِ اطَّلعت إلى أهلِ الأرضِ لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنَصيفُها على رأسِها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[134].

131- في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، الصفحة أو الرقم: 7423.

132- راجع موقع شيخ الإسلام الإمام ابن قيم الجوزية.

133- صحيح البخاري، عن أبي هريرة، الصفحة أو الرقم: 4780.

134- في صحيح البخاري، عن أنس بن مالك، الصفحة أو الرقم: 2796.

وفي الجنة ينجو المؤمن من المرض والتعب والحزن والهمّ، فتجتمع عليه سلامة النفس وسلامة البدن، مع الأمن من الجوع والعطش والموت: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا» (الكهف 107 -108) وتجتمع عليه ألوان السرور والفرح بالتقاء أهله وأحبّته، والأعظم من ذلك كله النعيم الذي يملأ المؤمنين إذا تجلاهم الله برحمته وفضله حين يرون وجهه سبحانه. يؤكد كتاب المسلمين الأول على ذلك: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» (القيامة 22-23) وقد تكرر وعد الله لعباده أن يتمتعوا بالنظر إليه، حين قال: «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ» (سورة ق: 34-)35. «وقد فسّر العلماء لفظ المزيد بأنه النظر إلى وجه الله سبحانه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يؤكّد لأصحابه أنهم ناظرون في الجنة إلى وجه ربهم -جل وعلا- حين سأله أحد الصحابة عن ذلك فقال: هل تُضَارُّونَ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البَدْرِ؟ قالوا: لا يا رسولَ اللهِ! قال: هل تُضَارُّونَ في الشمسِ ليس دونَها سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسولَ اللهِ! قال فإنكم تَرَوْنَه كذلك»[135].

مساكن ممتعة والأجنحة التي سيتم فيها عزل الحور العين والحدائق الفخمة، والينابيع العذبة ومجاري المياه الحية (أي الأنهر الأربعة)، وكل واحد منها يجري إلى الأبد بماءٍ غير آسن ومن لبّن لم يتغير طعمه ومن خمرٍ لذةٍ للشاربين ونهر من عسل مُصفى. وفي الجنة من الفواكه اللذيذة وفي كل الفصول ما يعدو عن وصفها المؤمن فعدا ثمرة النخيل والتي تؤكد دور المكان في صناعة المخيلة، هناك التين والرمان والعنب وهي من فواكه هذا الشرق الذي تكلم عنها القرآن وكلها فاكهة عرفتها شبه الجزيرة العربية، عدا الرمان فأصله يعود إلى الهند وإيران.

وخص القرآن، الرمان بمكانة متميزة فقد ميزه عن بقية الفاكهة، حيث نجد وفي سورة الرحمن 68 (فيهما فاكهة ونخلٌ وَرُمّانٌ). وهذا يعني أن الرمان والنخل ليس من فاكهة الجنة، لأن الشيء لا يعطف على نفسه، إنما يعطف على غيره كما ورد في كتب الفقه واللغة لتبرير موقف كتاب المسلمين الأول من أمر الرمان والنخيل.

135- صحيح مسلم، عن أبي هريرة، الصفحة أو الرقم: 182..

ملذات الجنة

في كتاب الباحث السوري إبراهيم محمود (جغرافية الملذات: الجنس في الجنة) مادة مهمة عن هذا الموضوع فالقرآن يعلمنا «أن الحسي وهم، مثلما الاقتصار على الهامشي، الدنيوي، كونه فانيًا وهْم، فهو يؤكد عبر ذلك على مركزية الخلود للمؤمن، وهي تتأسس على عمق استراتيجي للاشتياق! ثم دليل جلي للملذات الكبرى في القرآن... في ضوئه صيغت جغرافية وصفية للجنة، تتعلق بالملذات..» [136].

فالعجيب واللذيذ يشكلان العمود الفقري لسرديات القرآن كمجموعة «نصوص متراصة، متشابكة، ومتداخلة ومتشعبة، ومستقلة في آن.. »[137] والقرآن قياسًا بكتب التوحيد التي سبقت الإسلام (الزرادشتية واليهودية والمسيحية)، أوجد لغة سردية لا مثيل لها عندما تطرق إلى اللذات الحسية في الجنة. لا يستقيم أمر الدين دون العجائبي بالذات وهذا الأمر تشترك به كل الديانات من بدائية إلى متطورة أنتجها العصر الزراعي.

في المنطق القرآني الحياة زائلة وفانية، فهي متاع زائل وحطام، ففي سورة العنكبوت 64 نجد التالي: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» وهذه الآية ليست يتيمة، فالقرآن قائم على الحث على أهمية وعظمة الدار الخالدة (الجنة)، فسنجد في سورة يونس 24 هذه المادة الغنية عن التعريف ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنـزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلًا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

في الجنة كل ما تشتهي الأنفس، فقد تطرق النص القرآني إلى مسألة الطعام وأعارها مكانًا مرموقًا «حدّث أن حدثهم رسول الله (ص) عن الجنة فقال: والذي نفس محمد بيده ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ثم يخطر على باله طعام آخر فيتحول الطعام الذي فيه على الذي اشتهى، ثم قرأ رسول

136- إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في القرآن رياض الريس، بيروت،1998، ص 129.

137- المرجع السابق، ص 111.

الله (ص) (وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ العين وأنتم فيها خالدون»[138]

وأخيراً هذا الحديث في رواية (ابن مسعود): قال لي رسول الله (ص): «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويًا»[139]

تَحف الجنة بالمفاهيم العجائبية ولو أوردنا كل ما قيل عن الجنة في كتب الحديث لخرجنا عن هدفنا في هذا الكتاب، لأن العجائبي والشهواني في الجنة يحتاج إلى مجلدات.

لاحظت أن الجنة والنار وردتا في الأساس في السور المكية. فهذه السور تركز على ذكر الجنة والنار والثواب والعقاب والتذكير بالآخرة. فمهمتها الأولى زرع الإيمان والدعوة لدخول الدين الجديد عبر الترهيب والترغيب.

السورة المكية هي السور التي نزلت قبل الهجرة النبوية. تبدأ أغلب السور المكية بحروف مقطّعة، مثل: (ألم) و(حم) و(ألر)، تكثر السجدات في السور المكيّة. وتحتوي على لفظ (كلا)،فيها الآيات التي تدعو إلى عبادة الله، والتوحيد الخالص له.

يكثر في السور المكية الحديث عن الإيمان بالبعث، والحساب، والجنة، والنار.تحذّر السور المكية من الشرك بالله.

تتحدّث السور المكية عن قصص الأنبياء، وبعض قصص الأمم السابقة ما عدا سورة البقرة.

تتسم آيات السور المكية بقصورها نسبيًا، وعباراتها وألفاظها موجزة.

كلّ سورة ذكرت فيها قصة (إبليس) و(آدم) هي مكيّة، ما عدا سورة البقرة.

تعتبر كلّ سورة ورد فيها (يا أيها الناس) سورة مكية، ما عدا سورة الحج، ففيها كذلك (يا أيّها الذين آمنوا).

تجادل وتفضح آيات السور المكيّة أفعال المشركين والكفار، كسفك الدماء بغير حق، وأكل الربا، وشرب الخمر، ووأد البنات.

في حين تميزت السور المدنية، بالتطرق الى دقائق التشريع، وأنواع القوانين؛ فتبيّن العبادات، والمعاملات، والحدود، وفضيلة الجهاد، والعلاقات

138- نفس المرجع، ص 194.

139- أبن كثير تفسير القرآن العظيم، ج 4 287.

الاجتماعيّة، وغير ذلك من الأحكام. تخاطب السور المدنيّة أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لدعوتهم إلى (الحق). تتحدّث السور المدنيّة عن أحوال المنافقين، وسلوكهم، وبيان خطرهم على الدين، وتحذير أهل الإيمان من سلوك طريقهم. سلوك الإطناب، والتطويل في آياتها بخلاف السور المكيّة؛ وسبب ذلك أنّ أهل المدينة لم يكونوا يُضاهون أهل مكة في الفصاحة والبيان، فناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يتبعه كثير من البسط.

الوصف المادي للجنة:

من ملذات الجنة المادية والملوسة كما جاء في القرآن «أنّ الفائزين بها المقرّبين لهم سُرُر منسوجة بالذهب محلّاة بالدر والياقوت، محكَمة النَّسْج والصَّنْع متداخل بعضها في بعض كما تتداخل حلقات الدرع، يتكئون عليها متقابلةً وجوهُهم ينظر بعضهم إلى بعض؛ لأنهم أحبّاء تصافوا لا يجفو بعضهم بعضًا، ولا يولي أحدهم ظهره وجه أخيه، ويطوف عليهم غلمان لا يمسّهم هرم بأكواب وأباريق وكؤوس من ماء جارٍ لا ينقطع ولا يتفرّقون عنه، وكؤوس من خمر لا يصيبهم منها أذى مما تسببه خمر الدنيا من سُكْر وصداع وقيء، ولهم فيها ما يشتهون من فاكهة ولحم طير وحور حِسان كأنهن اللؤلؤ النفيس بياضًا وصفاءً. وهذا كلّه جزاء لهم على أعمالهم الطيبة في الدنيا، وهم في الجنة لا يسمعون كلامًا عابثًا لاغيًا ولا كلامًا قبيحًا، بل يتبادلون التحية والكلام الطيب المسعِد»[140].

بل يشير القرآن إلى أصحاب اليمين أي الأبرار فلهم سدر موقر بالثمر لا شوك فيه على عكس سدر الدنيا المثقَل بالشوك المعروف بقلّة الثمر، ولهم موز يغطي ثمرُه ساقَه كلَّها فلا تُرى، وظِلٌّ رادف ممتد، وماء دائم الجريان لا ينضب، وفاكهة كثيرة متنوّعة لا عهد لهم بمثلها لا تنقطع في أيّ وقت، ولا يمنعهم من تناولها شوك ولا عود ولا بُعد ولا قلة ولا مرض، وفُرُش عالية ناعمة ممهّدة، وحور حِسان أبكار متحبّبات إليهم بالجمال والملاحة والظرف

140- راجع أحمد الحوفي: الجنة والنار في القرآن الكريم، مجلة الهلال، العدد2،1974. استندنا إلى هذا المقال لأنه يعبر بدقة عن مفاهيم الجنة والنار في القرآن.

والطاعة، كلّهن مثيلات متساويات مؤتلفات لا يتحاسدن ولا يتباغضن[141].

ومن أوصاف الجنة المادية أنّ ماءَها عذبٌ جارٍ لا يتغيّر طعمه ولا رائحته، وأنّ لَبَنها كثيرٌ لا يَفسُد ولا يصير قارصًا ولا حازرًا ولا حامضًا؛ لأنه لم يخرج من ضروع الماشية، وأن خمرها غزيرة تتدفّق أنهارًا، وهي لذيذة للشاربين لا يحسّون فيها بمزازة ولا حموضة ولا يصابون بعدها بدوار أو سُكْر أو مرض كما عهدوا في خمر الدنيا؛ لأنها ليست كخمر الدنيا، وأنّ العسل ينساب فيها أنهارًا صافيًا حسن اللون والطعم والرائحة، لم يخرج من بطون النحل كما عهدوا في عسل الدنيا، ولهم فيها من جميع الثمرات التي يشتهون[142].

الوصف المعنوي

فقد ورد في آيات كثيرة منها أنّ الفائزين بالجنة يشعرون بالتكريم العملي لهم حينما تتلقّاهم الملائكة بالتحية والترحيب والتوقير . فقد ورد في القرآن «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» الزمر: 73.

وأيّ ثواب أسمى من الخلود في الجنة حيث لا هَمّ ولا حزن ولا حقد ولا حسد ولا ندم ولا نَصَب ولا قلق ولا خوف، قال تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ،وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ» الحجر: 45- 48.

ويمكننا سرد الكثير في وصف الجنة انما نكتفي بهذا القدر.

هندسة الجنة

مرة أخرى ليس هناك من دليل على هندسة الجنة وعظمتها أفضل من الحديث النبوي، فالجنة لا حدود لها في العرف الهندسي. فهي بسعة الأرض والسموات كما ورد في القرآن. وإذا بدأنا بأبواب الجنة ،التي تدخل المؤمن في قلب الملذات والعجائب فسنرى أن المسافة بين مصراعي الباب الواحد،

141- نفس المرجع.

142- نفس المرجع.

كالمسافة بين مكة وهجر. وهناك رواية أخرى تذهب إلى التأكيد على أن المسافة بين مصراعي الباب الواحد تعادل مسيرة أربعين عامًا[143].

والمسافة بين مكة وهجر تتجاوز كل فهم إنساني. فهي 1273 كم. فقد ورد في مقال لأحد رجال الدين التالي «وبقياس المسافتين جوًا وبخط مستقيم بين مكة وبصرى، وبين مكة وعدد من المناطق في إقليم هجر، تبين أن المسافتين متطابقتان وتساويان مقدارًا واحدًا هو 1273كم، وهكذا شهدت الأقمار الصناعية بصدق ما أخبر به نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام عن مقدار عرض باب الجنة».[144]

هذه المسافة بين مصراعي الباب الواحد فَلَكَ أن تتخيل طول وعرض الباب الواحد إن أمكنك ذلك.

ابن قيم الجوزية على يقين من صحة ذلك استنادا إلى حديث (أبي هريرة) ...

وفي المعراج مادة مهمة عن عرض الباب حيث نجد التالي: «فأتى جبريل إلى باب الجنة فضرب الباب فأجابه خازنها وفتح لنا وغدا عرض الباب مسيرة ألف عام وهو من ياقوتة حمراء تلمع بالأبصار...»[145]

أما تربة الجنة فهي من الذهب أي أغلى المعادن ويشم المؤمن حال ولوجه رائحة المسك الزكية.

ولكل مؤمن بيت من بيوت الجنة حيث ستكون في انتظاره زوجاته، أي الحور العين. هذا البيت من رأسه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ... في البيت سبعون سريرًا، على كل سرير سبعون حشية على كل حشية سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة.

هذا العدد الضخم وفي بناء ضخم وكبير جدًا يضعنا عند الحساب الإجمالي وذلك بضرب عدد الأسّرة بعدد الحشيات، بضرب عدد الزوجات، فيكون الناتج (3430000زوجة؟). [146]

143- أبن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المجلد الأول، دار عالم الفوائد،1428 ص 42-44.

144- محمود داود دسوقي خطابي، قياس ما بين مصراعي الجنة من مكة إلى بصري الشام وهجر، فيhttps:// Kenanaonline.com

145- محمود إبراهيم، سبق الإشارة اليه، ص 238.

146-المصدر السابق.

طبعًا هذه أرقام عجائبية، مجازية، ورمزية، لأنه لا يقبلها العقل رغم أسماء من قالوها مثل ابن تيمية وابن القيم والجوزية وغيرهم كثير.

هذه الثقافة عبرت عن جوع جنسي مزمن لا عن دين مهمته الأولى الارتفاع بالمؤمن من دونيته ورخصه. فعندما نعود إلى ابن قيم الجوزية فنراه يفسر الآية القرآنية «إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون» (سورة يس،55) من أنها تعني «افتضاض الأبكار والعذارى» [147]

الحديث النبوي والملذات في القرآن

في مقال مهم منشور في الموسوعة الإسلامية للمستشرق لوي كارديه عن دور الحديث النبوي في تفسير القرآن، نجد مادة غنية وتتناول موضوع الجنة ليس عبر الحديث النبوي فحسب بل عبر الثقافة الإسلامية بما فيها من فلسفة وتصوف وعلم كلام. فعبر هذا السؤال: كيف قام الفكر الإسلامي بتفسير المعطيات القرآنية [148]؟ يبدأ بالحديث النبوي أو المنسوب للنبي أولًا فهو المعطى الأساسي الذي أدى إلى قيام هذه الثقافة العجائبية

عندما نعود إلى الحديث، نجد فيه مادة ليس لها من وجود في القرآن وهو ما يدفعني للقول مرة أخرى (سبق لي وأكدت على ذلك في مؤلفاتي السابقة) أن ليس هناك ثقافة بمعناها الواسع أساءت لمحمد وللقرآن كما فعل بعض رواة الحديث النبوي والذي تم إنشاؤه في القرن الثالث الهجري، بل لا يقوم الطبري وهو شيخ المفسرين وشيخ المؤرخين إلا بالاستناد إلى الحديث النبوي عند تفسيره لآيات القران في عمله الجبار ذاك حيث بلغت أجزاء كتابه الثلاثين.

هناك مادة خلقها بعض رواه الحديث النبوي ليس لها من وجود في القرآن، إنما أصبحت من اليقينيات حيث لا يمكن تفسير القرآن دونها. وكلها تنحو منحى واحدًا يتمثل بالترغيب بالجنة[149].

147- إبراهيم محمود، الجنس في القرآن، منشورات رياض الريس، 1994، ص 133-137،

148- L.Gardet, Encyclopédie de L'Islam ,nouvelle Édition, Tome2 K PP 458- 4464.

149- لمن يريد التوسع في فهم علاقة الحديث بالقرآن وفيما يتعلق بملذات الجنة فعليه الرجوع إلى كتاب إبراهيم محمود الذي أشرنا اليه.

ففي هذه الحكاية من جامع البيان في تفسير القرآن للطبري وهو ليس شيخ المفسرين فحسب بل من العقلانيين في كتابه المهم تاريخ الرسل والملوك، نجد حرصه الشديد على توخي الدقة عند النقل، نجده يقول وبكل أريحية: «إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الطائر وهو يطير فيقع متلفقًا نضيجًا في كفه فيأكل منه حتى تنتهي نفسه ثم يطير ويشتهي الشراب فيقع الإبريق في يده ويشرب منه ما يريد ثم يرجع إلى مكانه»[150]

ولنأخذ هذا الحديث الذي ورد على لسان عبادة بن الصامت، حيث نجد تلك القدرة الفذة في تحويل اللامرئي إلى حقيقة فاعلة في مخيلة المؤمن حيث نجده يقول: «أول زمرة تلج الجنة، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمخطون ولا يتغوطون، آنيتهم من الذهب والفضة، ومجامرهم لؤلؤة رشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم الحسن»[151]

الأنثى في الحديث النبوي

في الحديث النبوي الذي قام وتطور في القرن الثالث الهجري، نجد مادة مهمة في بعضه عن المرأة كأنثى مهمتها الأولى امتاع المؤمن الذي دخل الجنة. ففي أحد تلك الأحاديث نجد التالي: «يزوج من أهل الجنة أربعة آلاف بكْر وثمانية آلاف أيّم ومائة حوراء»[152]

حضور الأنثى هو الطاغي في أدبيات الجنة التي وردت في الحديث النبوي أو المنسوب للنبي.

الشهوة الجنسية للرجل قبل المرأة لها حدودها وما إن اكتفى الرجل من ممارسة العملية الجنسية ولا أقول ممارسة الحب، فإنه سيكون عاجزاً عن إعادة ما بدأه إلا بعد حين، بينما ستكون من مهمات المؤمن فض البكارات ودون انقطاع.

نبذ الجسد الذي دعا إليه جل المتصوفين وعلى رأسهم الحلاج لا علاقة له

150- الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، 2001.

151- إبراهيم محمود، المرجع السابق، ص144-145.

152- المرجع السابق، ص145.

بالثقافة الإسلامية، فالتلذذ كان في سلوك الخلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

ولو تأملنا في النص القرآني والحديث النبوي لاحقًا فسنجد أن لا وجود معنوي ورمزي للمرأة في الجنة. هي كما هو الأمر في الدنيا مفعول بها وليست فاعلًا. لا يمكنها ولا يسمح لها أن تستمتع بمن تشاء، بل مهمتها استقبال زوجها والذي ربما يكون بائسًا وسافلًا في تعامله معها في الحياة الدنيا.

الملذات تقتصر على الرجال فقط. وهذا الأمر لم تتفرد به الثقافة الإسلامية بمعناها الواسع، بل كان حاضرًا في كل ثقافات الحيز الزراعي. ولم يزل.

النساء يمثلن «الجسد الطروب، الجسد المبهج، المفرح... فهن يمثلن الرقة والإغراء والجمال الأخاذ ومثار الشهوة والخبيء المرغوب فيه واللذة المتجددة (تجدد العذرية بعد كل جماع)، والرجال يمثلون الإقدام، والحركة، والانتظار المنشود وطالبي النشوة، والامتلاك الجسدي وسلطة الاحتواء الجنسي»[153]

ولو تأملنا فسنجد أن الغالبية العظمى من سكنة الجنة، النساء! صحيح أن نسبة الداخلات إليها من نساء الدنيا قليلة، بيد أن النسبة العظمى من الحوريات أولًا..

يذهب إبراهيم محمود إلى طرح السؤال التالي: لماذا تمثل المرأة الغياب، حتى وهي تدخل الجنة؟ ويجيب على سؤاله: لأنها تمثل الآخر، اللا مشروع، الجنس المرفوض على صعيد الفاعلية، والمطلوب على صعيد الانفعالية[154]

لا أتفق مع الكاتب الذي يحاول أن يجد أجوبة وعبر التأمل والعلوم الإنسانية التي هو على دراية بها. الحقيقة المرأة تمثل غياب ليس في الجنة الإسلامية فحسب، بل أكرر وأقول في كل العالم القديم.

الجنة عند الشيعة الاثني عشرية

ليس هناك فروقات جوهرية بين الجنة السنية التي طورها وأغناها الحديث النبوي، وبين الجنة الشيعية التي قامت منذ القرن الرابع الهجري ومع الكليني وعبر كتابه (الكافي) وتطورت مع المجلسي فقيه وأيديولوجي

153- المرجع السابق، ص 178

154- نفس المرجع، ص 178.

الدولة الصفوية في القرن السابع عشر.

كانت كتب الحديث النبوي السنية بطبيعتها مصدر إلهام، فنجد نفس السرديات تقريبًا مع إضافات لإرضاء النفس المحبطة.

الاختلافات فيما يتعلق بموضوع الجنة ليس في طبيعة الجنة الشهوانية والمليئة بالملذات، بل فيمن يدخل الجنة.. بمعنى آخر تحديد مفهوم المؤمن. ففي المدونات السنية هو الشخص الذي يستسلم تمامًا لإرادة الله ولديه إيمان راسخ في قلبه. هذا التعريف الذي يرد ويتواتر حضوره في المدونات السنية الأساسية، يفرق بين المؤمن والمسلم، «فالإيمان تمام الطاعة ويتمثل في أن يؤدي المسلم حتى يصبح مؤمنًا ما أوجب الله، ويدع ما حرم الله...»

ومع ان هذا التعريف الصارم للتفريق بين المسلم والمؤمن، نجد من يروّج وعبر مفهوم الشفاعة، عند البعض أن كبار القتلة والمجرمين وسفاكي الدماء والدجالين... إلخ، يدخلون الجنة بشفاعة رسول الإسلام لهم...

بل هناك حديث منسوب للنبي محمد وفي صحيح البخاري لا يشترط الإيمان بل الإسلام: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق»[155]

يأخذ الشيعة بمفهوم الشفاعة ونجد في كتبهم الموثقة إشارات بل سرديات مهمة عن هذا المفهوم. بل لا يدخل الجنة ممن لم يعلن موالاته (لأهل البيت): «بينما الموالاة الحقيقية الدائرة بين النفي والإيجاب كـ (لا إله إلا الله)، عامل مهم بل هو عمدة ما في الباب للدخول إلى الجنة...»[156]

صاحب الزمان

لم يأخذ الشيعة بمفهوم الألف عام التي برعت فيه الأيديولوجية المسيحية ،فقد اعتبرت هذه العقيدة ان المهدي هو صاحب الزمان.

وعبارة صاحب يراد بها امتلاك الزمان والتحكم به . والزمان هنا مرتبط بمكان محدد يتمثل «بغيبة» هذا الامام وعودته مجددا عندما يتخذ الرب قراره بنهاية الدنيا، فهو المتحكم والمدبر والمالك والعارف بكل تفاصيل

155- صحيح البخاري 43/7.

156- موسوعة الأسئلة العقائدية، الجزء الثاني، ص441.

المكان، بخلاف من يكون في مكان هو غريب فيه.

في هذا الإدعاء ، يصبح المهدي المنتظر ، مشاركاً للرب في امتلاكه وتحكمه بالزمن. والزمان كما ذكرت في كتابي « تاريخ الخوف» له عدة دلالات. معنى مادي/ظاهر، بمعنى الأربعة وعشرين ساعة بثوانيها، ودقائقها وساعاتها، ومعنى معنوي/ وجداني كلحظات الترقب لوصل محبوب ما؛ إذ إن الوقت يتلاشى عند وصله، وتتمدد وتطول في لحظات إنتظار حضوره، مع أنها ذات الدقائق[157]!.

وهناك معنى كوني. أي ان زماننا لا يشبه أي زمن اخر فهو نسبي بطبيعته.

بل ان الزمان الذي سارت عليه البشرية ينقسم الى زمانيين: الزمن الأفقي وهو ما أطلقت عليه الزمن السهمي فهو ينطلق من نقطة ويقف عن نقطة تمثل نهاية مسيرته ومن ثم يبدأ الزمن السرمدي الذي برعت في تصويره الديانات التوحيدية[158]. وهناك الزمن الدائري الذي اخذت به الهندوسية والصين والإغريق.

ولو طبقنا هذه الحقيقة على مفهوم أن «الإمام الحجة» كما يطلق عليه اتباعه من الشيعة الأثنى عشرية،فهذا يعني هو صاحب هذا العصر والزمان، بل الزمان الذي يقرر الله فيه لحظة انتهاء الحياة على الأرض.

لكي تتم هذه العملية بالشكل المطلوب والفعال لابد من توفر شروط معينة، وهي التي ذكرها السيد محمد صادق الصدر في موسوعة الإمام المهدي[159]تحت عنوان شرائط الظهور، وهي بشكل مختصر تتمثل في أربع نقاط أو شروط:

الشرط الأول: وجود النظرية أو الأطروحة الكاملة لعملية التغيير.

وبمعنى آخر وجود الأيديولوجية الفكرية الكاملة والقابلة للتنفيذ في كل الأمكنة والأزمنة والتي تضمن الرفاهية للبشرية جمعاء، وهذا ما تم بالفعل بوجود الشريعة الإسلامية والرسالة المحمدية الخاتمة.

الشرط الثاني: وجود القائد المحنك الذي يقود عملية التغيير الشامل. حيث ينبغي أن يمتلك هذا القائد العظيم القابلية الكاملة لقيادة العالم كله ونشر

157- فالح مهدي، تاريخ الخوف، سبق الإشارة اليه.

158- راجع ما ذكرناه عن هذا الموضوع في «تاريخ الخوف».

159- موسوعة الإمام المهدي (ع) ج 1 السيد محمد صادق الصدر، تاريخ الغيبة الصغرى الناشر: دار التعارف للمطبوعات - بيروت لبنان الطبعة: الاولى 1992 وعن نفس الدار نجد الجزء الثاني «تاريخ الغيبة الكبرى» وفي نفس التاريخ .

العدل فيه، وهذا أيضا قد حصل والمتمثل في وجود الإمام المهدي.

الشرط الثالث: وجود العدد الكافي من الأنصار والمؤازرين للقائد العظيم.

الذين يشكلون قاعدة للتغيير ولديهم مستوى عالٍ من الوعي والاستعداد للتضحية بين يدي القائد بحيث يعتمد عليهم في نشر العدل في جميع أنحاء المعمورة ويكونون قادة لجيش الإمام ومقاتلين بين يديه.

الشرط الرابع: وجود قاعدة شعبية مؤيدة وكذلك استعداد عالمي للتغيير.

أي وجود العدد الكافي من المؤمنين المؤيدين للإمام في حال ظهوره، وكذلك وجود استعداد لدى شعوب العالم لقدوم المخلص المنتظر.

بهذه اللغة الخشبية يعيد محمد صادق الصدر، هذه التراث العتيق وهو على يقين مما اتى به . لغته معاصرة شبيهة بلغة محمد باقر الصدر والذي اشرنا اليه في كتابنا « أستقراء ونقد الفكر الشيعي.»

من هنا نعرف أن ظهور الإمام سوف يتحقق متى اجتمعت هذه الشروط في زمن واحد مهما طال الزمن، حيث أن هذه الشروط كفيله بإنجاح عملية التغيير المنشودة، واستحالة تخلف وعد الله لعبادة الصالحين.

ولو عدنا الى مفهوم الزمان ، لكي نفهم تلك العلاقة بين الموضوع أو الشيئ ومالكه،فسنجد ان ليس هناك من موضوع محل جدل ونقاش بين الفلاسفة والعلماء ولا سيما في الزمن الراهن اكثر من موضوع الزمان [160]

عند الشيعة الامامية فإن عبارة «يا صاحب الزمان» تعتبر المقياس للشيعي المؤمن، ولحظة تسآل هل ينتمي زمنه مع زمن الإمام المهدي ؟ وهل يرتبط بإمام زمانه أم لا وهل ما يقوم به في حياته اليومية يتلائم ويتوافق مع زمان المهدي المنتظر باعتباره مالك وسيد الزمان؟ هناك عدد كبير ممن نسب لنفسه هذا اللقب كالصفويين والسلاطين العثمانيين ، ممن لقب نفسه بصاحب الزمان كما هو الامر مع سليمان الثاني وسليماني القانوني.

مفهوم « المهدي المنتظر»، احتل مكانا جوهرياً في العقيدة الأثنى عشرية ومنذ القرن الأول الهجري وبعد مقتل الأمام على وذهاب الخلافة الى خصمة معاوية بن ابي سفيان.

160- راجع ما ذكرناه عن هذا الموضوع في كتابي « تاريخ الخوف» الذي سبقت الإشارة اليه.

المهدي المنتظر كمفهوم ليس ملك الشيعة بل هو ملازم لكل الجماعات المحبطة والتي تعرضت الى اضطهاد وقتل ودمار.

انما المثير في أمر المهدي الشيعي، هو امتلاكه للزمان! من اين جاء هذا التصور وكيف تطورت هذه الفكرة التي ليس لها من وجود قبل القرن الرابع الهجري؟

مفهوم « **صاحب الزمان** « تقف خلفه الأيديولوجية الشيعية التي شيدها الكليني في القرن الرابع الهجري وسار على خطاها بل اضيف لها الكثير من قبل ممن يطلق عليهم « جهابذة» وآخرهم المجلسي في القرن السابع عشر من التقويم المعاصر. فالشاه إسماعيل وتحت أعين المحقق الكركي وهومن أوائل من لبى دعوة الشاه إسماعيل من جبل عامل حيث بلغ عددهم 97 فقيه، لكي يقوموا بمهمة تحويل إيران الشافعية، الى إيران أثني عشرية، حيث أطلق على نفسه وبكل أريحية « ابن الله «!

وعندما نتوقف قليلاً امام مفهوم « صاحب الزمان»، نجد فيه شحنة استعلاء وعنصرية مريضة، والدليل على ذلك ان المسيح الذي ورد في كتاب المسلمين الأول، ليس له شرف الوقوف بجنب «صاحب الزمان» عندما تنتهي الحياة فوق الأرض وتحل لحظة القيامة، بل خلفه! والسبب الذي يكمن خلف ذلك، ان المهدي الشيعي فارسي في جنسه...

الفكر مقابل النقل

بمواجهة السرديات التي قامت وتطورت على ضوء ما نسب إلى الحديث النبوي، نجد أن العقل المتمثل بالمدارس الإسلامية ذهب مذهبًا آخر يستحق حقًا الإعجاب.

المعتزلة أولًا

لا يناقش كبار المتكلمين من المعتزلة اللذات والعجائب التي لا مثيل لها في الجنة فهم ينكرون وجودها الآن بل ستخلق من قبل الله عند نهاية الدنيا.

على عكس ما تذهب إليه المدونات السنية والشيعية. الإيمان بأن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا، خلقتا للبقاء لا للفناء عند كل الفرق التي تأخذ ببعض ما نُسب من الآحاديث النبوية، فيذهب احد السلفيين الى التالي «فقد اتفقوا

على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وأن خلقهما سبق خلق آدم عليه الصلاة والسلام، والأدلة على وجودها الآن كثيرة من الكتاب ومن السنة، فمن الأدلة على وجود الجنة قول الله تعالى: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:133] {أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد:21] ومن الأدلة على وجود (النار) {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة:24] {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا} [النبأ:21]»[161].

ويستمر الباحث السلفي للبرهنة على وجود الجنة والنار: «ومن أوضح الأدلة على خلق الجنة، قصة آدم عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى له: {يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة:35]، ومن السنة ما ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة وبالعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[162].

ويذهب نفس الكاتب وبدون أي اعتبار الى تسفيه آراء المعتزلة وهم يمثلون شرف الكلمة في الإسلام على النحو التالي: «وقالت المعتزلة والقدرية: إن الجنة والنار معدومتان، وإنما تخلقان يوم القيامة، وقالوا: إن وجودهما الآن ولا جزاء عبث، والعبث محال على الله! هكذا صاروا يحكمون عقولهم ويتبعون آراءهم وأهواءهم، يقولون: إن الجنة والنار كونهما يخلقان الآن ولا جزاء فيهما عبث في وجودهما، والعبث محال على الله، وإنما تخلقان وتنشآن يوم القيامة، وهذا باطل، وسنذكر الأدلة على أنهما موجودتان الآن، وأرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكفار في النار، يفتح باب للميت إلى الجنة، ويفتح باب للفاجر إلى النار، ولكن المعتزلة والقدرية يحكمون عقولهم وآراءهم الفاسدة.[163]

وعندما نعود الى مدونات المعتزلة ، نجد ان أبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة

161- عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، شرح الاقتصاد في الاعتقاد، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net [الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - 12 درسا.

162- نفس المرجع.

163- نفس المرجع.

في القرن الثالث يذهب الى التالي «تفنى حركات أهل الجنة والنار وتصير دار الخلد مع سكانها وثمارها كحجارة البنيان» [164].

ولم تتوانَ هذه المدرسة العظيمة من استفزاز الجمود العقائدي في القرن الثالث وقبل تولي المتوكل للخلافة (206-247)، حيث تعّرض النظّام أحد شيوخ المعتزلة وهو يبحث في مسألة المعاد لحشر الحيوانات فقال: «إن العقارب والحيات والخنافس والذباب والغربان والجعلان والكلاب والخنازير وسائر السباع والحشرات تُحشر في الجنة».[165]

وزعم أيضًا أنه «ليس لإبراهيم – ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم – في الجنة تفضلُ درجة على درجات أطفال المؤمنين، ولا لأطفال المؤمنين فيها تفضيلُ – بدرجة أو نعمة أو مرتبة – على الحيات والعقارب والخنافس لأنه لا عمل لهم كما لا عمل لها. فَحَجَ على رب العالمين أن يتفضل على أولاد الأنبياء بزيادة نعمة لا يتفضل بمثلها على الحشرات».[166]

في كل السرديات العقلانية لهذه الفرقة العظيمة حقًا رفض لمسألة الشفاعة في الإسلام كما وردت في الأدبيات السنية والشيعية.

وللمعتزلي الكبير القاضي عبد الجبار رأي في أمر الشفاعة نورده على النحو التالي: «فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين، وعند المرجئة أنها للفساق من أهل الصلاة...»[167] ومن ثم نجده يقول: «فكيف يخرج الفاسق من النار بشفاعة النبي عليه السلام، والحال ما تقدم، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا)، وقوله تعالى: (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع).. فالله تعالى نفى أن يكون للظالمين شفيع البتة»[168]

164- عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت 1997، ص121-125.

165- نفس المرجع 264.

166- المرجع السابق، ص 264.

167- شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد بن الحسين بن ابي هاشم، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة 1996، ص689.

168- نفس المصدر.

إخوان الصفا

مع إخوان الصفا نخرج من علم الكلام أي علم الدين إلى علم الفلسفة. تعد فلسفة إخوان الصفا من بواكير الفكر الفلسفي في الإسلام، ومن بين الفلسفات التي حرصت على التوفيق بين الدين والفلسفة، «إلا أن الغموض الذي كان ملازمًا لأفردها أدى إلى ضياع أفكارها، وحيرة العلماء في حقيقتها. ومن أهم الأفكار التي تعرض للحديث عنها إخوان الصفا فكرة البعث، ويأتي الحديث عن البعث عند إخوان الصفا في تصور وسط بين الفلاسفة والمتكلمين، فهم يعترفون بالجانبين: الجسماني والروحاني، إلا إن الرأي النهائي لهم يميل إلى البعث الروحاني، الذي لا يتفهمه على حقيقته إلا خواص عباد الله»[169].

يبدأ إخوان الصفا في حديثهم عن البعث بالحديث عن النفس الإنسانية فمن لا يعرف نفسه، ولا يعلم ذاته، وينصرف عن نفسه إلى إصلاح وتهذيب بدنه وإهمال نفسه، يرغب في لذة العيش، ونعيم الدنيا، وتمني الخلود فيها، ولكن إذا عرف الإنسان نفسه، انصرف إليها وفكر في أحوالها وتهذيبها.

وقد قسم إخوان الصفا الإنسان إلى روح وجسد. أما الجسد فلا يعني سوى استعمال النفس له، فإذا تركت النفس استعماله فسد، وهذا هو المقصود بموت الجسد، أما موت النفس فيعني (جهلها بحقيقتها، وغفلتها عن معرفة ذاتها. اهتم إخوان الصفا بقضية الموت اهتمامًا بالغاَ، ومنحوا مفهوم الموت بعدًا عقليًا، حيث تحدثوا عن موت النفس، والذي يعني: جهلها حقيقتها، وغفلتها عن معرفة ذاتها[170].

وعندما نعود إلى الرسالة الخامسة عشر من رسائل إخوان الصفا نجد التالي: «فهكذا إذا سمعوا ذكر الجنة ونعيمها، أهلها وسرورهم ولذاتهم، فلا يتصورنها إلاّ أمورًا جسمانية شبه بساتين فيها وعليها ثمار، وقصورٌ بينها أنهار، وفي تلك حوُر وغلمان وولدان مُردان على أمثال أبناء الدنيا ونعيم أهلها. إذا سمعوا بأن أهل الجنة في جوار الرحمن... وما شاكل هذا من وصف أهل

169- علي طه عبد العال، البعث عند اخوان الصفا، جامعة الأزهر، مجلة كلية الدراسات الإسلامية للبنين بأسوان، العدد: الخامس، 2022

170- المرجع السابق.

الجنة من شرب الشّراب أو مباشرة مع الأبكار، وأنهم أحياء لا يموتون، وشبان لا يهرمون، وأصحاء لا يمرضون ولا يجوعون ولا يعطشون، ويأكلون ويشربون ولا يتبوُلون ولا يتغوّطون... فإذا فكروا فيها تحيروا أيضًا فيما يعتقدون من أمر الجنة ونعيمها وحالات أهلها، فيشكّون أيضًا في الجنة وما خبّرت به الأنبياء، عليهم السلام من وصف الجنان ونعيم أهلها... فإذا ذهب عليهم معرفتها وتغطى عليهم علمها، أنكروها بقلوبهم..» [171]

تعني الجنة بالنسبة لهم عالم الأفلاك، وأن النار هي عالم ما تحت فلك القمر وهو عالم الدنيا، ومن يدخل الجنة هي الأرواح، أما الأجسام فأنها تبقى تحت فلك القمر ولا تفتح لها أبواب الجنة[172]

وفيما يتعلق بأمر الشفاعة، فقد كان لهم موقف مبدئي يتناغم مع فلسفتهم ونظرتهم للكون ولرب هذا الكون الذي يعتقدون به. ويمكن تلخيص فلسفتهم في هذا المجال من أنهم قريبون جدًا من المعتزلة، فالله لا يحتاج إلى وسيط.

171- رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء، المجلد الثالث مركز النشر: مكتب الاعلام الإسلامي، قم، 1405 ص62-63.

172- نفس المصدر.

من الجنة السماوية إلى الجنة الأرضية
ملاحظات نهائية

شغل موضوع الأمل ذهن الإنسان منذ أكثر من 300000 عام، كما ذكرنا ذلك في الفصل الأول من هذا البحث. ذلك أن العناية الفائقة لمن مات توًا ودفنه مع طعام وشراب ومع عدته التي يستخدمها في الصيد. تشير إلى مفهوم الأمل.

ربما امتد موضوع الأمل إلى فترة أبعد من هذه الفترة، إنما لم تتوفر لنا أدلة يمكننا الاستناد إليها في فرضيتنا هذه.

عبّر الإنسان القديم عن هذا الموضوع عبر سردياته الغنية جدًا وعبر طقوسه وشعائره، وعبر مؤسساته التي تمكنت من خلق أيديولوجيات لا زالت قائمة حتى الآن ولا زالت تتحكم بمن يؤمن بها.

ففي الموروث الثقافي لمجتمعات يطلق عليها (بدائية) نجد مفهوم الأمل حاضرًا، إنما التطور الحقيقي والفعال، لم يتم إلا في العصر الزراعي (10000 عام قبل التقويم المعاصر). فقد قامت الحضارات القديمة في وادي الرافدين ومصر والهند على نحو خاص ومع قيام الدولة وما تحمله من تنظيمات معقدة لا تقدر عليها التنظيمات في المجتمعات الصغيرة التي لم تتمكن ولم تفكر في إنشاء دول.

بناء الدولة لم يكن وليد نزوة ألمت بإنسان تلك المجتمعات قبل 5000 عام من التقويم المعاصر، بل وجدت حاجة ملحة لذلك. فتوسع تلك المجتمعات وتطور اقتصادها وخروجها من عالم الصيد وجمع القوت إلى الزراعة وتربية المواشي، وقيام علاقات قوة لم يعرفها عالم الصيد وجمع القوت.

المدونات السومرية باعتبارها الأقدم، تميط اللثام عن هذا التطور المذهل، فوجدنا عند عودتنا لما تركه القوم من آثار ومن سرديات، أمام مجتمع معقد. فهناك سلطة سياسية وهي بطبيعتها مرتبطة بالسلطة الدينية، فكلا السلطتين تتكئان على بعضهما البعض. ووجدنا مدنًا مثيرة للعجب في بنائها وتصميمها ووجدنا بيوتًا

خاضعة هي الأخرى إلى الهندسة المقدسة التي ابتكرها المعبد[173].

ملحمة جالجامش السومرية، تكشف ولأول مرة في التاريخ الإنساني عن الهم الإنساني في الوصول إلى عالم خالد لا موت ولا فناء ولا شيخوخة وأمراض فيه. في هذا العمل الذي وصلنا في نسخته الأكدية حيث قام الشاعر البابلي سين -لقي- ونيني بصياغة ونسج تلك القصة في سرد متواصل وحبكة مثيرة للعجب.

تلك القصص كان يتم تداولها شفاهًا، فأصبحت وبفضل موهبته أول ملحمة تناولت موضوع الخلود في التاريخ البشري.

ملحمة كالكامش وغيرها كثير وجدت طريقها إلى العهد القديم، فأصبح كل التوحيد مرتبطًا بتلك السرديات وتلك الثقافة.

التوحيد أي الديانات الثلاث والزرادشتية أيضًا تؤمن إيمانًا مطلقًا أن هناك حياة بعد الموت.

فيما كتبته وعبر الصفحات السابقة لم يكن إلا عن هذا الموضوع بالذات.

في هذه الملاحظات النهائية سألج إلى موضوع الجنة الأرضية وأقصد بذلك الجنة التي تطورت مفاهيمها في القرن التاسع عشر بالذات ولم تنتهي لحد الآن.

تطورت مفاهيم الجنة من الثبات والسكونية في القرون الوسطى إلى كتابات شهدها القرن السادس عشر والسابع عشر فاعتبرت أن الميت يصل فور موته إلى العالم الروحي، إنما هندسة العالم الآخر بقت كما هو فالجنة في الأعلى والنار في الأسفل. وتطور الأمر وأصبحت السعادة في الجنة أن تحب أكثر وأكثر الله والآخرين. هذا التطور المفاهيمي لم يأتِ اعتباطًا بل تطور وأخذ هذا الشكل على ضوء مفاهيم التطور والتقدم التي سادت عصر النهضة.

القديسة تيريز دو ليسو (Thérèse de Liseux 1873-1897)، كانت جزءًا من كبار المتعلمين بمن فيهم الفيلسوف إيمانويل كانط، أكدت على وجود نشاط وعمل كثيف في الجنة: «لقد أدخلت في حسابي على أن لا أبقى بلا نشاط في الجنة، فأمنيتي أن أعمل من أجل الكنيسة والمسيح وسأسأل ربي أن يمنحني تلك الفعالية.... »[174]

173- راجع كتابي، نقد العقل الدائري، الطبعة الأولى بيت الياسمين، 2015 والطبعة الثانية صدرت عن مكتبة النهضة العربية في بغداد في عام 2019.

174- J Delumeau, Une histoire du Paradis p 431

الجنة السماوية في عصر النهضة

ما ذكرناه عن علم الفلك الحديث أدى إلى ثورة في النظرة إلى العالم وإلى الذات. بل أخرج الذائقة من عالمها القديم لتسكن أقاليم لم تعرفها سابقًا، مما اضطر الكنيسة إلى إعادة النظر بخطابها حتى وصل الأمر بالكنيسة أن تلتزم الصمت في هذا الموضوع.

ومع ذلك بقي موضوع الموت وما بعد الموت والجنة بالذات موضوع فضول لعدد كبير من الناس في الدول التي تقطنها غالبية مسيحية فمن حق الناس ولا سيما المؤمنين، أن تحلم بالجنة.

نحن هنا أمام حقيقتين، تتمثل الأولى بتحول مفهوم الجنة إلى شظايا وإلى صمود مفهوم الأمل. تشظي مفهوم الجنة عبّر عن نفسه بطريقتين، الأولى وعبر مفهوم التقدم والتطور الذي هيمن على الفلسفة الغربية ولا سيما مفاهيم الاشتراكية بطبيعة الحال حيث ازدهرت النظريات والأيديولوجيات عن الجنة الأرضية.

بل وصل الأمر في إنكلترا الفكتورية من (مصادرة الجنة) وضمها إلى الأرض معتبرة أفكار الخلود من بنات الماضي الرث لا يليق إلا بالهنود الحمر[175].

بل وصل الأمر بالبعض إلى اعتبار الجنة عبارة عن جامعة كبيرة لا نتوقف فيها عن التعلم وفي لحظات ليس فيها إلا البهجة، حيث يوجد فيها عدد هائل من المكتبات ومن المخطوطات والبيانات والوثائق[176]. بل نجد في الجنة أنشطتنا المحببة على نفوسنا، عدا القراءة والتأمل، فقد نجد حيواناتنا التي رافقتنا في حياتنا الأرضية[177].

الأمل الذي طرقنا بابه في بداية هذا الكتاب، يعود في العالم المعاصر وعلى ضوء هذه الثقافية التي يعيشها الإنسان في دول الغرب بالذات، ولكن على نحو آخر. من يرفض مفاهيم العدم يأمل بعالم اتصالات تام ومتكامل في المدينة السماوية، حيث الأمل في أن تبقى الاتصالات بين الصداقات والمحبات التي عاشها من مات متواصلة في المدينة السماوية.

175- Ibid, P274.

176- Ibid 279.

177- Ibid, 299300-.

هل هناك فراغ في الجنة

في بداية هذا البحث خصصت فقرة بعنوان (الخوف من الفراغ)، إذ أن الدماغ الإنساني يرفض هذا الأمر.

يذهب المؤرخ الفرنسي والذي كان أستاذًا في كولج دي فرنس ومستشار الفاتيكان جون دوليمو ،إلى أن يروي لنا هذه القصة: «طرحت فلاحة هنغارية سؤالًا في غاية الأهمية: ماذا نفعل في الجنة؟ الجواب كان نعتني بالأزهار ونغني تمجيدًا للرب ويمكننا أن نتخيل أن نكرر عبارة قديس هو قديس هو الرب، دون توقف والسبب هو لا مكان للصمت. الجنة ستكون في عمل دائم فمن لا يغني ويمجد الله عليه أن يعتني بالزهور. وسيقف القديس بطرس في باب الجنة وسيكون بقية القديسين محيطين بالمسيح، إنهم لا يعملون كما يفعل الآخرون بل هم حكام الجنة»[178]

هل هناك فراغ في الجنة الإسلامية؟ كما رأينا أن السرديات المسيحية تذهب إلى معالجة الفراغ في الجنة عبر الصلوات والتسبيح وجمع الزهور. فكما رأينا في سؤال الفلاحة الهنغارية، ماذا نفعل في الجنة؟ نغني للرب ونعتني بالزهور ونحب الله ونحب بعضنا بعضًا.

ليس هناك فراغ في الجنة الإسلامية والدليل على ذلك أن كل الأدبيات المتعلقة بهذا الموضوع لم تتطرق إلى هذا الموضوع.

فالجنة التي صاغتها كتب الحديث النبوي ونسبت إلى النبي محمد وهو بريء مما ينسب إليه، اعتمدت على موضوع الجنس، فالمؤمن يقضي كل وقته بفض البكارات.

178- Ibid, PP425- 430.

هناك كتابات عديدة عن الجنة وتاريخها نذكر منها

Heaven: A History, Second edition Paperback – September 1, 2001by Dr. Colleen McDannell (Author), Bernhard Lang (Author), Colleen McDannell (Author).

publisher Yale University Press; Second edition (September 1, 2001)

Immortality Paperback – April 1, 1997by Paul Edwards (Editor)

publisher : Prometheus; Annotated edition (April 1, 1997)

السرديات الحديثية (نسبة إلى الحديث النبوي)، توجهت في خطابها إلى المؤمن البائس والمحطم لتتلاعب بوعيه وقدراته العقلية.

يراد بالسرديات المتعلقة بالجنة والتي أتينا على ذكر بعضها، حيث ركزت على كل ما هو خارق للعادة ويدخل في باب العجائب، لكي تنسيه بؤسه وشقاءه. المطلوب منه أن يكون صبورًا ولا يثور ويخرج عن طاعة الحاكم الفاسد والفاسق ما دام ذلك السلطان يؤمن بالله ورسوله، فإن خرج نكّل بإسلامه وأصبح من الكافرين.

ثقافة الحديث النبوي هي التي سادت ولم تزل. فكما رأينا أن للمعتزلة وإخوان الصفا رأيًا آخر. وهم ليسوا وحدهم في هذا المضمار فابن سينا الذي لم نتطرق إليه فسر الجنة والنار تفسيرًا فلسفيًا بعيدًا كل البعد عن ثقافة وسرديات الحديث النبوي، فقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام: عالم حسي وعالم خيالي وأخيرًا العالم العقلي. ويقصد بالعالم العقلي الجنة والعالم الخيالي هو النار، أما العالم الحسي فهو عالم القبور.

الجنس بعد الموت

يرتبط الجنس في المقام الأول بالحاجة إلى الإنجاب أولًا في العالم القديم، حيث هيمنة تلك الأيديولوجية، والتي تتفق مع ثقافة المكان. إنما كان هناك متسع من الوقت للحب وممارسة الحب في الحضارات القديمة وحتى العصر الراهن[179].

عبر هذه العبارة «لدينا حياة واحدة فقط»، سادت في الغرب الثقافة القائمة على إنكار الحياة بعد الموت، وهي، أي هذه الثقافة، بمثابة دعوة للانغماس في الحياة الأرضية، بما في ذلك الأمور الجنسية. أفضل من عبر عن ذلك فريدريك نيتشه: «(جسد وروح أنا)، هكذا يتكلم الطفل. ولِمَ لا ينبغي على الناس أن يتكلموا مثل الأطفال؟ لكن اليقظ العارف يقول: جسد أنا بكلّي وكلّيتي ولا شيء غير ذلك؛ ليست الروح سوى كلمة لتسمية شيء ما في الجسد»[180].

هكذا خطب نيتشه، على لسان المتحدث باسمه زرادشت، ضد أولئك الذين

179- راجع كتابنا، البؤس الأنثوي: دور الجنس في الهيمنة على المرأة، بيت الياسمين، 2024.

180- فريدريك نيتشه، هكذا تكلّم زرادشت، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2007، ص 75.

يفضلون احتواء أنفسهم أثناء انتظار الحياة الآخرة.

نفس نيتشه الذي يرى أن (احتقار الحياة الجنسية وتدنيسها بفكرة (النجاسة) هو الخطيئة الحقيقية (المسيح الدجال، 1865).

ليس هناك من كتاب عبّر فيه نيتشه عن مسيحيته مثل (هكذا تكّلم زرادشت). فمع احتقاره للأديان ولا سيما المسيحية، نجده في كتابه هذا يسير على خطا الكتاب المقدس ولا سيما العهد الجديد.

في كتابه هذا بالذات تأكيد على الفلسفة التي أتت بها فلسفة عصر الأنوار. فليس هناك تلك الثنائية التي وجدناها في الفلسفة الإغريقية ولا سيما أرسطو من سيادة مفاهيم الثنائية (نور -ظلام، خير -شر، صالح طالح، جميل - قبيح... إلخ).

ليس هناك وعلى ضوء الفلسفة الحديثة فصل بين الذات والروح، بين الجسد والروح.

وعندما نعود لنيتشه مرة أخرى نجده يؤكد ما ذهب إليه في الصفحات السابقة: «ذاتكم تريد أن تهلك وتضمحل، لذلك غدوتم مستهينين بالجسد! إذ لا طاقة لكم بعد الآن بأن تبدعوا ما يفوق منزلتكم! ولذلك تصبّون الأن جام حنقكم على الحياة وعلى الأرض».[181]

الفكر الآخر الذي يؤمن بامتداد الوجود بعد الموت، يقوم بإعادة السرديات التي وردت في كتبه المقدسة وفي موروثه الثقافي. هناك وعلى ضوء هذه الفلسفة، أرض وسماء، جنة ونار، ومؤمن وكافر... إلخ، لذا من حقنا أن نتساءل هل سيستمر الأزواج والعشاق في ممارسة الحب في الجنة؟

ويرى المؤمنون من اليهود والمسيحيين من عودة الأجسام إلى الحياة عندما يعود المسيح في يوم القيامة وعلى نحو خالد سواء في الجنة أو النار. لكن السؤال ما الذي سنفعله بهذا الجسد؟ يظل دون حل. في الجحيم يعد الكتاب المقدس بالعذاب الذي تم تصويره لإرعاب المؤمن البائس من ذلك اليوم عندما تنتهي هذه الحياة الفانية وتقوم الحياة الأبدية والخالدة، حيث لا شيخوخة ولا أمراض ولا هموم إلخ أعدت للمؤمنين بكلمة الرب، أما الكفرة

181- نفس المرجع، ص77.

والملحدين ومن تقاعس من أداء واجباته الدينية فستكون بانتظاره دار الجحيم[182]

سرديات الجحيم، من جانبها، تعد بالمعاناة والعذاب. أما بالنسبة للفردوس، فسيضمن للمختارين العيش في حضور الله الكامل، في حالة من النعيم الأبدي. ولكن هل هذا كل شيء؟ يقدم الكتاب المقدس العبري والتقليد الحاخامي القليل من التفاصيل حول ما سيحدث في (العالم الآتي)، وهو مصطلح يستخدم على نطاق واسع في التقليد اليهودي.

(في العالم المستقبلي لن يكون هناك أكل ولا شرب ولا إنجاب ولا تجارة ولا غيرة ولا كراهية ولا منافسة، بل يجلس الأبرار وتاجهم على رؤوسهم ويستمتعون بروعة الحضور الإلهي)، نقرأ ببساطة في التلمود. وإذا كان هناك حديث عن غياب «الإنجاب»، فإن النص لا يذكر المتعة الجنسية بوضوح. (لقد تم الوعد بشيء ما، ولكن هذا الشيء مخفي)، علق الحاخام جوزي أيزنبرغ (1933-2017) لاحقًا في كتاب البقاء بعد الموت[183]

من جانبه، يستحضر يسوع في الأناجيل (ثمرة الكرمة) التي سيشربها مع الذين سيدخلون إلى (ملكوت أبيه). (في القيامة، لا يأخذ الرجال نساء، ولا زوجات من الأزواج، بل يكونون مثل ملائكة الله في السماء)، يقول نفس الشيء في متى (22، 30)، دون أن يشير صراحةً إلى المتعة الجسدية.

تهدف هذه الخطبة، في الواقع، إلى الرد على حجج الصدوقيين، الذين يؤكدون أن القيامة هي أسطورة: ولإثبات أطروحتهم، سألوا يسوع، سعيًا إلى الإيقاع به، أي زوج سيجد بعد الموت امرأة تزوجت عدة إخوة ماتوا الواحد تلو الآخر. أما رؤيا يوحنا فهي تتنبأ ببساطة بأن (الغالبين) سيأكلون من (شجرة الحياة الموضوعة في فردوس الله)، دون أن يقول المزيد[184].

182- راجع كتابي، تاريخ الخوف، الطبعة الثانية 2023.

183- Gaétan Supertino, Fera-t-on l'amour après la mort ? Ce qu'en disent les religions, Le monde des religion, n° 89, mai-juin 2018.

184- Ibid.

هل مارس آدم وحواء الحب؟

وسيحاول التفسير والأدب أن يملأ هذا الفراغ الوصفي في الكتاب المقدس، محاولان تصور حياة الأبرار في الآخرة. كتب القديس غريغوريوس الكبير (توفي عام 604): «هناك [في السماء]، نور بلا كسوف، وفرح بلا أنين، ورغبة بلا ألم». «في هذا الوطن السماوي الحياة بلا موت، والشباب بلا شيخوخة (...)، واللذة بلا اشمئزاز (...)، والجمال بلا خجل، والرشاقة بلا سمنة، والقوة بلا ضعف، واللذة بلا قلق»، قال اللاهوتي هيوغ. سيستمر دي سان فيكتور (القرن الثاني عشر) لاحقًا.[185]

ومع ذلك، لا يوجد نص رسمي يشير بوضوح إلى وجود حياة جنسية في الجنة. حتى أن القديس أوغوسطين (354-430) يستبعدها تمامًا: بالنسبة لأب الكنيسة هذا، الرغبة الجنسية مرتبطة بالخطيئة ولن يشعر الإنسان بعد الآن بـ (الحاجة) إلى ممارسة علاقات جنسية في الجنة. هناك في الأعلى، لم تعد هناك حاجة للإنجاب. وبالتالي فإن الإنسان لم يعد بحاجة إلى الحياة الجنسية.

لكن هل ربط اليهود والمسيحيون دائمًا الجنس بالإنجاب؟ إلى حد كبير جدًا، نعم. لكن القديس أوغسطين نفسه طرح فرضية معاكسة (انتهى به الأمر إلى رفضها)، وطرح على نفسه سؤالًا حاسمًا: في (جنة عدن)، هل مارس آدم وحواء الحب قبل أن يأكلا الفاكهة المحرمة؟ قبل أن يُجبرا على التكاثر لإدامة الحياة وعبر الجنس البشري.

وفي هذا الموضوع أيضًا، الكتاب المقدس غامض. في البداية، كان آدم وحواء «عاريين لكيلا يخجل أحدهما من الآخر» كما يقول سفر التكوين.

ومع ذلك، لم يأخذ أي لاهوتي بارز مثل هذه الفرضية على محمل الجد. فقد بشرت بعض الطوائف الألفية، في القرون الأولى من عصرنا، بتأسيس المسيح المستقبلي لمُلك أرضي يجب أن يستمر ألف سنة، حيث سيكون المختارون قادرين على الانغماس في الملذات الجسدية دون خوف من الخطيئة، قبل دخول ملكوت الله. ومع ذلك، فقد حارب أنصار الألفية ببسالة من قبل أنصار العقيدة بالعديد من السلوكيات التي تعتبر غير مشروعة، وتختلف باختلاف التيارات.

185- Ibid.

وعندما نعود مرة أخرى للإسلام فنجد أن القرآن لم يشر علانية إلى موضوع الجنس. من قام بذلك وأفرط هم كتّاب الحديث المنسوب للنبي محمد.

جنة الحديث النبوي لا علاقة لها بما كتب المعتزلة وإخوان الصفا ولا ابن رشد والصوفية مثلًا.

ومع ذلك، يجب أن نكون حذرين من أي استنتاجات متسرعة. لأنه بالنسبة للعديد من المفسرين المسلمين، فإن الآيات المذكورة أعلاه هي قبل كل شيء حالات روحية رمزية ومعينة، و(إضاءات) إلهية يتلقاها الإنسان الفاضل، (تأتي من واقع لا نهائي يظهر في كل لحظة في مجد جديد)، كما يقول المثل، هكذا يكتب الفيلسوف الباكستاني محمد إقبال.

دون أن ننسى أن القرآن يقدم الجنة قبل كل شيء باعتبارها دار السلام، أي مكان السعادة والسعادة قبل كل شيء، وأن (اللذة الأعظم) تظل في الشراكة مع الله (9، 72).

كما اقترح البعض ترجمة مصطلح (الحور) إلى (العنب الأبيض)، في إشارة أحيانًا إلى (ثمرة الكرمة) الواردة في الكتاب المقدس، حتى لو ظل هذا التفسير مثيرًا للجدل، سواء في الأوساط الأكاديمية أو الدينية.

وماذا عن الديانات الشرقية؟

في العديد من التقاليد الشرقية (البوذية والهندوسية واليابانية في المقدمة)، يجب على الإنسان، لتحقيق مفهوم الخلاص، أن يصل إلى النيرفانا.

وهي حالة يصعب وصفها، ويتم تقديمها أحيانًا على أنها اختفاء خالص وبسيط لما نسميه (الوعي)، أو اندماجه مع الكل العالمي، أو حتى كحالة من النعيم الأبدي.

ومع ذلك، فهو ليس مكانًا بأي حال من الأحوال. وقليل من الناس يصلون إلى السكينة. في الواقع، معظم الرجال مقدر لهم التناسخ.

لذلك، بعد الموت، سيتمكن الإنسان مرة أخرى، طالما تجّسد كإنسان أو حيوان، من ممارسة العلاقات الجنسية مرة أخرى. ولكن هذا لا ينصح به حقًا! الجنس، الذي غالبًا ما يكون مصحوبًا بنصيبه من المعاناة (الإحباط، والغيرة، والإدمان، ونفاد الصبر، والخوف، وما إلى ذلك)، يعتبر قبل كل شيء

عقبة في طريق الصحوة.

الطاوية في الصين، نظرت للجنس نظرة متفائلة لم نجد لها أثرًا في بقية ثقافات العالم، يعتبر الجنس ساحة تدريب مثالية لتحقيق التوازن بين طاقات الين واليانغ. ومع ذلك، فهم لا يؤمنون بـ (الحياة الآخرة) في حد ذاتها. الرجال الأكثر كمالًا يحصلون على الخلود هنا والآن[186].

آداب الجنة

شغل موضوع الخلود الذهن الإنساني في حقب بعيدة قد تمتد الى أكثر من مليون سنة. فكما ذكرنا سابقاً ولعدة مرات، فإن كبار المختصين من الأنثروبولوجيين متفقين على هذا الأمر والسبب العثور في قبر من مات ومنذ مدة تمتد الى 300000 سنة، على مواد مرتبطة بالحياة كالطعام والشراب والملابس وعدة ذلك الانسان في الصيد.

العصر الكتابي أي قبل 5000 عام من التقويم المعاصر، يقدم لنا مادة في غاية الأهمية عن هذا الموضوع، فعبر ملحمة كلكامش السومرية وكتاب الموتى المصري، باعتبارهما الأقدم، نجد البحث عن الخلود حاضراً حضوراً فاعلاً في تلك الحضارات[187] .

لم يعرف الجنة هومير الاغريقي، بل جزيرة كاليبسو التي وصفها في الأوديسة دون أن تحمل اسمها. في تلك الجزيرة، قامت الحورية ذو خصائل الشعر المجعّدة باحتجاز يوليسيس هناك لعدة سنوات، الملاح المفقود الذي وقعت في حبه إلى حد الجنون. لقد وعدته بالخلود إذا وافق على البقاء وعدم العودة إلى البحر أبدًا، فهي تفتح له ذراعيها كل ليلة، بينما يمكنه أن يسكر طوال اليوم في حديقة الأحلام في هذا الغرب الأقصى، حيث تستريح الشمس كل مساء، بعد غروبها.

اسم كاليبسو مشتق من الفعل kaluptô، « والذي يعني يختبئ». (لاحظ

186- فالح مهدي، البؤس الأنثوي: دور الجنس في الهيمنة على المرأة، بيت الياسمين، القاهرة، 2024.

187- راجع كتابي، تاريخ الخوف، ففيه مادة مهمة عن رحلة كالكامش بحثاً عن الخلود وعن كتاب الموتى المصري.

إن من معاني الجنة في الإسلام من الناحية اللغوية، الاختفاء)

كانت الحورية، ابنة أطلس، منعزلة في مسكن مخفي ومحمي حيث الجنة في كل مكان ودائمًا. وقد زارها هيرميس رسول الرب زيوس ليطلب منها أن تعيد ليوليسيس حريته.

ما يهمنا هنا وفي هذه الملحمة العظيمة، الحضور الفاعل لذلك الحيز الأسطوري، حيث نجد أشجار مزهرة طول العام ولا سيما العنب. كل الأشجار محملة بالعناقيد، وبالقرب من بعضها البعض، وفي صف واحد. وتصب أربعة ينابيع أمواجها صافية، ثم تتشعب مياهها عبر المروج الناعمة، أو البقدونس الأخضر والبنفسج. منذ البداية في هذه الأماكن، لا يوجد خالد إلا وقد فُتنت عيناه، وابتهجت روحه.

الغنى الإسلامي الى حد الترف

الثقافة الدينية الإسلامية بمعناها الواسع كانت شديدة الغنى فيما يتعلق بالجنة. فأول نص عجائبي نجده في القرآن تمثل برحلة رسول المسلمين بما يطلق عليه الأسراء والمعراج

سيكون هذا النص مادة مُؤسسة لما سنجده لاحقاً عن موضوع الجنة والنار وفي كتب الحديث وكتابات بعض المفكرين كالغزالي وابن تيمية وابن قيم الجوزية الخ.

الإسراء والمعراج عبارة عن حادثة جرت للرسول ما بين السنة الحادية عشرة إلى السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية. ونظراً لأهميتها فمن المتفق عليه في المدونات الإسلامية انها من معجزات النبي محمد، ومن الأحداث البارزة في تاريخ الإسلام.

يؤمن المسلمون أن الله أسرى نبيه محمد على البراق مع جبريل ليلاً من المسجد الحرام في مكة، الى بيت القدس.

وأنه انتقل بعد ذلك من القدس وبرفقة جبريل في رحلة سماوية على دابة تسمى البراق أو حسب التعبير الإسلامي عرج به إلى الملأ الأعلى عند سدرة المنتهى أي إلى أقصى مكان يمكن الوصول إليهِ في السماء وعاد بعد ذلك وفي نفس الليلة.

وعلى ضوء هذا الحدث المبهر، سُميت سورة الإسراء على اسم الحدث،

حيث ورد في القرآن التالي «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» الإسراء:1.

والحقيقة هناك رحلتين الأولى أرضية «الإسراء « والثانية سماوية ويطلق عليها « المعراج». هذا «الانتقال العجيب بالقياس إلى مألوف البشر، الذي تمّ بقدرة الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والوصول إليه في سرعة تتجاوز الخيال حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا»[188] وأما المعراج: فهو الرحلة السماوية والارتفاع والارتقاء من عالم الأرض إلى عالم السماء، حيث سدرة المنتهى، ثم الرجوع بعد ذلك إلى المسجد الحرام، ففي سورة النجم:نجد التالي ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾النجم :12-18.

وعلى الرغم من أن «الإسراء» و «المعراج» حدثا في نفس الليلة، فإن موضعَي ورودهما في القرآن الكريم لم يترادفا، بل ذكر الإسراء أولا (في سورة الإسراء)، وتأخر الحديث عن المعراج إلى سورة النجم التي وضعت بعد سورة الإسراء (في ترتيب سور القرآن). «وقد تكون الحكمة في هذا هي جعل الإسراء (وهو الرحلة الأرضية) مقدمة للإخبار بالمعراج، وهي الرحلة العلوية التي ذهل الناس عندما أخبروا بها، فارتد عن الإسلام وقتها ضعاف الإيمان، بينما ظل على الإيمان أقوياؤه».[189]

يستند كارم السيد غنيم، كاتب هذا المقال الذي أشرنا له تواً لتبرير ذلك الحدث الخارق للعادة، على نظرية اينشتاين بما يطلق عليه النسبية، دون ان يدرك ان الزمن الأرضي لا علاقة له بالزمن الكوني، بدليل رحلات رواد الفضاء التي القمر والمريخ مثلاً. فهم ينطلقون إلى الفضاء وعبر الزمن الأرضي ويعودون الى الأرض وفق نسب الزمن.

188- الشيخ محمد. متولي الشعراوي، الإسراء والمعراج، دار الجيل بيروت، ومكتبة التراث الإسلامي في القاهرة،2003، ومحمد الطيب النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، بيروت - لبنان: دار الندوة الجديدة، صفحة 153.

189- كارم السيد غنيم، معجزة الإسراء والمعراج موقع إعجاز القرآن والسنة، في ديسمبر 2019.

جنة أبي العلاء المعري

كتبت هذه التحفة الأدبية التي قال عنها طه حسين: «انها دّرة الأدب العربي كله لا استثني منه شيئاً»، وقال عنها محمود عباس العقاد، «أتمنى ان أكون في الجنة، حيث بها مكتبة، وأهم ما فيها رسالة الغفران»[190]

ولد هذا الكاتب والشاعر والفيلسوف في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس (أي العاشر والحادي عشر من التقويم المعاصر).

أصيب أبو العلاْء بالعمى في سن مبكرة من حياته، انما شأنه شأن طه حسين كاد ان يكون البصير الوحيد في زمنه. القرن الرابع الهجري يمثل أرقى ما وصلت اليه الحضارة العباسية ثقافياً.

رسالة الغفران وما فيها من إبداع، تمثل نمطاً أدبياً لم يعرفهِ العالم آنذاك، وكتبها ذلك الفطن في لحظة يأس وفقدان الامل.

فبحسه الرفيع كان يدرك ان الحضارة الإسلامية آيلة الى السقوط. كتب هذا العمل وهو في الستين من عمره، وربما يكون آخر اعماله.

في الأصل رسالة الغفران رد ضمني على رسالة ابن القارح الذي كتبها لأبي العلاء. وهي رحلة في الحياة الآخرة، لغزٌ أدبي مُحيّر إلى اليوم.

لكن هذا ليس موضوعنا هنا. موضوعنا هو ذلك النص الطويل الذي أملاه المعري يوماً، وقد بلغت به الشيخوخة مبلغاً كبيراً، فكان يدرك ان أيامه معدودات ولم ترحمه الدنيا لا في طفولته ولا في شبابه بسبب فقدان بصره.

في رسالته هذه يصف لنا بل يدخلنا معه في عالم الجنة والنار الذي ابتكره .

في جنته وناره وليس فيها سوى الشعراء والأدباء يقابل السابقين عليه ويصف حياتهم في الآخرة، على ضوء ما فعلوه في الحياة الدنيا، متحدثاً عن شعرهم وحياتهم وما اقترفوه من شر أو ما قاموا به من خير.

رسالة الغفران «هي قبل كل شيء نص فلسفي يتأمل الوجود والتاريخ والحياة، ويتأمل أيضاً ضروب الإبداع الإنساني، وهذا النص من الواضح أن أباً العلاء إنما شاء فيه، وعبر وصفه وتحليله للشخصيات التي يلتقيها خلال رحلته، من شعراء وقادة وأدباء وفلاسفة ومفكريـن ومتكلمين، شاء فيه أن

190- وسيم السيسي، رسالة الغفران، المصري اليوم11--5 2024.

يعبر أول ما يعبر عن ذلك التمزق الذي كان، هو، يعيشه، بين إيمانه وشكه، يأسه وأمله، متسائلاً عن جدوى كل ما عاش فيه وله، ومتسائلاً عن مكان الإنسان في هذا الكون. فمن ناحية، تكشف لنا «الرسالة» كم أن المعري مؤمن، يعيش إيمانه بكل جوارحه، يؤمـن بوحدة الله ورسالة نبيه، وكم أنه في الوقت نفسـه شكاك، لا يرى فائدة في الصورة التي يصنعها المتكلمون للدين. ولعل في هذه السمة الأخيرة مِـن سمات موقف المعري، في «رسالة الغفران» ما شجع الكثيرين على اتهامه بالزندقة والكفر»[191].

تكتب الدكتورة بنت الشاطئ وهي أفضل من حقق هذه الرسالة الشيقة والعميقة، عن المعري، هذه الكلمات التي تعبر عن فهم لهذا الإنسان الذي اعتزل الدنيا «صائم الدهر الذي حرم على نفسه لذات الدنيا، ملأ جنته بالخمر والنساء، وتفنن في حشد صنوف من اللذائذ الحسية والشهوات المصورة».

ويمكننا اختصار محتوى هذه التحفة الأدبية من ان أبو العلاء المعري استلم رسالة من صديق له فقام بالرد على تلك الرسالة لابن القارح.

من الواضح واليقيني قراءة المعري لمدونات الحديث النبوي وتشبعه بها، فهو من كبار العارفين بثقافة الحديث النبوي عن الجنة. إنما وكأي مبدع وعبقري مثله، لم يردد ما ورد في الحديث النبوي، بل خلق جنته التي دفعته ثقافته الترفة ومخيلته الفذة لإعادة صياغتها كما تراءى له.

في جنة المعري شعراء وأدباء منح بعضهم بطاقة الدخول الى جنته ومنعها عن البعض الآخر. فكانت الجنة من نصيب زهير بن أبي سلمى والأعشى والنابغة الذبياني الخ، في حين جعل النار مثوى امرؤ القيس وعنترة بن شداد وبشار بن برد الخ.

الزمن الذي ابتكره أبو العلاء، هو صدى للزمن الذي عاش فيه واعتزل الدنيا، فالقرن الرابع والخامس يمثل لحظة انهيار الخلافة العباسية. وكما نعلم ان لحظة الانحطاط السياسية ترافقها لحظة ازدهار ثقافي لا مثيل له تقريبا.

فمن خلال الرحلة إلى العالم الآخر، تمكن من خلق مكانٍ أسطوري عبّر

191- إبراهيم العريس،» رسالة الغفران» للمعري: البرهان القاطع على فلسفة رهين المحبسين. العربية في 3 مارس 2018.

فيه عن فهمه لذلك العالم الأرضي الذي يعيش فيه، فكانت السخرية اللاذعة وقدرته الفائقة على النقد وفهمه المتميز لآيات القرآن.

وحتى يحمي نفسه من الدهماء كان يبرر ما يقوله بالعودة الى القرآن. يقدّم السارد مثلاً وفي الآية 15 من سورة محمد كدليل ـ على وجود هذه الانهار في الجنة. وتأكيده على نهر العسل ومنافع هذا العسل وكأنّه ذاقه حقيقة، مستشهدا بآية قرآنية أخرى.

لا يكتفي المعري في رسالة الغفران بالاقتباس من القرآن فحسب، بل يضيف ما شاء له، فنجد ذلك مثلاً في تحريم الخمر على الأعشى رغم أن شربه من نعيم الجنة، ومشاهد الحلب والقنص في الجنة التي لم يذكر شيء عنها في القرآن[192].

ننهي هذا الجزء من بحثنا هذا بفقرتين من رسالة المعري الفذة، لا في تاريخ الإسلام فحسب بل في تاريخ الإنسانية. فعبر هذه العبارات التي يراد بها إقامة الصلح بين الندماء، نجده ناقداً متميزاً لعصره «فيطلع فيرى « ابليس» لعنه الله – وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل، ومقامع الحديد..... فيقول: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه! لقد اهلكت من بني «آدم» طوائف لا يعلم عددها إلا الله . فيقول«ابليس»: من الرجل؟ فيقول «انا فلان ابن فلان من اهل حلب، كانت صناعتي الأدب، اتقرب بها الى الملوك! فيقول: بئس الصناعة، انها تهب غُفّة[193] من العيش لا يتسع لها العيال، وإنها لمزلة بالقدم وكم اهلكت مثلك! فهنيئاً لك إذا نجوت ... ولكن اسألك عن خبر تخْبِرُنيه : ان الخمر حُرّمت عليكم في الدنيا واحُلت لكم في الآخرة،

192- نفس المرجع وايضاً صالح بن رمضان، المعري ورسالة الغفران، محاورة الحدود وحدود المحاورة، دار اليمامة للنشر والتوزيع، تونس، ط2، 1993، بوجمعة بوبعيو، حضور الرؤيا واختفاء المتن، دارسة في علاقة الاسطورة بالشعر العربي المعاصر، مطبعة المعارف عنابة، ط1، 2006

1992، طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1963

عبد القادر زيدان، قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ج2، ط1،2007، مصطفى السقا وآخرون، تعريف القدماء بأبي العلاء، إشراف طه حسين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، ط4، 1986.

193- الغُفّة :بؤس العيش وغفة الاناء بقية ما فيه . بمعنى اخر الفتات.

فهل يفعل أهل الجنة بالوِلدانِ المُخلدين، فعل أهل القريات[194]......» [195]

وكما يذهب النقاد في مجال الأدب، فأن الروائي مثلاً وحتى لو تطرق الى القمر، فأنه يتحدث عن ذاته.

في هذه الصفحة وفي ذلك الحوار، عّبر الشيطان عما يجول في ذهن ابي العلاء، فأبليس صاحب مبدأ حيث يقول لمحدثه عن بضاعة الأدب التي يتقرب بها من الملوك « بئس البضاعة وتفقد المرء شرفه. وعلى لسان «ابليس» مرة اخرى، نجد الحضور الطاغي لأبي العلاء عبر السؤال عن الخمرة ومنعها في الدنيا في حين هناك نهر من الخمر في الجنة لا ينضب.

لم يكتفي الشيطان بذلك بل سأله عن الولدان المخلدين: هل هم من قوم لوط؟ ومع استناد الرواي الى القرآن للرد على قول ابليس « ولهم فيها ازواج مُطهّرَةٌ وهم فيها خالدون (البقرة 25). فقد فعل هنا كما يفعل في كل مرة يواجهه سؤال أو مسألة وردت في كتاب المسلمين الأول، انما نجده في جنته، وحتى يمنع الشبهة عنه بالزندقة والكفر الذي قد يؤدي الى سفك دمه، يلجأ الى القرآن نفسه. علما الآية لا تنفي ولا تؤكد ما ذهب اليه الشيطان، بدليل هذا العدد المهول من الحوريات والغلمان.

أما الفقرة الثانية، فهي شديدة الوضوح وتحوي سخرية ومرارة من كائن شديد الذكاء والحساسية، وهي عن الحور العين: «ويخطر في نفسه، وهو ساجد، أنَّ تلك الجارية، على حسنها، ضاويةٌ، فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالجٍ، وأنقاء الدهناء، وأرملة يبرين وبني سعدٍ، فيهال من قدرة اللّطيف الخبير ويقول: يا رازق المشرقة سناها، ومبلغ السائلة مناها، والذي فعل ما أعجز وهال، ودعا إلى الحلم الجهال، أسألك أن تقصر بوص هذه الحورية على ميلٍ في ميل، فقد جاز بها قدرك حد التأميل. فيقال له: أنت مخير في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيقتصر من ذلك على الإرادة...»[196]

هذا الحس العميق بالسخرية دفعه لكي يكون ناقداً فذاً لأدب الجنة الذي

194- أهل القريات: يعني قوم لوط.

195- أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ص309 ط 9، (د.ت).

196- نفس المرجع،ص289.

ورد في الحديث المنسوب للنبي محمد. أبو العلاء على علم بطبيعة الرجال ومفاهيم الذوق والجمال في تلك الفترة الزمنية، فالرجال يرغبون بالمرأة البيضاء والممتلئة، فنراه يقول وعبر الحوار بين ملَك وأحد الداخلين الى بيت اللذات ما يميز جنة المعري، ويمنحها هذه النكهة.

يقوم الحوار بعد أن يرى ذلك المؤمن حورية بالغة الحسن والجمال لكن فيها عيب لا يغتفر، فهي ضاوية، أي نحيفة. ما قاله لذاته معبراً عن آساه لن يبقى لحظة واحدة، فما ان يرفع رأسه من السجود، حتى يجد أمامه ما يثير العجب في تلك الحورية، فقد أصبحت عجيزتها وبقدرة رب الجنة، تشبه تلاً أو مرتفعًا من الرمال كُوّمته الرياح في الصحاري أو على شواطئ المحيطات والبحيرات. هنا يحتار العبد المسكين بأمره فيطلب من ربه ان يقّصر من عجيزة هذه الحورية... فيقال له من قبل الملائكة في بيت الخلود «انت مخّير فلك تكوين هذه الجارية كما تشاء».

في جنة ابي العلاء ما يثير العجب ولم اعثر على نص في زمنه، يكشف عن روح السخرية والدعابة كما وجد عند هذا الانسان البصير.

اختياره للعجيزة في هذا النص لم يكن اعتباطاً، بل هو ومع زهده على علم بأذواق العامة. فالعجيزة تلهب مخيلة الرجال وتثير غريزتهم الحيوانية. وعند الرجوع الى قواميس اللغة نجد التالي من مرادفات المؤخرة : دُبُر ، رِدْف ، عَجْز ، كَفل ،مَقْعَدَة ، مُؤَخِّر ، مُؤَخِّرة ، وَراء ، إِخْفاق ، ارتخاء ،استذلال ، إِسْتِضْعاف ، إِنْكِسار ، خَوْر خَيْبَة .

****

لا إمام سوى العقل

وقبل الولوج الى الفقرة التالية والمتعلقة بدانتي، لا بد لي من القول مرة اخرى ان دمارنا وتخلفنا يسكن فينا ولم يغادرنا. إيطاليا وبتأثر الكوميديا الإلهية، اخذت باللهجة التوسكانية التي كتب بها دانتي مؤلفه العظيم، في حين قامت داعش وفي عام 2013 بقطع رأس تمثال لأبي العلاء في مدينة المعرة السورية. واتهم ناشطون في مواقع التواصل الاجتماعي «جبهة النّصرة» بالوقوف خلف هذا الامر المشين وتم عرض صور للتمثال عليه آثار طلقات نارية، ورمي على الأرض. ولكن «في قفزة زمنية، وفي صباح الثاني من آذار، وصل الى ضاحية «مونتري» الباريسية، النّصب التذكاري للشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعرّي، بعد رحلة استغرقت عدة أيام. لقد انطلق التمثال من مدينة غرناطة الإسبانية، حيث شكّلته من البرونز يدا النحات السوري عاصم الباشا...»[197].

وهكذا وبعد مرور أكثر من ألف عام على وفاة هذه الشخصية الفذة وصاحب المقولة الشهيرة» لا إمام سوى العقل»، هذه المقولة التي سار على خطاها عصر الأنوار الأوربي، وأصبحت من المسلمات في الحضارة المعاصرة، لا زالت يتيمة في العالم الإسلامي والعربي على وجه التحديد، فمعظم ان لم نقل كل الحركات المعادية للعقل انطلقت من العالم العربي.

واتهم هذا الانسان الذي لا تجود به الدنيا في كل ساعة، قديما وحديثاً بالزندقة والكفر كما ورد في كتاب أبن كثير «البداية والنهاية» والإمام ابن الجوزي، وهناك من دافع عنه قديما وحديثاً.

الاستبداد ليس سياسياً في هذه المنطقة من العالم فحسب، بل هو اولاً وقبل كل شيء، استبداد الجهل وتحكمه بالدهماء.

عندما نقرأ هذه العبارة «لا إمام سوى العقل» نقف مشدوهين، أمام رهافة حس وذكاء أبو العلاء، فهو ولد وعاش ومات في قلب الإمبراطورية العباسية وهو دون ريب أحد اعظم ابناءها النجباء. هذا القول لم يرد سهواً في شعر المعري، بل كان في عالم يسوده النقل وليس العقل. فمن نقلوا الحديث ومنذ القرن الثالث الهجري أشهروا سيوفهم بوجه العقل.

197- شاكر الإنباري(تحرير)، لا إمام سوى العقل، نجمة للنشر الإلكتروني، ص4.

دانتي والكوميديا الإلهية

الكوميديا الإلهية هي بلا شك اللوحة الجدارية الشعرية الأكثر براعة التي تم تخصيصها للرؤية المسيحية للحياة الآخرة. يروي دانتي الرحلة المجازية التي كان سيقطعها في سبعة أيام، في الأسبوع المقدس لعام 1300، إلى الجحيم بقيادة فيرجيل، ثم إلى المطهر، وأخيرا إلى الجنة، عابرا السماوات التسعة لنظام بطليموس، حتى الإمبراطورية حيث يوجد الرب، جالساً على عرشه. في كل مرحلة يلتقي بالشخصيات الأسطورية والرجال والنساء المشهورين. إنه يتلاعب وبمهارة بكل السجلات، الواقعية والمجازية والصوفية، لاستعادة التمثيلات التي يمتلكها المجتمع الإنساني في القرن الرابع عشر عن أماكن الإدانة وأماكن الاختيار التي يقيم فيها المتوفى[198]

فعمارة الآخرة في رؤية الشاعر المجازية لها، هي مفردة ولا نستطيع تمثيلها إلا بالاعتماد على المعرفة الكونية للعصر. تقع الأرض في مركز الكون وتدور النجوم حولها. ما تم خلقه هو جيد بطبيعته. الشر ليس له حقيقة جوهرية. إنه الحرمان من الخير، وهي الحالة التي يجد فيها نفسه، بسبب الكبرياء حيث يرفض الإنسان قبول الكمال الأولي الذي يحمله بداخله.

الهاوية التي يغرق فيها من يرفض الخير يرمز إليها بالجحيم، وهي هاوية مظلمة على شكل مخروط مقلوب يغوص تحت القشرة الأرضية في نصف الكرة الشمالي. يقع طرف المخروط، حيث يقيم لوسيفر إلى الأبد، في مركز الأرض في الجزء الأبعد من الكون عن نور الله.

لقد جعل لوسيفر، في سقوطه، الأرض تظهر نقيضة أورشليم السماوية، على شكل جبل عالٍ، حيث يرتفع المطهر من خلال مصاطب متتالية. على كل من الحواف السبعة تتم معاقبة واحدة من الخطايا السبع المميتة، أو بالأحرى تطهيرها.

198- كوميديا دانتي أليجييرى» الفلونسي مولداً لا خُلقاً»، النشيد الأول، ترجمة حسن عثمان، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، (د. ت)، راجع التصدير المتميز الذي قدمه المترجم من ص7 الى ص77، والذي يعادل كتاباً لوحده، ففيه مادة تنم عن معرفة وعلم. ومن ثم صدر وعن نفس الدار ولنفس هذا المترجم البارع: الكوميديا الإلهية: المطهر، 1964 . حيث كتب مقدمة لهذا العمل لا تقل بهاء عن المقدمة التي كتبها للجزء الأول " الجحيم"، وأخيرا: الفردوس (د.ت).

وفي قمة هذا الجبل، الذي يضيق كلما اقتربت من قمته، توجد غابة منعشة.

هذا هو الفردوس الأرضي، الذي يمثل الحد بين عالم مادي وعالم غير مادي بحت، يزداد اتساعًا وإشراقًا مع تقدم المرء هناك.

والأخير هو الفردوس السماوي، أي فردوس الإيمان المسيحي. فوق السماوات تمتد جنة الصدقة والرحمة حيث يقيم الله وملائكته وقديسيه.

من المفترض أنه لا يمكن تجنب الصعوبة التي ذكرناها في تصور الحياة الآخرة التي لا تمتد إلى فضاء مماثل للحياة الأرضية.

لا يمكننا هنا أن نقوم مع دانتي بالرحلة التمهيدية بأكملها إلى الجحيم والمطهر، فلنفترض أننا وصلنا إلى مدرجات المطهر الأخيرة. وفي أعلى الجبل تقع هضبة الجنة الخضراء على الأرض. يصفه دانتي مستوحيًا الإلهام من سفر التكوين ومعلمي الكنيسة. إنها حديقة المسرات التي تتمتع بالربيع الدائم. تنمو الأشجار والزهور هناك بكثرة. وفي وسطها ترتفع شجرة أعلى بكثير من جميع الأشجار الأخرى، هي شجرة الحياة، التي لا تتغذى من جذور تحت الأرض، بل من تاج، وتستمد عصارتها من الله نفسه.

ينبوع الماء الحي، ينبوع النعمة، يتدفق في المروج الأبدية ويشكل نهرًا ينقسم إلى فرعين. لدى المرء القدرة على تطهير نفسه؛ حيث لا وجود للشر هناك.

في هذا المكان من الأشجار المزروعة التي يمكن أن تذكرنا، في كثير من النواحي، بحدائق بابل والتي تحولت وعبر السرد الذي ورد في كتاب التكوين، الى أسطورة.

يتمتع الشاعر برؤية عظيمة تجتاح تاريخ الإنسانية وتدور كما في موكب صوفي تتخلله مراجع أسطورية. الشخصيات الرئيسية في العهد القديم والأناجيل بالإضافة إلى أسرار الإيمان الأساسية المتجسدة في رموز غريبة. إنها تصور رؤيا جديدة لبنيان الحاج الخاطئ الذي يريد أن يتطهر من أخطائه ويتأمل النور السماوي بنظرة نقية.

في الفردوس تعيش النفوس الحياة الخارقة للطبيعة بالنعمة وتستحق النعيم ورؤية الجوهر الإلهي.

جميع المباركين يسكنون في سماء واحدة، حيث يعانق النور المحبة، ويتمتع كل منهم هناك، بحسب ذوقه، بسعادة كاملة للرؤية الإلهية.

وصف دانتي السلطة الهرمية، وهي مكونة من تسع سماوات متدرجة من الأسفل الى الأعلى، أي السماء التي يسكنها الله ووصفها هذا الشاعر الفذ، بالإمبراطورية حيث يشع النور المقدس بالحب الإلهي.

في الجنة تجد النفوس، الموزعة وفقًا لتسلسل هرمي من المزايا والنعم ما لا يمكن وصفه، انه عالم الفضيلة والقناعة الذي يتوافق بشكل أفضل مع الفضيلة المفضلة أو المزروعة على الأرض.

في مقدمة حسن عثمان الغنية حقاً، إشارات مهمة عن تأثر دانتي برسالة الغفران. فعندما أصدر «كامل كيلاني رسالة الغفران للمعري سنة 1930، لخص في آخر كتابه جحيم دانتي تلخيصاً وافياً، وأشار الى أثر المعرّي في دانتي...»[199]. ويورد عددًا من الدراسات والبحوث التي تطرقت الى تلك العلاقة في مصر بالذات.

وفي عام 1949 أصدر إنريكو تشيرولي، المستشرق الإيطالي وسفير بلاده في طهران، مؤلفاً بعنوان «كتاب المعراج ومسألة المصادر العربية-الاسبانية للكوميديا الإلهية»[200]، حيث يؤكد هذا المستشرق والدبلوماسي الإيطالي عن تأثر دانتي بالثقافة الإسلامية المتعلقة بالجنة والنار ، فهي وكما ذكرت غنية جداً.

هناك كتابات عظيمة عن الخلود والجنة منها على سبيل المثال (الجنة المفقودة) للشاعر الاعمى الإنكليزي ميلتون، وايضاً بل قبل ذلك أبن طفيل (1100-1185) وكتابه «حيّ بن يقظان» ورواية دانيل ديفو « روبنسون كروزو » والتي نشرتِ لأول مرة في سنة 1719، انما نتوقف مع دانتي.

المؤمن والخلق غير المكتمل

الإيمان بطبيعته يتضمن رؤية أيديولوجية للنصوص التي لا يمكن ان تكون إلا مقدسة ،حتى في الأيديوجيات العلمانية، التي لم تنجُ من هذه الآفة.

كان هناك دائما وما زال اليوم أتباع للقراءة الحرفية لسفر التكوين، والذي هو موضوع بحثنا فيما يتعلق بالخلق وبالجنة .

199- حسن عثمان، المرجع السابق، 74.

200- نفس المرجع 60.

ومع ان سفر التكوين وخلق العالم في ستة أيام يرفضه العقل السليم ، إنما لا زال هناك رصيد غير محدود لهذا السفر، أي أخذ ماورد فيه كحقائق مطلقة. فأي تفسير عقلاني يأخذ بمعطيات العلوم المعاصرة ،قد يبدو لهم خيانة لا تغتفر.فهناك من يؤمن بمفهوم الخلق ومن المؤمنين في الولايات المتحدة بإعتباره البلد الأكثر علماً ومعرفة ، وهم ليسوا وحيدين فنجد معظم المسلمين والهندوس والمسيحين في دول اوربا ودول العالم الثالث ،يؤمنون بمسألة الخلق ويعتبرون نظرية دارون والتي تعني التطور كما اشرنا الى ذلك في الفصل الأول مجرد هراء وتجديف !

لم يكن الفلاسفة في عصر جاليلو آخر من تخلص من حراس المعبد. كان هناك الكثير من اصحاب الوعي ممن يشكك في هذا العصر الذهبي الذي بدأت به البشرية كما جاء في الكتابات الأغريقية والرومانية . لم يكن الفلاسفة آخر من اشتبك مع حراس المعبد.

شكك العديد منهم في هذا العصر الذهبي وإنسان هذا العصر الذي وصفته الأدبيات المقدسة، على أنه المخلوق الأكثر إنجازًا في عمل الآلهة أو الله . وأكدوا أنه بفضل التقدم المستمر، منذ فجر التاريخ، يستمر الإنسان في تحسين نفسه، ويزرع ركناً من أركان الجنة لأحبائه.

هذه هي الطريقة التي يرى بها أفلاطون، وبروتاجوراس، سلفنا أو أسلافنا الأوائل كرجال عراة. بل يؤكد انه الأكثر نقصا، والأكثر هشاشة، وغير المتكيف بين حيوانات الخليقة. بمعنى آخر، هذا المخلوق إذا تساهلنا في وصفه ، لم ينته بعد .

العلوم المعاصرة والتي اشرنا اليها في ثنايا هذا البحث ، تذهب مذهباً مخالفاً لتلك الكتابات، فعصر الصيد وجمع القوت لم يكن عصرًا ذهبيًا، ولم يكن امراً من أوامر الآلهة ليقوم الإنسان بالأعمال بدلاً عنها كما ورد في السرديات السومرية المتعلقة بالخلق، ولم تتم عملية الخلق على ضوء قرارات الإلهة البابلية بتكليف الإله مردوخ بأنهاء سلطة تيامت ربة المياه، وبعد أن تمكن من قتلها شقها الى نصفين خلق من الجزء العلوي سماءاً ومن السفلي ارضاً .

المؤمنون في سومر وفي بابل وآشور لاحقاً كانوا يؤمنون بتلك السرديات،

ولم يكن هناك من يشكك بصحتها، بل نجد تلك السرديات التي تؤمن بالخلق هي من سادت العالم القديم، فعدا المصريين، كان هناك الفينيقيون والكنعانيون والآراميون، إضافة الى الاغريق والفرس والهنود، بل كل العالم القديم المتطور والبدائي كان يؤمن بيقينية الخلق .

إذاً وعلى ضوء الأساطير السومرية تخلت الآلهة عن موقع البناء، وتركت الإنسان نفسه ليتولى المسؤولية.

يستخدم أفلاطون، الأسطورة ليعطينا درسًا في علم الحفريات البشرية والأنثروبولوجيا: حيث يدرك الإنسان بمرور الوقت وَهم الإنسان الكامل . فما تركته الآلهة أو الطبيعة غير مكتمل ولن يكتمل .

ومن ثم، فإن الإنسان، الذي كان له نصيب من المزايا الإلهية، كان أيضًا الوحيد بين الحيوانات الذي، بسبب أيديولوجية الخلق، ممن أقام للإلهة معابد ضخمة، وكان من نتيجة ذلك الفكر القائم على مفهوم المكافئة ، أن أقام ذلك الإنسان المذابح لإلهته ، وبرع في تصوير أربابه عبر التماثيل. ورافق ذلك بل ربما كان سابقاً له، إقامة الصلوات وتوسع دور العبادة .

خلقت الآلهة الإنسان «الحيوان الوحيد الذي يتمتع بالذكاء» في كل المتعقدات القديمة ، وبالتالي فهو قادر على التعرف على ربه أو أربابه وتكريمها.

وكان ثمن هذا الذكاء وهذه الحرية هو قدرة المخلوق على الابتعاد عن خالقه ومخالفته كما عبر عن ذلك سفر التكوين ، فآدم خالف خالقه عندما أكل من ثمرة تلك الشجرة التي نهاه ربه من الاقتراب منها وتذوق طعمها.

لهذا السبب كانت مسألة الإنسان الكامل محل نقاش بين اليونانيين. وفيما بعد، لم يتوقف الفلاسفة واللاهوتيون أبدًا عن قراءة قصة سفر التكوين بدهشة، إما سعيًا من خلال العديد من الألعاب البهلوانية إلى تسخير العقل لها، أو إدانة تناقضاتها. هناك نقطتان أثارتا بشكل خاص المناقشات على مر القرون.

فاللغة المتقنة التي استخدمها الرجال الأوائل، رغم أن لدينا كل الأسباب التي تجعلنا نفترض أنهم كانوا معوزين وغير قادرين تمامًا على وضع تصور من أجل التعبير عن خطابهم وتصورهم لإلهتهم، هذه اللغة والتي تعبر عن تطور مذهل لذلك الإنسان، هي من حفزت حب الفلاسفة للعقل.

لا يوجد جدل في أن محاولات المعنيين لفهم النصوص العظيمة المكرسة لأصولنا لم يكن أمرًا بريئًا.

كل منها يضع أسس فلسفة الإنسان، وعلم النفس وعلم اجتماع الشر، والخطأ، ولغة الله مع الإنسان، والإنسان مع الله، والإنسان مع الإنسان، وممارسة الحرية، وجنس أسلافنا العظماء. ومن تبعهم.

لا شك أن القديس أوغسطين كان أول من أسس الغرب الحديث، الذي واجه التساؤل المزدوج الذي ذكرناه للتو.

يقرأ إيمانويل كانط أيضًا نص سفر التكوين بعناية ويكتشف هناك رجلًا أولًا يقوم بفعل الحرية ويستفيد من عقله. لذلك لا يمكن أن يكون الأمر يتعلق بحيوان رئيسي مذهول خرج للتو من الحياة الحيوانية. الرجل الأول هو الذي كان لديه الوقت لاكتساب استقلالية العقل وهذه المرة كانت بلا شك طويلة الأمد.

هذه هي الأسطورة التي تم تدنيسها لصالح تاريخ العقل والتقدم الذي بدأ في اليوم الذي قرر فيه الإنسان أنه سيشكل مصيره بحرية.

ومن هذا المنظور، ليس الله هو الذي أغلق أبواب الجنة بقدر ما هو الإنسان الذي أدار ظهره للمدينة الفاضلة الجميلة للغاية، وفتح عينيه، ووضع الله بين قوسين، وطوّر موارده الخاصة. إن سقوط وولادة الشر سيكونان علامات التحرر المؤلم من نظام الطبيعة الوحيد.

عند نيتشه يتحول النقاش إلى قتال وتصفية حسابات. لم يعد الإنسان غير كامل، بل الإله هو الذي في حماقاته يراكم الأخطاء. لا يتم وضع الخالق جانبًا لبعض الوقت، كما هو الحال عند كانط، لتعزيز أولوية العقل، بل يتم اتهامه بإخفاقات متكررة في عمله الخلقي. يستحضر الفيلسوف في «المسيح الدجال» الترفيه الفاشل للخالق.

في الأدب المعاصر هذه القصيدة القصيرة بعنوان «شكوى» للشاعر العراقي عدنان الصائغ[201]:

نَظَرَ الأعرجُ إلى السماء
وهتف بغضبٍ

201- عدنان الصائغ، هذا الألم الذي يضئ، لندن للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2023

أيها الربُّ
إذا لم يكن لديك طينٌ كافٍ
فعلامَ تَعجّلتَ في تكويني.

هذه القصيدة لا تحمل شكوى ذلك «الأعرج»، بل تتضمن نقداً للخالق. فهو لم يتقن صنعته وكّون إنساناً يعاني مما فيه مدى الحياة.

وأسمح لنفسي بنقل هذه الفقرة من قصة قصيرة لي نشرت في عام 1999 من ضمن مجموعة قصصية [202]. هذه القصة التي كتبت بعد مذبحة صبرا وشاتيلا، فيها عتاب وهي بعنوان « المنخل».

تبدأ هذه القصة بتصوير نهاية العالم وحلول اليوم الموعود. نجد هنا جموع غفيرة وهي معبرة عن الشعب الفلسطيني، لها موعد مع الرب في الساعة السابعة مساءاً. لم يتمكن الفلسطينيون من الوصول في الموعد المقرر، فيقول الرب وصلتم متأخرين. الأعذار التي قدمها الرجل الذي كان يتكلم باسمهم، قبلها الله لذا قال لجبريل «أدخلهم الجنة. لم يتمالك شعبنا نفسه من شدة الفرح فهلل وكّبر وغنى ورقص. وبعد ان هدأت تلك العاصفة وعاد الصمت مجدداً تقدم جبريل وامتثل بين يدي الله وقال له».

أغلقت أبواب الجنة عند السابعة يا إلهي.

- لكنهم تعذبوا كثيراً - قال الله-
- اعرف ذلك ياربي.
- في الجنة أربعون بابا يا جبريل.. افتح لهم أحد الأبواب.
- امرك مطاع ياربي.. لكنها امتلأت وغصت بالمؤمنين.

نظر الله الينا ثم صفّق بيديه كمن ينفض عنها اتربة علقت بها .... صمت الله مجدداً.. كان صمته ثقيلاً كالجبال، ثم رفع رأسه وقال لجبريل: إبن لهم مخيمات بين الجنة والنار».

هذا النص المكتوب في عام 1982 لا يتضمن عتاباً بل بدون قصد وبدون وعي مني جعلت من الله غير قادر وغير فاعل.

202- فالح مهدي، الصلوات تغتال الصمت، منشورات بيت القصة، دار المدى، دمشق، 1999 ، ص65.

من السماء السابعة إلى الفراغ الفلكي

بمجرد أن توقفت الأرض عن أن تكون مركزاً لأي شيء، لم تعد السماء فوق كوكبنا أكثر مما تحته، ولم تعد مكاناً منقوشًا في الفضاء الذي نعرفه. أصبح الكون هاوية مذهلة وكان لدينا، مثل باسكال، أسباب وجيهة للخوف من صمت المساحات اللانهائية.

كان لهذا التشكيك في اليقينيات العلمانية آثاره الأولى في عام 1633، عندما أدانت محكمة التفتيش جاليليو، وبالتالي منحت أهمية لنظرياته، على نحو متناقض وغبي.

ومع ذلك، فإن تصميم حراس (العقيدة الصحيحة)، على حماية مقدساتهم، بل الأكثر أهمية أن لا تفقد كل تلك العقائد مصداقيتها بسبب العمى الأيديولوجي، الذي سينتهي لوحده كشيخ طاعن في السن فقد كل مبررات الحياة.

وكالمياه الجارفة في لحظة طوفان مجنونة، كان من الضروري الانتظار حتى نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن التاسع عشر لرؤية جنة الآخرة تختفي. في مكان غامض أو في غير مكان، ويفرغ الخيال المسيحي من الألوان والروائح والنكهات والأزهار والأشجار والفواكه التي تراكمت هناك منذ زمن طويل وخلقت ذلك الإيمان الساذج.

سهّل الاسكندري بطليموس استحضار الجنة «في أعلى السماوات»، على ضوء معارفه الفلكية والتي اخذت بها الكنيسة المسيحية .

الحقيقة ان بطليموس لم يكن مبتكراً لعلم الفلك بل سبقه الى ذلك البابليون، إذ يشير علم فلك بلاد ما بين النهرين إلى النظريات والأساليب الفلكية التي تم تطويرها في بلاد ما بين النهرين، ولاسيما خلال الألفية الأولى قبل الميلاد

كانت الخطوة الأولى اللازمة لبناء المعرفة الفلكية هي مراقبة الظواهر النجمية، وبالتالي اتباع نهج تجريبي. كان لدى بلاد ما بين النهرين تعريف واسع، لأنه لم يشمل فقط الشمس والقمر والكواكب والنجوم، ولكن أيضًا ظواهر الأرصاد الجوية، وبالتالي كل ما يمكن رؤيته في السماء.

علم الفلك البابلي هو مصدر التقاليد اللاحقة لعلم الفلك اليوناني والهلنستي، وتلك الخاصة بالساسانيين والبيزنطيين والسوريين، وعلم الفلك

الإسلامي والأوروبي في العصور الوسطى، وربما أثر على علم الفلك الهندي.

كانت الخطوة الأولى اللازمة لبناء المعرفة الفلكية هي مراقبة الظواهر النجمية، وبالتالي اتباع نهج تجريبي. كان لدى بلاد ما بين النهرين تعريف واسع، لأنه لم يشمل فقط الشمس والقمر والكواكب والنجوم، ولكن أيضًا ظواهر الأرصاد الجوية، وبالتالي كل ما يمكن رؤيته في السماء.

تشير المصادر اليونانية واللاتينية الكلاسيكية في كثير من الأحيان إلى علماء الفلك في بلاد ما بين النهرين على أنهم (كلدانيون)، وغالبًا ما يتم تقديمهم كمتخصصين في علم التنجيم وأشكال العرافة الأخرى[203]. بل إن مفهوم السماوات السبع التي تبنته الديانات التوحيدية، وأقامت عليها كل سردياتها المتعلقة بالجنة، انطلق من بابل.

منذ أن انهارت سماوات بطليموس مثل بيت من ورق، لم يعد لدى الباحثين الدؤوبين، والحالمين غير التائبين، واللاهوتيين، والفلاسفة، أي شيء واضح يخبروننا به عن مكان السعادة الدائمة، الذي يسمح الانتظار وحده للعديد من المؤمنين بالمرور منه. خلال ليل حياتنا الأرضية دون أنين؟

لم يكن الأمر كذلك حتى عام 1989 عندما أعاد الفاتيكان تأهيل جاليليو وتخلى رسميًا عن جعل الأرض مركزًا لكون محاط بالسماء، وفي عام 1992 قام البابا يوحنا بولس الثاني بإعادة التأهيل هذه وجعله أمراً رسمياً وذلك بإعلانه أن محاكمة الفيزيائي يُعبر عن «سوء الفهم المأساوي».

منذ بداية القرن التاسع عشر ثم خلال القرن العشرين، توقفت الكنيسة عن تمجيد نفسها بألوان السماء وروائحها وموسيقاها. لقد اختارت الرصانة عندما كان عليها أن تُحفز بين المؤمنين الرجاء بحياة سعيدة بعد الموت ولقاء من رحل وبقي عزيزاً عند من فارقهم.

ولا زال المؤمنون يحتفلون، ولكن أيضا العديد من الكافرين والملحدين ببعض الأعياد الدينية ولا سيما أعياد الميلاد وعيد جميع القديسين. ويحرص

203- E. Robson, « Scholarly Conceptions and Quantifications of Time in Assyria and Babylonia, c.750250- BCE », dans R. M. Rosen (dir.), Time and Temporality in the Ancient World, Philadelphia, 2004, p. 49- 55.

معظمهم على صيانة قبور أحبائهم وتزيينها بالورود بكل احترام وخوف، لأنهم بدورهم سيعانون ذات يوم من هذا المصير المشترك.

يحذو جميع المؤمنين الأمل في أن يتمكنوا يومًا ما من رؤية الله وجهًا لوجه، ويعزي رجال ونساء العصر الجديد أنفسهم لاضطرارهم إلى الموت يومًا ما وهم يفكرون في العثور على أنفسهم هناك، كما يقولون مرة أخرى، هؤلاء أحبوا من تركهم.

على المرء فقط أن يتصفح الدفاتر التي تسمح له، في كنائس معينة أو أماكن عبادة أخرى، بتدوين صلاة أو فكرة نقية أو طلب إلى الله أو إلى العذراء أو إلى قديس، ليرى ذلك بأعداد كبيرة. في كثير من الحالات، يطلب الزائر إنقاذ شخص عزيز عليه، من مرضٍ عضال والسماح له بالعيش بهناء في هذه الحياة الدنيا أو حماية شخص فقدت آثاره في هذه الحياة نحبه ونتمنى العثور عليه إلى الأبد، على آمل ان نلتقيه في الآخرة.

لذلك فإن الأمر لا يتعلق بالانتظار بفارغ الصبر لعالم جديد يحررنا من ارتباطاتنا بهذا العالم بقدر ما يتعلق بالأمل في رؤية استئناف الحياة الأرضية المكسورة مؤقتًا في مكان آخر.

إن الجهل، وليس اللامبالاة، يجعلنا نأمل في أن نجد زوجنا أو زوجتنا، أو أبانا، أو أمنا، أو الحيوان الأليف الذي كنا متعلقين به بشدة(في المجتمعات الغربية)، بدلاً من أن يكون من حقنا أن نواجه وجهاً لوجه بدلاً من ربنا وخالقنا في الثقافة والموروث الكاثوليكي.

ينقل المؤرخ جان ديلومو الذي أشرت اليه مرارًا، بل كان اهم مرجع بالنسبة لي فيما يتعلق بالجنة، هذا الاعتراف الإنساني المثير للدهشة «أنا لا أحب الله؛ لا أرغب في رؤيته؛ أريد فقد أن أرى والدتي مرة أخرى».

وفي مواجهة هذا الحنين العظيم إلى الأموات في ظل اللامبالاة النسبية تجاه الله، قام بعض اللاهوتيين من خلال شرح هذه العقيدة والمتمثلة بالاعتقاد بأن رؤية الله ستكون كافية بالنسبة لنا، وأن اللقاء المأمول مع الراحل العزيز لن يجلب شيئًا أكثر من الفرح.

ذهبت البروتستانتية مذهب آخر وخرجت من الدوغماتية الكاثوليكية،

فنجد عند كل من كالفن ولوثر أيضًا أن رؤية الله استبعدت البحث عن أي اتصال آخر في الحياة الآخرة مع الرجال والنساء الذين عرفناهم في الماضي. علمًا أن رؤية الله لا تلغي البحث عن أي اتصال في الحياة الأخرى مع الرجال الذين عرفونا في الماضي.

دحضت البروتستانتية التي أتت بأفكار واطروحات الإصلاح بواجب الصلاة من أجل الموتى. لوثر، ومنذ عام 1520، قبل طرده من الكنيسة وحرمانه من غفرانها ، أراد قمع تقديس الموتى وإلغاء عبادة القديسين.

ورفض كالفن بدوره التواطؤ بين الكنيسة والموت، وأوضح أن الله لم يترك وسيلة لتواصل الأحياء مع الأموات، كما لم يترك وسيلة لتواصل الأموات مع الأحياء.

بالنسبة للمصلحين، إذا كانت هناك احترام للقديسين، فذلك باعتبارهم بشر لا يختلفون عن بقية المؤمنين، وهو نفس ما ذهب إليه المعتزلة في القرن الثالث (التاسع من التقويم المعاصر) وإخوان الصفا في القرن الرابع ومعظم المتنورين في الحاضرة العباسية. وهذا يعني إن إعمال العقل في الإسلام كان سابقاً على المسيحية بأكثر من سبعة قرون.

بل تذهب البروتستانتية إلى القول يجب على القديسين ألا يحاولوا التطفل على الأموات الذين لا نعرف عنهم شيئًا وليس لدينا ما نقوله.

ومع ذلك، هناك العديد من اللاهوتيين، ومن بين العظماء، الذين قالوا وكتبوا أنهم كانوا ينتظرون رؤية أولئك الذين أحبوهم مرة أخرى هناك. كان هذا هو حال القديس أمبروسيوس، والقديس أوغسطين، والقديسة تريزا الأفيلية، والقديسة تريز من ليزيو الخ.

كتبت القديسة تريزا الأفيلية أنها نُقلت بالروح إلى السماء خلال رؤيا، وأن أول من رأتهم كان والدها وأمها. ولا يسعنا إلا أن نتذكر، بالقياس، نزول يوليسيس إلى الجحيم حيث سعى إلى احتضان ظل أمه. ونفس الأمر نجده عند السومريين، فأنكيدو في ملحمة كالكامش، وجد نفسه في الجحيم وهي كما ذكرنا تحت الأرض في اساطير بلاد الرافدين والأساطير الإغريقية والرومانية لاحقاً. إذا كانت الجحيم الإغريقي وقبله الرافديني رحيماً وهينًا قياسا بالجحيم الذي ابتكرته الديانات التوحيدية ولا سيما المسيحية والإسلام،

فإن السماء التي تبناها الكتاب المقدس كانت مضيئة ولن نجد فيها غير السعادة والحياة الأبدية بعمر لا يتجاوز 33 عاماً كما ورد في الأحاديث النبوية وهذا الرقم يمثل عمر المسيح عند خروجه من هذه الدنيا.

ونؤمن أن نفوس كل من يموت في نعمة المسيح يشكل جزءًا من شعب الله في الآخرة، حيث ستجتمع هذه النفوس مع أجسادهم.

إن الإيمان بشركة القديسين، الذي تم تقديمه في قانون إيمان الرسل في بداية القرن الخامس، هو يقين التواصل والتضامن بين المؤمنين، الأحياء منهم والأموات على حد سواء. فالعبادة في العالم المسيحي ومنذ القرن الخامس من التقويم المعاصر، تدفع المؤمن الى الاقتناع بأن الموتى، خاصة إذا كانوا قديسين، يمكنهم مراقبة الأحياء.

من المؤكد أن تبجيل الموتى قديم قدم تاريخ البشرية؛ فمنذ القرون الأولى للمسيحية، كانت المقابر توضع أمام الكنائس أو حولها. ورمزياً كان الموتى ينتظرون أمام رواق الهيكل ليدخلوا إلى أورشليم الجديدة، أورشليم السماوية التي يجب أن تظهر في نهاية الأزمنة والتي أعلنها التاريخ المسيحي، خاصة في رؤيا يوحنا، وحسب التقليد اليهودي، ولا سيما في إشعياء وحزقيال.

يطمئن القديس أوغسطينوس المؤمنين مرة أخرى حول أهمية قيامة الأجساد، حتى لو كانت مشوهة، أو مسحوقة، أو التهمتها الأسود، أو مرت بالنار.

في مدينة الله (وفي الفصل 22)، يحدد أن الأجساد المقامة ستفقد أي عيوب كانت عليها على الأرض. سيبقى الجنسين مختلفين ولكننا لن نحتاج لنأكل والى ان نلبس، ذلك إن حاجتنا إلى الجسد تختفي[204].

وبينما لا يزال البعض يسعى بشكل محموم ولكن عبثًا، لفتح أبواب السماء من فتحة ضيقة لإلقاء نظرة خاطفة على دار المختارين، أوصى لوثر بحكمة، بعيدة عن اللامبالاة والعبث، فكتب وبروح الدعابة « قبل الوصول إلى دار النعيم، والتي لانعرف شيئًا عنها ولن يكون لدينا ما نقوله عنها ،فكما أن

204- AUGUSTIN, saint : La Cité de Dieu. De Genesi ad litteram, trad. Jean-Claude Eslin, La Grâce du Christ et le Péché. Points Sagesses Sagesses, Date de parution 16/ 5 / 1994.

الأطفال في بطون أمهاتهم لا يعرفون سوى القليل عن ولادتهم، كذلك نحن لا نعرف سوى القليل عن الحياة الأبدية».[205]

وأكد أنه منذ البداية، كانت السماء مفتوحة، وأن ملكوت السموات لم يكن في مكان آخر، بعيدًا عنا حيث من الخطأ أن نسعى إليه، بل نجده، وعبر الإيمان في داخلنا.

وهكذا دعا، مستبقًا عقيدة جميع الكنائس المسيحية، إلى رفض أي تفسير جسدي مفرط لسعادة العالم الآخر.

ليس المكان هو الذي يصنع الفردوس، بل السعادة التي نتمتع بها من خلال رؤية الله، الذي هو في كل مكان، يمكنه أيضًا أن يظهر نفسه ويجعل الناس مباركين في كل مكان، هكذا قلبت السرديات البروتستانتية كل المفاهيم المتعلقة بالجنة والنار.

عندما نريد أن نتحدث عن هذا، هل يمكننا أن نفعل ما هو أفضل من القول إن الجنة ليست مكانا. فإذا كانت في السماء، فإن السماء ليست سوى المادة السائلة الهائلة، التي يدور فيها عدد لا نهائي من الأجسام، المضيئة وغير الشفافة.

لم تقف الكنيسة الكاثوليكية مكتوفة الأيدي، فقامت ولو بعد حين طويل بتصحيح المسار. إن التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، الذي صدر بمبادرة من يوحنا بولس الثاني (1920-2005)، يؤكد بوضوح هذه المرة أن السماء ليست مكانا. قال ذلك تعليقاً على هذه الصلوات الشهيرة وبخصوص الكلمات الأولى: «أبانا الذي في السموات»:

ومع كل الخطوات التي قطعتها الكنيسة الكاثوليكية يبقى السؤال الجوهري دون جواب: إلى أين سيذهب المؤمنون بعد الموت؟ التعليم المسيحي صامت، فهذا الامر يتجاوز خيالنا وفهمنا؛ ولا يمكن الوصول إليه إلا بالإيمان.

ولكن بعد ذلك سيتساءل العديد من المؤمنين: أين ستذهب الأجساد التي إعيّدت لها الحياة؟ ومن سيجد جثته في نهاية الزمان؟ ويرد نفس التعليم المسيحي بتأكيد عقيدة الكنيسة غير المتغيرة.

205- LUTHER, Martin : Commentaires du Livre de la Genèse, Genève, Éditions Labor et Fides, 15441554-.Propos de table, 1565.date d'édition 1977.

يورد فلادمير جنكلفيتش هذا الحوار بين كاهن وربه في القرن السابع عشر ونقلاً عن فرانسوا دو سال، الكاتب المعروف بأنه سارد فذ.

فقد كان ذلك الكاهن لا يعرف ما هو الجواب المناسب لمن يتوجه اليه بالسؤال من المؤمنين،عن الجنة والنار، وانتهى به الأمر إلى أن يكون هو نفسه مضطربًا للغاية. فقرر أن يسأل الله نفسه:

- يا إلهي، أرجوك دعني أفتح الباب قليلاً، للحظة واحدة فقط.

- سأمنحك يا بني هذه الخدمة الاستثنائية بكل سرور، لكن عليك أولاً أن تلقي نظرة على جانب الملعونين في الجحيم.

وفتح الله باب جهنم. رأى كاهننا عددًا كبيراً من الرجال والنساء العراة الغاضبين والهزيلين، يجلسون على مسافة ما من مرجل كان يغلي خليطًا ذا روائح كريهة، حيث تم تزويد كل منهم بملعقة ذات مقبض طويل بما يكفي ليغمسه في الوعاء. لم يكن ذلك المقبض طويلًا لدرجة أن من استقر في الجحيم لم يتمكن من إحضاره إلى فمه. وانظر كيف يتألمون، همس الله في أذن الراعي الصالح.

ثم ذهبا كلاهما إلى عتبة الجنة. لقد فتح الله الباب على مصراعيه.وتمكن كاهننا أخيراً من إشباع فضوله.

والتفت الكاهن إلى الله مندهشًا:

- لكن يا رب، إنه الجحيم !

- لا يا ابني أنظر جيداً.

وبالفعل لاحظ الكاهن أن قديسي الفردوس كانوا ممتلئي الجسم، رائعي المظهر، وابتسامة ملائكية. تؤطر وجوههم.

- كيف ذلك؟

- انظر، أنا أقول لك !.

ثم لاحظ الراعي الصالح أن الجميع، بدلاً من أن يحاولوا عبثاً وضع الملعقة ذات اليد الطويلة في أفواههم، سلموها إلى أحد جيرانهم.[206]

206- Jankélévitch, Vladimir : Traité des vertus, 1° édition, Bordas, 1949.P 231- 250.

هذا النص يعلّمنا بطريقته الخاصة أن الفردوس يبدأ هنا على الأرض إذا وافقنا على دخوله، إذ يمكننا دائمًا وفي كل مكان أن نحظى بسعادة العطاء دون أن يطلب منا ذلك، والأخذ دون أن نفكر ونخطط لذلك.

التوفيق بين الخلق والتطور

في عام 1859، نشر داروين كتابه أصل الأنواع عن طريق الانتقاء الطبيعي. لقد كان حذرًا جدًا بحيث لم يتظاهر باختتام الجدل حول الخلق بناءً على عمله وحده. فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية، فقد نأى بنفسه لكنه ظل مؤمناً. وفي أيام الأحد، رافق عائلته إلى الخدمات الدينية، لكنه لم يتجاوز عتبة المعبد بل ذهب في نزهة على الأقدام.

أثار كتاب أصل الأنواع مواقف عاطفية في جميع أنحاء أوروبا. فأدار العديد من المسيحيين ذوي الطاعة الصارمة ظهورهم للعلم الجديد وكبار الباحثين فيه، فالكثيرون منهم أصبحوا على يقين أن المشهد المؤثر لآدم وهو يعطي، بناءً على طلب الله، أسماء لجميع الحيوانات على الأرض، سيُحال إلى مكتبة الحكايات والأساطير. وفي ألمانيا، حيث تُرجم كتاب أصل الأنواع بعد أقل من عام من نشره في بريطانيا العظمى، أدان الأساقفة المجتمعون في كولونيا نظرية التطور رسميًا. وبدت لهم نتائج العلم خاطئة لأنها تناقض عقيدة الإيمان. فأعلنوا: لقد خلق الله أبوينا الأولين على الفور. ولهذا السبب نعلن رفضنا التام لما ورد في كتاب دارون.

تناول البابا بيوس الثاني عشر (1876- 1958) هذا الموضوع مجدداً ونشره في أغسطس 1950، تحت العنوان الذي احتفظ به سلفه، الرسالة العامة Humani Generis، والتي حذر فيها من نظريات التطور وطَلَب عدم التشكيك في الكتب المقدسة، وخاصة الكتاب الأول.

ويقصد كل ما جاء في سفر التكوين الذي اتينا على ذكره مراراً. ووصف نظرية التطور بالخيال. «إن الخيال الذي قام عليه هذا التطور الشهير، الذي يرفض كل ما هو مطلق وثابت وغير قابل للتغيير، فتح الطريق أمام فلسفة شاذة .....».[207]

ومن المثير للاهتمام والتقدير أن نلاحظ، ان رجال العلم وقفوا بحزم أمام

207- PIE XII, encyclique Humanis Generis, 1950.

تلك المقولات الدوغماتية وغلبت عليهم الحكمة والتريث، فهم على استعداد لإثراء أو تعديل فرضياتهم إذا لزم الأمر، والتي يمكن دائمًا تحسينها من خلال مساهمات بحثية جديدة.

هنا نجد بهاء النسبية وعظمة الشك من قبل هؤلاء العلماء. فمنهم من هو مؤمن كأينشتاين والذي يعتقد ان هناك مهندسًا من الصعب وصفه لهذا الكون العجيب والعظيم والدقيق، لكنه ليس رب موسى!

واجه اليسوعي بيير تيلار دي شاردان(1881-1955)، اللاهوتي وعالم الحفريات، صعوبة التوفيق بين متطلبات العلم ومتطلبات الإيمان الكاثوليكي. وكتب في مؤلفه المهم «الظاهرة الإنسانية» (1955) عن تكوين العالم وظهور الحياة وظهور الفكر. لقد حاول التوفيق وهو العالم المرموق ورجل الدين في آن واحد، بين إيمانه وما توصل اليه من معرفة دنيوية من خلال التجربة والبحث، فكتب التالي عن مفهوم الحياة والتطور «لذلك لن أدعي وصفهم كما كانوا في الواقع، ولكن كما يجب أن نمثلهم حتى يكون العالم صحيحًا بالنسبة لنا في هذه اللحظة...»[208]

كتاب آخر من كتبه، البيئة الإلهية Le Milieu Divin، يجمع بشكل جيد بين إيمانه برب خالق لهذا الكون والفكر المعاصر المبني على التجربة والمراقبة والتدقيق والتأمل والشك. فقد سعى الى التأكيد على مبدأ مُوّلد وموحد في العالم، كائن متعال «قادر على تشغيل وتركيب الروح [...] (لأن) هناك طريقة واحدة ممكنة لنحب بعضنا البعض: وهي أن نعرف أننا «متمركزون بشكل مفرط» معًا في نفس «المركز الفائق» المشترك، حيث لا يمكن للكائنات أن تصل إلا إلى أقصى حدود نفسها، من خلال الاجتماع معًا[209].

بعد ما يقرب من خمسين عامًا من نشر الرسالة العامة Humani Generis التي اتينا على ذكرها، خاطب البابا يوحنا الثاني في 22 أكتوبر 1996، أكاديمية العلوم عن موقف الكنيسة من نظرية تطور الأنواع.

208- TEILHARD DE CHARDIN, Pierre : Le Phénomène humain, Seuil, 1955.

209- TEILHARD DE CHARDIN, Pierre Milieu divin, essai de vie intérieure, réédition au Seuil, janvier 1998.

لقد أصر على بذل الجهود للتوفيق بين العقل والإيمان، حيث لا يستطيع الأخير أن يناقض الأول، بل يجب على كل منهما، كل في سجله الخاص، أن يكمل أحدهما الآخر[210]. لقد أكد وطور ما قاله لاون الثالث عشر بشجاعة عام 1893 في رسالته العامة عن العناية الإلهية، أي أنه لا يمكن أن يكون هناك خلاف حقيقي بين اللاهوتي والباحث طالما بقي كل منهما ضمن مجال اختصاصه.

لا تستطيع الكنيسة أن ترفض استنتاجات الباحثين فحسب، بل يجب عليها، فيما يتعلق بالإنسان، أن تبحث عن الكيفية التي يمكن بها للتنوير اللاهوتي الفلسفي أن يوسع بيانات العلم.

إن القصة الكتابية، كما يقول علماء اللاهوت المعاصرون، لا زالت تحتفظ بكل أهميتها إذا اتفقنا على عدم إدراجها بشكل علمي في التسلسل الزمني، ولكن إذا احتفظنا ببعدها الرمزي، فإنها تمنح مكانة خاصة للكائنات الرئيسية الفريدة التي نحن عليها، والتي تظهر منذ فجر التاريخ وهي قادرة على التشكيك في أصولها ومكانها ومصيرها.

الإسلام والدارونية

كما لاحظنا قبل قليل ان أكبر مؤسسة مسيحية (الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان)، أعادت النظر في قراءتها لمدوناتها، بل أصر البابا يوحنا الثاني وهو من أكبر المؤمنين ومن أكبر المحافظين، على ضرورة التوفيق بين العقل والإيمان، حيث لا يستطيع الأخير أن يناقض الأول. وقبل ذلك قدم اعتذاره عما تعرّض له جاليلو في تلك المحاكمة في القرن السادس عشر.

وبما اننا خصصنا فصلاً كاملا عن الجنة الإسلامية، لذا من الضروري معرفة موقف الإسلام من هذه النظرية، باعتباره أحد أهم الأديان في العالم.

في العدد 52 من مجلة دعوة الحق نجد التالي «وليكن القارئ على علم عند أول خطوة بصدد الجواب على هذا التنفيح أن نظرية داروين لا تزال في أوساط القرن العشرين نظرية بحتة كما كانت نظرية صرفة في أواسط القرن التاسع

210- JEAN-PAUL II, texte remis à l'Académie pontificale des sciences sur l'évolution des espèces, 22 octobre 1996.

عشر، ولم تثبت بعد حقيقة وأمرا واقعيا، ولا يخفى على احد الفرق بين النظرية والحقيقة، وان الإنسان لا يحتاج إلى إعادة النظر في إيمانه إلا حينما يتصادم إيمانه مع شيء هو حقيقة وأمر واقع لا مجال للريب فيه، وإلا فان الإيمان الذي لا يصمد للقياسات والنظريات البحتة وإنما هو حسن ظن يمكن أن يتبدل بسوء ظن على أساس مجرد الأوهام والخرافات والإشاعات الفارغة»[211].

ويجيب كاتب المقال دون أن يذكر اسمه «إن أصعب مسألة من مسائل علم الحياة قد أبهمت على علماء العلوم الطبيعة، هي ما هو مبدأ الحياة؟ أما القرآن فيقول مجيبا على هذا السؤال أن مبدأ الحياة هو أمر الرب سبحانه وتعالى، وأمر الرب هو الذي ينشئ آثار الحياة في مادة ميتة. وأما الذين قد ظلت العلوم التجريبية الحاضرة تنمو وتتقدم على أيديهم في الغرب منذ عصر النهضة، فما زالوا يحاولون التملص من إقرار وإحساس ذات فوق الفطرة وعلمها كيفما أمكن، وظلوا يتمنون منذ بدء ارمهم لو عثروا في داخل معمل الفطرة- الكون- هذا على القوة التي تعمل فيه وتسيره......»[212]

المقال طويل، لذا اخترت مقاطع منه تعبر عن رؤية الكاتب والمتمثل بيقينه.

هذا المقال ليس رأياً من كاتب مؤمن، بل هو معبر عن قناعة كل المؤسسات الإسلامية، فلم أتطرق الى ما ورد في المدونات السلفية في المملكة العربية السعودية ولا غيرها، فهي تنحو نفس المنحى وتدخل في عملية شتائم واتهامات لدارون ومن يؤمن بنظريته.

هذا الموقف المتزمت والثابت من هذه النظرية، لم يكن وحيدا، فنجد وفي قلب الأزهر وهو أكبر مؤسسة إسلامية، آراء جريئة على العكس تماما من الفكر السلفي التقليدي، ف«الإمام الشيخ، محمد عبده، رحمه الله صاحب تفسير المنار للقرآن الكريم، ومفتي الديار المصرية في نهايات القرن التاسع عشر، كان يرى أن نظرية دارون لا تتعارض بالضرورة مع القرآن. وذكر الإمام الشيخ، محمد عبده، الآية الكريمة « ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد

211- موقف الإسلام من نظرية النشوء والارتقاء: مجلة دعوة الحق، العدد52 ، وزارة الأوقاف في المملكة المغربية. بعض العبارات غير مفهومة ، انما وتوخياً للدقة نقلتها كما هي.
212- نفس المرجع.

خلقكم أطوارا» (سورة نوح آية 13-14)، ليدلل على أن الخلق تم على مراحل (أطوارا)، وأن تطور الأنواع لا يتعارض بالضرورة مع القرآن الكريم.»[213]

وبعد مرور أكثر من قرن، نجد هذا الرأي لعبد المعطي بيومي أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة «أنا أرى نظرية داروين سواء صحت أو لم تصح لا تخدش الدين ولا تتعارض معه، لأني قرأت أصل الأنواع على ضخامة حجمه بترجمة د. إسماعيل مظهر رحمه الله ووجدت أن داروين نفسه يقول بتطور الكائنات لا من ذاتها ولا بفعل طبيعتها وإنما بفعل الخالق سبحانه وتعالى... بل إننا إذا عرضنا هذا الكلام على فلاسفة الإسلام نجد التطابق بين ما يقوله الإمام الفيلسوف ابن رشد: إن الله أودع في كل شيء فعلا يخصه، فأودع في النار خاصية الإحراق وفي الماء خاصية الإرواء بحيث تفعل هذه العناصر بعضها في بعض وتتأثر بعضها في بعض بفعل قانون السببية الذي وضعه الله سبحانه وتعالي في العناصر وجعلها حاكمة لتصرفاتها... هذه هي نظرية داروين، وقد تجلت في أوروبا بتأثيرات الحضارة الإسلامية ولها بذورها في الحضارة الإسلامية عند ابن مسكويه وابن رشد ...» [214].

التطور للجميع وغد مشرق

لم يتوقف التوفيق بين الخلق والتطور عن دوره فهناك كتابات كثيرة تحاول ردم الفجوة بين الاثنين.

فبعد الرحلات الاستكشافية إلى القارة القطبية الجنوبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان أحفاد آدم وحواء البعيدون قد استكشفوا كوكبهم بشكل أو بآخر، ولم يجدوا أثرًا للجنة التي ارتكبت عنها المخالفة المميتة ذات يوم. ولم يأخذوا خطب كهنتهم ورعاتهم حرفيًا ، حتى لا ييأسوا، من بناء يوتيوبيا جديدة.

نعم شهد القرن التاسع عشر وبامتياز بروز أفكار ونظريات طوباوية تدعو

213- توفيق حميد، هل يتعارض قبول نظرية التطور مع القرآن؟ الحرة، ديسمبر 2022.

214- محمد الحمامصي، هكذا يرى مفكرو الإسلام اليوم نظرية داروين، الحوار المتمدن، 12 فبراير، 2009.

الى إقامة جنة مادية فوق الأرض.

فنظرًا لتمسك رجال الإيمان الأكثر تقليدية بحرف العقيدة، أطلق رجال التقدم أحيانًا على أنفسهم اسم الربوبيين ولم يرفضوا جميعًا تعاليم الكنيسة بشكل مباشر ولكنهم لم يعودوا يشعرون بالحاجة إلى الحصول على توقيع أبيض من البابا أو أساقفته ليشيدوا بالاكتشافات العلمية ويتعجبوا من التقدم التكنولوجي.

ولم يعد الأمر يتعلق بالأمل في تحقيق التقدم، فقد أصبح الأمر واضحًا، حتى لو كان لا يزال هناك طريق طويل لنقطعه.

لقد كانت الجنة أمامنا، أمامنا بمسافة بعيدة، ليتم بناؤها لأطفالنا وأطفال أطفالنا، لوقت لاحق، دائمًا لاحقًا، في أعماق الزمن ولكن حان الوقت الآن ليأتي بدلاً من انتظار الجنة كما وصفتها الكتب المسيحية المقدسة وعلى رأسها العهد الجديد وكبار القديسين واولهم أوغسطينوس، لا انتظار ذلك الزمن المستقبلي، بل بناء الحاضر والمستقبل ومن الان . كان ذلك الوقت الذي استمر الى أكثر من 2000 سنة طويلًا جداً، بل كان وقتاً ضائعاً، سطّرت بل رسمت فيه الأيديولوجيات الدينية ومنذ البداية أي قبل ألفي عام، كل ما يتعلق بثقافة الجنة والنار .

****

كان أمام الرجال والنساء في القرن التاسع عشر، لبناء العصر الجديد أن يساهموا في تقدم العلم، وفي تقدم التكنولوجيا وتطبيقاتها، وفي تقدم الطب، وفي التقدم الاجتماعي من خلال إعادة توزيع السلع، وفي تحسين تكافؤ الفرص، وإرساء التعليم للجميع، وإلغاء جميع أشكال العبودية.

وفسح العصر الصناعي بما فيه من رأسمالية متوحشة، واستغلال وتدمير الاخر المختلف، الذي لا ينتمي الى هذه «الشعوب المختارة»، للمرأة في هذا العالم المغرور والشره لاستعمار الاخر، من ان تدافع عن نفسها، وأن تحرر نفسها تدريجياً من وصاية والدها ثم زوجها، وأن يكون لها أيضاً الحق في التحدث في المناقشات العامة.

بيير لاروس، ابن صانع عجلات وحداد وصاحب فندق، ولد عام 1817 في توسي الفرنسية، وقد نزع المسيحية من قلبه بقوة وانضم إلى الأفكار الاشتراكية، وأصبح معجميًا (لا زال معجمه في اللغة الفرنسية من أهم المعاجم في الوقت

الراهن) وموسوعيًا بعد التدريس لفترة وجيزة في الفصل الفردي بالمدرسة، حيث كان يعمل. لقد تعلم بنفسه القراءة والكتابة عندما كان طفلاً.

تعتبر مقالة «التقدم» في معجمه الكبير العالمي نموذجًا للأمل الذي تحمله الأفكار الجديدة. إن هذا النص المتدفق بمثابة إعلان نوايا أولئك الذين أرادوا قيادة الإنسانية نحو السعادة من خلال مزيد من الحرية والعدالة.

التطور الموسوعي للمقال هو نتيجة لدمج لا يصدق من الملاحظات التاريخية أو العلمية التي لا تقبل الجدل، والتلاعب الماهر، وجرعة كبيرة من سوء النية والحماس الجامح لاكتشاف ما ينبغي أن يسعد البشرية: الإنسان يتقدم ويجعل العالم يتقدم.

أصبح لكلمة التقدم، سردياتها في القرن التاسع عشر وهي تشير بطريقة واضحة، وبلغة فلسفية، إلى مسيرة الجنس البشري نحو كماله، نحو سعادته.

فعلى ضوء تلك الادبيات الطوباوية، أصبحت الإنسانية قابلة للكمال، وهي تتحرك باستمرار من الأسوأ إلى الأفضل، ومن الجهل إلى العلم، ومن البربرية إلى الحضارة....

إن نظرية السقوط، التي اخترعتها الفلسفات القديمة لتفسير تعايش الله والشر في العالم واعتمدتها العقيدة العبرية والعقيدة الكاثوليكية كأساس أساسي، تعارض الفلسفة الحديثة والمبدأ المناقض تمامًا المتمثل في التطور غير المحدود للإنسان.

إذا كان نظام الكمال، من خلال النفخ في أحلام العصر الذهبي في الماضي، يفسح المجال بشكل أقل للشعر، فإنه من ناحية أخرى يتمتع بميزة لا تقدر بثمن تتمثل في فتح وجهات نظر أكثر طمأنينة في المستقبل. ويبقى أن يتم فحص تلك المدونات فيما إذا كانت تتوافق مع الحقائق العنيدة.

بيد إن الاكتشافات الحديثة في علم الحفريات تأتي لمساعدة أولئك الذين يطالبون بالتطور المستمر للإنسان بدلاً من تدهوره الحتمي بعد السقوط الأصلي: التكوين والتطور التدريجي لأبسط الأشكال العضوية نحو أكثرها.

تُظهر اشكال السلف انهم كانوا أقرب الى القردة في هيئتهم الأولى، التطور وبما فيه من تعقيد يتعلق بالبيئة والغذاء مثلاً، سمح للإنسان ان يكون على ما هو عليه الان من جمال آخاذ في بعض الاحيان.

لقد سارت صحوة الذكاء وتقدمه جنبًا إلى جنب مع التطور المورفولوجي والفسيولوجي للإنسان:

في مجال الذكاء، يتجلى قانون الكمال بشكل واضح بحيث لا يجرؤ أحد على تجاهله.

الحقائق تتحدث كما يذهب الى ذلك دعاة التقدم والكمال، ينبثق الإنسان من ظلمة الليل ليصعد تدريجياً إلى النور.

يلاحظ المتابع ان التقدم الأخلاقي المستمر للإنسانية ليس أمرًا بديهيًا، فقد تقدمت الإنسانية في بعض الحقول وتراجعت بشكل خطير ولنا في التجربة النازية مثل ساطعُ، وقبل ذلك وبدءًا من القرن السادس عشر قام المستعمرون الذين قدموا من الإمبراطورية البريطانية، بعملية إبادة للسكان الأصليين فلم يبق منهم إلا عدد ضئيل في البلد التي يطلق عليها الولايات المتحدة. ولم يتمتع بهذا «الشرف» الإنجليز لوحدهم، فقد شاركهم في ذلك الإسبان في أمريكا اللاتينية والفرنسيين في إفريقيا والألمان والروس والخ. وكلهم جاءوا من القارة الأوربية.

الطوباويون الجدد ممن شهدهم القرن التاسع عشر والعشرين، دعاة « دين علماني جديد»، وافضل من يمثلهم «الاشتراكيون الطوباويون»، ومن بينهم برودون الذي دافع وبحماسة عن مشروع القاموس الذي ابتكره لاروس.

في عصرنا هذا، كما يؤكد دعاة التقدم، فإن الاعتقاد العالمي هو أن التقدم عبارة عن قانون المسيرة البشرية.

لقد شغلت هذه الفكرة عددًا كبيرًا من العقول القاحلة في أحسن الأحوال. فسعى البعض إلى تسريع التقدم من خلال اقتراح إدخال تحولات جذرية إلى حد ما، وأكثر أو أقل خيالية في المجتمع: مثل فورييه، وسان سيمون، وإنفانتان، وكابيه، وبرودون؛ وقد حاول آخرون صياغة نظرية التقدم ذاتها، مثل بيير ليرو، وبوتشيز، ورينو، وبيليتان الخ

ما هي إذن عوامل التقدم، والشروط التي تضمنه والتي بدونها يكون مجرد يوتوبيا باطلة؟

إن الحرية هي في الواقع الأداة الأساسية للتقدم؛ ولكن يجب أن نضيف إلى هذه الأداة أداة أخرى، وهي أداة العلم، وقبل ذلك الوعي بهذه الحرية. وفي

الواقع، إذا كان الإنسان من خلال الحرية يحقق التطور الكامل لقدراته، وفهم ضرورة الحرية للآخرين وبالتالي تحقيق فكرة العدالة، فإنه من خلال العلم يتمكن من التخلص من الأحكام المسبقة، ومن العقبات بجميع أنواعها، أنه يروض الطبيعة، أنه يقود إلى فكرة الحقيقة. الحرية والعلم هما المصطلحان لكل تقدم، هكذا يفكر الطوباويون الجدد.

ويعتقد الحالمون في القرن التاسع عشر بالذات، أن المعرفة هي العامل الحاسم في التقدم الأخلاقي.

حيث يعتبر التعليم للجميع أحد أضمن الطرق للقضاء على الجهل من خلال ضمان تكافؤ الفرص في الوصول إلى المعرفة.

هذا هو النضال النهائي!

وعلى عكس ما تمناه بيير لاروس، لم يتحقق السلام العالمي، بل فعلت الرأسمالية بمفهوم التقدم ما شاء لها، فحولته الى مطية وعبدٍ لأطروحاتها في الهيمنة على الفرد من خلال مفاهيم براقّة ونشر كل ما هو زائل بل عِبارة عن زَبد، كالاستهلاك، والموضة مثلاً.

ومن خلال سحر أفكار التقدم قام محاربون أشداء من اجل فرض رؤيتهم لمستقبل البشرية. فكانوا على استعداد للقتال من أجل فرض النظام الجديد وفرض مفاهيم المساواة والعدالة، إذا لزم الأمر عن طريق العنف، ولنا في لينين مثل ساطعُ. ففي كتابه الدولة والثورة وكتابه الاخر « ما العمل؟»، من أعظم الأمثلة. فقد كان شديد الوضوح فيما يتعلق بالسبل لفرض مفاهيمه الاشتراكية عن طريق القوة.

الجنة الشيوعية او هذا ما أراده لينين ونفذه فيما بعد ستالين، لم تكن إلا جحيماً لمن عاش في كنهها. لينين أنشأ نظاما شمولياً لا مثيل له في التاريخ الإنساني وكان من أوائل من استفاد منه الأنظمة الفاشية.

****

لقد أثار برودون غضب البرجوازية بنشره عام 1840 كتاب بعنوان: ما هي الملكية؟ فكان جوابه («الملكية سرقة»)! هذه النتيجة التي توصل اليها هذا

الثوري الفرنسي بعيدة عن الدقة.

ومع ذلك عّبر ماركس عن اعجابه به، وذلك لجرأته الاستفزازية التي يضع بها يده على الروح الرأسمالية.

عندما ظهر البيان الشيوعي الذي وقعّه ماركس وإنجلز عام 1848، كان القرن الذي عاش فيه كلا المفكرين قائمًا على الوحشية الرأسمالية ولا زالت إنما أكثر دهاءً وخبثًا، والتي تعني أولاً الاستغلال.

لم تكن الثورة قد بدأت بعد لبناء جنة البروليتاريا، لكن منظريها شحذوا أقلامهم لإرساء أسس الفلسفة الجديدة.

جاء كارل ماركس ليعلن دكتاتورية البروليتاريا كمرحلة انتقالية بين الرأسمالية والشيوعية، وانخرط في الأممية في لندن عام 1864.

كان للمشروع الثوري نشيده في عام 1871، عندما نشر يوجين بوتييه، مصمم الأقمشة والشاعر الباريسي، في مجلة الأممية، في أعقاب قمع كمونة باريس التي كان عضوًا نشطًا فيها، هذا النشيد الذي أصبح النشيد الوطني لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1944؛ وبقى حاضراً في المنظمات الاشتراكية ذات الاتجاه الماركسي والمنظمات الشيوعية في جميع أنحاء العالم.

المذهل والمثير للعجب، ان هذا الشاعر الثوري أعاد بناء الجنة ونقلها من السماء الى الأرض. وعند الترجمة نجد التالي:

«إنها ثورة النهاية.» يجب ألا يكون هناك أي خطأ

إن البروليتاريين لا يتنبؤون بالنهاية الوشيكة للعالم، بل بدستور عالم جديد لا ينبغي أن ينتهي.

إنهم لا يعِدون بإخراج الأبرار من الجحيم ليأخذوهم إلى الجنة،

لكنهم يدعون «ملعوني الأرض» إلى النهوض والاستيلاء على السلطة.

هذا النشيد الثوري، هو بلا شك الأكثر شهرة في العالم، ويظل مثل جوهرة مختارات في مكتبة السماء.

أترجم هنا بعض المقاطع، مع انه مترجم عن الروسية أساساً، لكنني لا اثق بكل ما ورد في تلك الترجمات. هذا النشيد الأممي الذي يُغنى من قبل جوقة وهو بطبيعة الحال نشيد لا يمكن ان يغنى من قبل منشد واحد:

وقوفا! ايها المعذبون في الأرض،

وقوفا! أيها المحكوم عليهم بالجوع.
العقل يرعد في فوهة البركان:
هذا هو انفجار النهاية.
من الماضي، دعونا نصنع صفحة نظيفة،
أيها الحشد العبيد، وقوفاً! وقوفاً!
العالم سيغير قاعدته:
نحن لا شيء، دعونا نكون كل شيء!
هذا هو الصراع الأخير.

****

ستسيطر الشيوعية التي ابتكرها لينين على جميع القارات، وحتى نهاية الخمسينيات، لا يزال بإمكاننا سماع العمال يعدون بـ «الأمسية العظيمة»، تمامًا كما استحضر آخرون بحنين في صباح اليوم الأول للعالم.

ومع ذلك، لم تكن الجنة للجميع وفي كل مكان في القرن العشرين، وقد ابتكر الرجال، بل البارع والحذق منهم وأقصد بالذات لينين، مفهوم النخبة التي تقود المجتمع نيابة عن الشعب الجاهل كما ورد في كتاب لينين الخطير والذي غيّر مجرى القرن العشرين « ما العمل؟»، ولكن سيتم بناء الجحيم بدلاً من الجنة.

كان المفروض ان يقوم أصحاب الوعي والحنكة والذكاء ولينين اولهم، بمساعدة الجماهير البائسة على الازدهار، وخلق الظروف المناسبة لسعادة هذه الجماهير الغفيرة، ومنحهم الفرصة لكي يتصالحوا مع ذواتهم ومع العالم.

عندما نتمعن جيداً نجد ان النظام الذي ابتكره لينين هو أعظم نظام في تاريخ البشرية فليس هناك من يدعو للمساواة كذلك النظام، إنما نظريا وعلى الورق الذي جف حبره، ولكن وعند التطبيق وجدنا نظاماً قائماً على الإرهاب والقتل والتخويف والمراقبة. بل يمكنني ان أقول انه اسوا نظام في تاريخ البشرية عند التطبيق. على العكس من ذلك، فأن النظام الديمقراطي الدي جاءت به أفكار التنوير، هو أسوأ نظام نظرياً لكنه الأفضل عند التطبيق، فيما انتجت البشرية من أنظمة عبر تاريخها الطويل.

إذن ما الذي كان يجب اختراعه لكي نعود إلى العصر الذهبي؟ الخيال لا

حدود له وسنلتقي قريباً بالحالمين في العالم الرأسمالي.

الجنات الجديدة للغربيين

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تهاوى الهوس بالألفية الجديدة، ولم يعد الأمر يتعلق بالبحث عن الفردوس المفقود، ولا بالتحضير للدخول إلى الجنة المستقبلية، باستثناء المسيحيين الأتقياء الذين كرسوا لهذه الأفكار حياتهم. ولم يتعلق الأمر بالأمل في تقدم لاحق، دائمًا لاحقًا، من شأنه أن يساهم في راحة الجميع في الحياة اليومية.

انتشلت الولايات المتحدة وعبر مشروع مارشال الأمريكي أوربا الغربية من حالة العجز والدمار الذي تعرضت له مدنها واقتصادها بسبب الحرب العالمية الثانية الباهظة التكاليف بشرياً ومادياً فوقفت أوربا الغربية على قدميها مجدداً. صاحب ذلك تطور الصناعة والزراعة وازدهار هذه البلدان في كل المجالات.

وكان الحضور الأمريكي طاغياً في أوربا بل في كل بلدان العالم، إذ اكتشف الأوروبيون في معرض الفنون المنزلية ماكينات الغسالات وغسالات الأطباق والكنس والفرشاة والتشميع والطحن والتجميد والحياكة والكي الخ.

أفكار الاستهلاك كانت من الفعالية بدرجة انها سادت في هذه البلدان، واصبح الوهم يتمثل بشراء السعادة في أنابيب، في صناديق، في عبوات، في ملابس زاهية للرجال والنساء وفي أقلام يمكن التخلص منها، وشفرات حلاقة كهربائية... نماذج من الجنة الاستهلاكية وجدت طريقها في عربات التسوق التي توفرها الأسواق الكبيرة بما يطلق عليه سوبر ماركت.

بموازاة ذلك جاء دور التلفزيون، حيث قام بمهمة عظيمة تمثلت بسد الفراغ الذي هو جزء من بنية العقل البشري ، بل بتحويل الكائن البشري الى حيوان تافه في معظم الأوقات .وكانت هناك الإعلانات التي تغري المواطن بشراء ما لا حاجة له به ، وتبع ذلك بل رافقه الموضة فيما يتعلق بالملابس والسيارات ، والقراءة، والعروض الخ.

استهلك المواطن دون أن يفكر، فهو مبرمج لاحترام النظام القائم على الاستهلاك.

****

الجنة، على الفور

في ذلك الوقت، في مايو 1968، أراد جيل الشباب أن يحرر نفسه من سجن برجوازي كان يخضع لمراقبة شديدة، من أقصى اليمين إلى الحزب الشيوعي، ومن قبل أنصار النظام.

في ربيع عام 1968، رفع الشباب في مدينة باريس هذا الشعار: «الجنة، على الفور!»، تمثل ذلك برفض المؤسسات التي تحكم البلد (سياسية واقتصادية وقانونية وثقافية) رفضاً قاطعاً.

بل رفض القيم البرجوازية وهم في غالبيتهم العظمى من عوائل برجوازية، والمحرمات بكافة أنواعها والمطالبة بالحرية الكاملة المطلقة.

كان هناك حديث مفرط عن الثورة، على الرغم من أن الثوار الزائفين لم يكن لديهم برنامج يمكن أن يستبدل عقدا اجتماعيا بآخر. ما قام به الشباب كان بالأحرى تمردًا فوضويًا ليس له أي طموح سوى تحقيق السعادة الدائمة على الفور. كانوا ثوريين، على طريقتهم الخاصة، فهم ضد كل ما كبّل حريتهم.

ولو تأملنا في تلك الحركة الشبابية التي تركت آثارها ليس في فرنسا فحسب بل في معظم بلدان الغرب، فسنجد انها تتكون من ثلاثة تيارات لا جامع بينها، التروتسكية، والفوضوية والإيروسية الاغريقية، أي ممارسة الجنس دون قيود.

مثلت تلك الحركة بالفعل جنتهم التي كانوا يأملون بها، لأنهم، بعد قرون من ضبط النفس الحكيم، كانوا يرغبون في تجريد أنفسهم من ملابسهم دون إحراج وممارسة الحب الحر كما يمكننا أن نتخيل في اللحظة التي يشاؤون. فأسلافهم كانوا ولاسيما النساء الكاثوليكات بالذات لا يتخلين عن ملابسهن تماماً اثناء ممارسة الحب. الجنس كما نعلم خطيئة لابد منها في الكاثوليكية.

رفضوا عالم الاستهلاك أي جنون الشراء كحالة مرضية. ودعوا الى العودة الى الطبيعة. كثير من الشباب، الذين نشأوا سابقًا في راحة، تخلوا عن الحمام، والثلاجة، والسيارة، ومتع المدينة المغشوشة ليذهبوا ويربّوا الماعز في مشقة في المناطق الريفية.

جنة شباب تلك الانتفاضة خرجت عن مفاهيم الفردوس في سفر التكوين. فجنة عدن قامت لأن الرب أراد لها ان تقوم. في حين رفض متمردي 68

كل سلطة، سواء كانت إلهية أو أبوية أو قضائية أو زوجية. ففي احدى الشعارات المعروضة في جامعة السوربون هجوم ونقد لاذع للسماء نفسها: «كيف يمكن للمرء أن يفكر بحرية في ظل الكنيسة؟»

لقد رفض الرجال طغيان رأس المال، والأعمال التجارية، والرؤساء الكبار والصغار. طالبت النساء بالحق في المتعة، وحرية اختيار الإخصاب، والولادة غير المؤلمة، والمساواة في جميع المجالات، وقد سئمن من التلاعب بهن واستغلالهن وإساءة معاملتهن لفترة طويلة..

الجنة على الفور، ولكن من دون رئيس! ارتعدت البرجوازية، .وخافت الطبقة السياسية، واعتقد يسار الأحزاب والنقابات أن قوى لا يمكن السيطرة عليها تغلبت عليهم. استمر الارتباك والخوف من نتائج ثورة الشباب والتي تجاوزت الحدود الفرنسية فوجدت صدى لها في ألمانيا وبريطانيا وفي الولايات المتحدة، واليابان، وغيرها من دول الغرب.

أولئك الذين رفضوا كل خضوع ابتكروا هنا وهناك مساحات اعتبروها جزء من جنتهم، حيث يمكنهم الاجتماع، والاستماع بحماسة وأحيانًا بجنون إلى أصنامهم من موسيقى البوب والروك، ويحبون بعضهم بعضًا دون قيود، ويستهلكون الكمية المناسبة من المخدرات للتحليق فوق الحياة. وبفضل العشب الذي لم يكن دائما من المروج العادية، تم إنشاء الجنات الاصطناعية، التي أصبحت بدائل للجنة الطبيعية الافتراضية، وبعبارة أخرى الجنة الإلهية، في كثير من الأحيان في المطر وفي الوحل، من أجل النشوة المشتركة.

في وقت مبكر من عام 1969، تم تنظيم ما يسمى بمهرجان وودستوك في بيثيل، نيويورك، في الفترة من 15 إلى 18 أغسطس، لاستقبال 50 ألف شخص. كان هناك أكثر من 450 ألف مشارك في هذه المنطقة من ثقافة الهيبز، التي أصبحت ثقافة مضادة ومناهضة سلمية للرأسمالية.

هذه فرصة للتذكير ببعض الشعارات الأكثر شهرة أو رمزية التي ازدهرت في عام 1968 على جدران باريس، وفي الجامعات، وفي مسرح أوديون. عرف مؤلفوها كيف يجعلون الكلمات تغني.

لا بد أن الجميع قد تذكروا الشعارات المعادية للسلطة وقوى النظام، والتي

كانت في أغلب الأحيان مع لمسة من الابتذال لصدمة البرجوازية:

«فخ الانتخابات للأغبياء»، فلنبدأ بدلًا من ذلك، بالبقاء في موضوعنا، بتمجيد الرغبة، والأحلام، واليوتوبيا، والرغبة في اختراع الجنة، باختصار:

كل شيء، الآن وإلى الأبد كن واقعياً، واطلب المستحيل!

وإليكم بعض الشعارات التي تدعونا إلى الانتفاضة ضد كل القوى، وكسر القيود التي تعوقنا، ورفض قوانين الاقتصاد الرأسمالي القاسية، والانتصار على حريتنا:

وهنا أخيراً الدعوة إلى التحرر الجنسي والتمتع دون عوائق. كان الأثر الأول لخطيئة آدم في السرديات المسيحية هو العار الذي لحق بأبوينا الأولين من إظهار عريهما، ولم يتوقف اللاهوتيون، بعد القديس أوغسطين، عن الإشارة بإصبع الاتهام إلى التصرفات الوحشية التي كان المنفيون من الفردوس ينغمسون فيها. بدون أي إشارة إلى الكتاب المقدس.

أراد الشباب في عام 1968 كسر المحرمات، والتخلص من كل العوائق والتمتع ولا سيما الجنسي دون خوف ومراقبة السطات الحاكمة.

ولم يعد للأمر علاقة كبيرة باليسارية الجديدة.بدءاً باللينينية أو الماوية التي ستستمر لفترة طويلة.

في تلك الحركة كان ماركس ورامبو حاضران، وحده الشاعر يبقى يُعاد النظر فيه في ضوء اليسارية ما بعد الثامنة والستين، حيث اختفت مفاهيم الصراع الطبقي، وانتقلت بالصراع الذي بات يتعلق بتحرير الرغبات، والجنس، والطعن في السلطات، وإدانة الهيمنة بكافة أنواعها...

باختصار، نحن نتعامل مع ادعاء مناهض للسلطوية ومذهب المتعة.

قامت تلك الانتفاضة بسبب العديد من المحظورات، والبيروقراطية الثقيلة، والتسلسلات الهرمية المتصلبة، ولم تبرح اخلاق القرن التاسع عشر، لذا فإن المطالبة بالحكم الذاتي للفرد منطقية. إذ خلق ديناميكية اجتماعية، (لم تعرفها فرنسا سابقاً) .[215]

215- Jean-Pierre Le Goff,Mai 68, l›héritage impossible: Suivi de «Mai 68 n›appartient à personne» Poche – 24 mai 2006. Dominique Fessaguet, Désordre et plaisir en mai 68, Topique 20153/ n° 132.

لكنهم فشلوا مع ذلك في بناء جنتهم التي لم يعد لديهم تمثيل واضح لها. بل عادت الأمور الى سابق عهدها وعاد هؤلاء الشباب حيث تخبرنا الكتابات الاجتماعية عن تلك الفترة من ان معظمهم جاء من عوائل برجوازية. وتحول أهم عَلَم في تلك الانتفاضة وذلك التمرد وأقصد دانييل كون بيندت، الى أحد كبار المدافعين عن النظام الديمقراطي في أوربا.

اهم الشعارات في تمرد 68 والهيبز تمثل بالدعوة لممارسة الحب:

مارس الحب، ولكن ليس الحرب

كلما مارست الحب أكثر، كلما زادت رغبتي في إحداث ثورة.

أنا أقوم بثورة، كلما زادت رغبتي في ممارسة الحب

الشباب يمارسون الحب، وكبار السن يقومون بإيماءات فاحشة

ويعلم الجميع أن الرقابة الداخلية تكون في بعض الأحيان أشد شراسة من رقابة كافة السلطات القائمة. تحرير نفسك يعني أيضًا تحرير نفسك من نفسك وتحرير نفسك من المحرمات الخاصة بك: إن بناء الثورة يعني أيضًا كسر كل القيود الداخلية.

عندما انضمت الطبقة العاملة الفرنسية وعبر النقابات، إلى الحركة الطلابية، تم الاستيلاء على الفوضى وتوجيهها وخنقها، وبدأ الاحتفال بالعري وزراعة المخدرات محليًا والشعارات التحررية أقل إلحاحًا.

****

وهكذا وبعد مرور آلاف السنين فقد الأمل في حياة اخرى قبل اكثر من 300000 عام على ضوء المكتشفات الأثرية أهميته وفاعليته في الأيديولوجية الدينية.

أستمر الإنسان يحلم بجنة في عالم اخر يأتي بعد انتهاء الحياة فوق الأرض ومنذ عهود لا تعيها ذاكرة الإنسان فربما وجد الأمل قبل مليون عام، كما أشرت الى ذلك .

الإنسان المعاصر في معظم دول الغرب تخلى عن أوهام الجنة، وسمحت له أفكار التقدم ولا سيما في القرن (التاسع عشر) بالايمان بإقامة جنة فوق الأرض.

ليس هناك من قوة تتمكن من منع الإنسان في أن يحلم بحياة أفضل، انما التجارب المبنية على ضوء التجربة السوفيتية، اثبتت أن الإنسان في تلك

الأنظمة مُكّبل ولا يمارس حقه في الحرية والتعبير عن ذاته. ولم يوفر النظام الرأسمالي الجنة فوق الأرض، فهو قائم على الاستهلاك والتلاعب بوعي الفرد ودفعه للابتذال والسخف.

****

في كتابي الأول والذي كتبته قبل أكثر من خمسين عاماً وكان عمري آنذاك لا يتجاوز 23 عاما، أنهيت ذلك الكتاب العتيق بهذه العبارة «ولكننا نستطيع ان نستنتج على ضوء النتائج العلمية بأن، الإنسانية سيكون باستطاعتها الانتقال إلى كوكب آخر من الممكن ان تتوفر فيه أسباب أفضل في حالة استحالة البقاء على الأرض»[216].

بعد مرور أكثر من نصف قرن، نجد ان تلك العبارة من شاب يضع قدمه الأولى في عالم الكتابة والنشر، أصبحت قابلة للتنفيذ. فقد كشف الملياردير وأغنى رجل في العالم إيلون ماسك عن خطط لدى شركته «سبيس إكس» لإنشاء مستعمرة بشرية على سطح كوكب المريخ بحلول عام 2054.

وادعى هذا الانسان وهو أحد كبار الممثلين للعالم الرأسمالي في هذه اللحظة من تاريخ البشرية، من ان « الجنة المريخية»، بعد التأكد من وجود المياه في ذلك الكوكب والذي يعني وجود الأوكسجين، ستقوم اولاً على مدينة تتسع لمليون نسمة في غضون 30 عاماً.

بل أعرب هذا النظام عن وجهه القبيح ودون مواربة، عبر تحويل الإنسان نفسه وبعد الحرب العالمية الثانية الى سلعة قابلة للبيع والشراء من خلال التلاعب بوعيه وضميره ،

ستعيد الرأسمالية في تلك الجنة الموعودة مفاهيم السيد والعبد والشعوب المختارة والشعوب الضالة.

مرة أخرى أقول أن الجنة الموعودة لا يمكن أن تتحقق عبر مفاهيم نهاية التاريخ التي أتت بها الأفكار الثورية وتبناها ماركس بالذات مستندا في ذلك على مقولات

216- فالح مهدي، البحث عن منقذ، الطبعة الأولى دار أبن رشد 1981 والطبعة الثانية، مكتبة النهضة العربية، بغداد2020 ،ص 226 من الطبعة الأولى.

هيجل، ولا عبر بشاعة الرأسمالية حيث لا تتوانى عن تدمير الاخر المختلف.

من جانب آخر ماذا لو أتبع من يدّعون الإيمان وامتلاك الحقيقة، نصيحة الرب لآدم وحواء وفقًا لسفر التكوين وزرعوا حدائقهم هنا على الأرض؟ هناك حدائق على الأرض، وهناك حدائق حميمية، يمكننا صيانتها هنا أثناء وجودنا المؤقت فوق هذه الأرض، بدلاً من إيجاد كل السبل لكي يبقى الأخر المختلف تحت نير الجهل، وبدلاً من حياكة كل المؤامرات والمساهمة بقتل الناس الأبرياء من اجل مصالح آنية ومحدودة وهيمنة فئات مجرمة وقاتلة، على مقدرات شعوبها، وبدلاً من اشعال الحروب وتدمير الآخر المختلف واحتلال ارضه باسم الإله!

وإذا أخذنا بمقولة البابا يوحنا بولص الثاني الذي أشرنا اليه، للتوفيق بين العقل والإيمان، حيث لا يستطيع الأخير أن يناقض الأول فالعلم المعاصر يعلمنا بل يؤكد لنا ان ليس هناك فوق وتحت وسماء وأرض فهذه التقسيمات من ابتكار الإنسان.

من حق المؤمن ان يأمل بجنة، إنما هذه الجنة ليست مكاناً محدداً، فهي موجودة في كل مكان وفي لا مكان. بل فوق الأرض إذا توقف هذا الإنسان عن بربريته وعدوانيته.

الجنة ولدت بفضل مفاهيم الأمل لذا فمتى توقف الإنسان عن الحلم انتهت الحياة وانتهى الأمل.

المصادر والمراجع باللغة العربية

المعاجم والموسوعات العربية
القرآن الكريم
الكتاب المقدس
نهج البلاغة
ابن منظور، لسان العرب، بيروت (د،ت)
الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية 1990 .
عبد الباقي (محمد فؤاد)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
الفيروز أبادي، المحيط (د،ت) .
الزبيدي ابن الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقياس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1979.
راجع المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، دار الأضواء، بيروت 1986 ونسنك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، هولندة .أ.]. بريل . تونس دار سحنون، 1994.
موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الأول، تحرير: فراس السواح، دار التكوين ، دمشق الطبعة الرابعة 2017 .
صحيح البخاري.
صحيح مسلم.
موقع شيخ الإسلام الإمام ابن قيم الجوزية.
المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 2010.

موسوعة الأسئلة العقائدية، الجزء الثاني
مجلة دعوة الحق، موقف الإسلام من نظرية النشوء والارتقاء: العدد52 ، وزارة الأوقاف في المملكة المغربية.

المصادر والمراجع باللغة العربية أولاً

إبراهيم محمود، جغرافية الملذات، الجنس في الجنة ، دار رياض الريس 1998.

إبراهيم محمود، الجنس في القرآن، منشورات رياض الريس، 1994.

إبراهيم العريس، (رسالة الغفران) للمعري: البرهان القاطع على فلسفة رهين المحبسين. العربية في 3 مارس 2018.

ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار ابن حزم2009.

أحمد الحوفي: الجنة والنار في القرآن الكريم، مجلة الهلال، العدد2 ،1974

ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المجلد الأول، دار عالم الفوائد،1428 .

أبو العلاء المعري، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط5، 1969

أحمد زين الدين، تعاويذ الجسد الديني، بيسان للنشر والتوزيع، 2020.

كتاب المسخ للشاعر أوڤيد، ترجمه وقدم له ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، المجلد الثالث، مركز النشر: مكتب الإعلام الإسلامي ، قم ، 1405 .

الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، 2001.

شرح الأصول الخمسة لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد بن الحسين بن ابي هاشم، حققه وقدم له عبد الكريم عثمان، الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة 1996

أدونيس (ترجمة)، التحولات، عن المجمع الثقافي في أبو ظبي، 2000 .

آناكا هاريس: الوعي دليل موجز للغز الجوهري للعقل، ترجمة أحمد هنداوي، الناشر : مؤسسة هنداوي ، 2017.

ب

بوجمعة بوبعيو، حضور الرؤيا واختفاء المتن، دارسة في علاقة الأسطورة بالشعر العربي المعاصر، مطبعة المعارف عنابة، ط1، 2006

ت

توفيق حميد، هل يتعارض قبول نظرية التطور مع القرآن؟ الحرة، ديسمبر 2022.

ح

حسن عثمان (ترجمة وتقديم) كوميديا دانتي أليجييرى "الفلونسي مولداً لا خُلقاً»، النشيد الأول، ترجمة، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر، (د.ت) ، راجع التصدير المتميز الذي قدمه المترجم من ص7 الى ص77 ، والذي يعادل كتاباً لوحده، ففيه مادة تنم عن معرفة وعلم. وعن نفس الدار صدر ولنفس هذا المترجم البارع: الكوميديا الإلهية: المطهر، 1964 ، حيث كتب مقدمة لهذا العمل لا تقل بهاء عن المقدمة التي كتبها للجزء الأول «الجحيم»، وأخيراً: الفردوس (د.ت).

ج

جرانت ألين، تطور فكرة الله، ترجمة على مولا ،2011.

ر

رودولف أوتو: فكرة القدسي: التقصي عن العامل غير العقلاني في فكرة الإلهي وعن علاقته بالعامل العقلاني، ترجمة ن جورج خوام البولسي، دار المعارف الحكمية، 2010.

س

سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، دار التنوير،2005.

سامي سعيد الأحمد: ملحمة كلكامش. دار الجيل. بيروت 1984.

سامي سعيد الأحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم. بيروت المركز الأكاديمي للأبحاث 2013.

ش

شاكر الأنباري (تحرير)، لا إمام سوى العقل، نجمة للنشر الإلكتروني

ص

صالح بن رمضان، المعري ورسالة الغفران، محاورة الحدود وحدود المحاورة، دار اليمامة للنشر والتوزيع، تونس،1993.

ط

طه باقر، ملحمة كلكامش، بغداد، وزارة الثقافة والأعلام/ مديرية الثقافة العامة، الطبعة الثانية 1971.

طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1963

ع

عبد الرحمن بدوي (تأليف وترجمة)، من تاريخ الإلحاد في الإسلام، الطبعة الأولى 1945، والثانية في عام 1993 عن دار سينا للنشر.

عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، شرح الاقتصاد في الاعتقاد، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net] الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - ١٢ درسا.

علي طه عبد العال، البعث عند اخوان الصفا، جامعة الأزهر ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية للبنين بأسوان، العدد: الخامس، 2022

عبد القادر زيدان، قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ج2، ط،2007،

ف

فالح مهدي، نقد العقل الدائري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بغداد 2017.
ـــ نقد العقل الدائري، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بغداد 2017.
ـــ صلوات العالم، بيت الياسمين، الطبعة الثالثة 2021.
ـــ تاريخ الخوف بيت الياسمين ، الطبعة الثانية ،2020.
ـــ البحث عن جذور الإله الواحد، الطبعة الأولى 2017، الطبعة الثالثة وعن بيت الياسمين 2020.
ـــ البؤس الأنثوي: دور الجنس في الهيمنة على المرأة. بيت الياسمين ، 2024.
ـــ البحث عن منقذ، الطبعة الأولى دار ابن رشد 1981 والطبعة الثانية، مكتبة النهضة العربية، بغداد2020
فراس السواح، دين الإنسان. دار علاء الدين. دمشق 1994.
فراس السواح، مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة، بيروت، دار الكلمة للنشر 1980
ك
كارم السيد غنيم، معجزة الإسراء والمعراج موقع إعجاز القرآن والسنة، في ديسمبر 2019.
ل

ليو تولستوي، السعادة الزوجية وبوليكوشكا، روايتان، ترجمة سامي الدروبي، دار التنوير، القاهرة، الطبعة الأولى 2013.
محمود داود دسوقي خطابي، قياس ما بين مصراعي الجنة من مكة إلى بصري الشام وهجر، في https:// Kenanaonline.com
م
الشيخ محمد متولي الشعراوي، الإسراء والمعراج، دار الجيل بيروت، ومكتبة التراث الإسلامي في القاهرة،2003.

محمد الطيب النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين، بيروت - لبنان: دار الندوة الجديدة

مصطفى السقا وآخرون، تعريف القدماء بأبي العلاء، إشراف طه حسين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، ط4، 1986.

توفيق حميد، هل يتعارض قبول نظرية التطور مع القرآن؟ الحرة، ديسمبر 2022.

محمد الحمامصي، هكذا يرى مفكرو الإسلام اليوم نظرية داروين، الحوار المتمدن، 12 فبراير، 2009.

نائل حنون، ملحمة جلجامش، ترجمة النص المسماري مع قصة موت جلجامش والتحليل اللغوي للنص الأكدى،، دمشق، دار الخريف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2006.

و

وسيم السيسي، رسالة الغفران، المصري اليوم11--5 2024.

المصادر الأجنبية

المعاجم والموسوعات الأجنبية

Petit Robert, Dictionnaire, Paris, 2012.

Larousse, Dictionnaire de Français2020.

Dictionnaire de Psychologie et Psychopathologie Des Religions, sous la direction de Stéphane Gumpper et Franklin Rausky ,Paris , Bayard,2013.

Dictionnaire de l'Académie française,1694, article « ciel ».

Encyclopedia of Islam, 1st edition

Encyclopedia of Islam, 2st edition

Encyclopédie universelle (PUF),1990.

Dictionnaire Encyclopédique de la bible, Paris, Brepols,1987.

The Encyclopedia of Religion (ED) MirceaEiade.MacMillan Reference Books (January 1993.

Interdisciplinary Science Reviews, vol. 10

Encyclopedia Universalis, France, 2008

Encyclopaedia Judaica, vol. 3, USA, 2007

Transactions of the American Philosophical Society.

Dictionary of Deities and Demons in the Bible, ed. Karel van der Toorn, Leiden, New York, 1995.

المصادر والمراجع باللغات الأجنبية

Jean Bottéro : L'Épopées de GilgameŠ. Le grand homme qui ne
ne voulait pas mourir, Paris Gallimard.1992.

Bottéro, J. Mesopotamia: Writing, Reasoning, and the Gods. Chicago and London: University of Chicago Press, 1992.

Bottétro, J. Religion in Ancient Mesopotamia. Chicago and London: University of Chicago Press, 2001.

Jean Bottéro, La Plus Vieille Cuisine Du Monde, Paris,
Audibert, 2002.

J. Bottéro, La religion babylonienne, Revue de L'histoire des religions ,1953n° 1442-,PP 239240-.

Jean Delumeau, Une Histoire Du Paradis. Vol 1 Le Jardin des Délices, Paris, Fayard ,1992.

Jean Delumeau : Que reste -t-il du paradis, paris, vol2, Fayard,2000.

La CROIX, Héloïse de Neuville, 282011 /10/.

Pascal Boyer : Et L'Homme Créa Les Dieux, Poche, folio-
Essais 2003.

Jerrold S. Cooper: The curse of Agade, Baltimore, Johns
Hopkins University press.1983.

Yves Coppens, La Vie des Premiers Hommes, Odile Jacob, 2010.

Georges Dumézile, Mythe et épopée, Galliard1955.

Irving Finkel, The Ark Before Noah: Decoding The story of
The Foold, Ed: Hodder&, UK.2014.

Irving Finkel, Arche Avant Noé, Ed: JC Lattès2015.

C.Greetz, The interpretation of cultures. New York: Basic Book.1973.

J. B. Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern texts relating to the
Old Testament, Princeton University Press,1955. Pp.60- 72 for
the Enuma Elish Creation myth and pp.93- 95 for the Flood

story in the Gilgamesh Epic.
Thomas Römer(Ed): Ce que La Bible doit à l'Égypte, Préface de, Paris, Bayard ,2008.
Thomas Römer (ED) Enquête sur Le Dieu Unique, préfacé de Thomas Romer, Paris Edition Bayard: le Monde de la Bible 2010.
William H. Shea, A Comparison of Narrative Elements in Ancient Mesopotamian Creation -Flood Stories with Genesis19-. Geocience Research Institute.no : 9- 29. 1984.
Victor J. Stenger, Has Science Found God? Ed: Prometheus Books2003.
E.B. Taylor: Primitive Culture: researches into the Development of Mythology, Philosophy, Religion, Language,
Art, and Custom. 2 vols, London 1903.
Hamayon R., La chasse à l'âme. Esquisse d'une théorie du chamanisme sibérien, Nanterre, Société d'ethnologie, 1990,
Boesch C., Wild Cultures – A Comparison Between Chimpanzee and Human Cultures, Cambridge, Cambridge University Press, 2012.
Kühl, H., Kalan, A, Arandjelovic, M. et al., Chimpanzee accumulative stone throwing, Scientific Report, n° 6, 22219
Tort,P , L'effet Darwin, Sélection naturelle et naissance de la civilisation, paris, Seuil, Points, Scieznce ,2008,P125126-.
Darwin Ch., La descendance [/filiation] de l'homme et la sélection sexuelle, (traduit de l'Anglais par Edmond Barbier d'après la seconde Edition anglaise revue et augmentée par l'auteur), Paris, Librairie C. Reinwald, Schleicher Frères éd., 1876.
Eliade M., Histoire des croyances et des idées religieuses, t. 1, Paris, Payot, 1983,
Lactance, Institutions divines (IV, 28, 316-).
E. KANT, La religion dans les limites de la seule raison, trad. et prés. par A. Renaut, Paris, Presses universitaires de France, 2016.
D.HUME,Natural History of Religion, London,A.and H.Bradlaugh Bonner, 1889.

M. MARETT, Threshold of Religion, London, Methuen, 1914 (1909),

S. FREUD, L'avenir d'une illusion (Bibliothèque de psychanalyse), Paris, Presses universitaires de France, 1973

B. RUSSELL, Why I am not a Christian, London, Routledge, 2004 (1957). P18.

H. BERGSON, Les deux sources de la morale et de la religion (Quadrige), Paris, Presses universitaires de France, 2008 (1932).

Philippe Ariès, L'Homme devant la mort, Seuil,1977,coll.»L'Univers historique» ; rééd. en poche dans la coll. «Points» histoire.

d'Henry de Lumley(Sous la direction) L'univers, la vie, l'homme, éditions du CNRS, 2012.

J. PLAMPER,The History of Emotions. An Introduction, Oxford University Press, 2015.

Ricœur Paul et André LaCocque , « Penser la Création », in Penser la Bible, Ed. du Seuil, Paris, 1989.

RICŒUR, Paul (1983), Temps et récit I : L'intrigue et le récit historique, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

RICŒUR, Paul (1984), Temps et récit II : La configuration dans le récit de fiction, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

RICŒUR, Paul (1985), Temps et récit III : Le temps raconté, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

RICŒUR, Paul (1986), Du texte à l'action. Essais d'herméneutique II, Paris, Seuil, Coll. « Esprit ».

RICŒUR, Paul (1988), « L'identité narrative » dans La narration. Quand le récit devient communication, Genève/Neuchâtel, Labor et Fides.

RICŒUR, Paul (1992), Soi-même comme un autre, Paris, Seuil, Coll. « Points ».

Hélène Guiot, Mythes océaniens de création du monde, dans Encyclopédie des historiographies : Afriques, Amériques, Asies, Vol 1, Presses de l'Izalco, Paris, 2020.

Bruno SAURA, Mythes et usages des mythes. Autochtonie et ideologie de la terre mère en Polynésie, Louvain/Paris, Peeters, 2013.

Jean Delumeau : Que reste -t-il du paradis, paris, Fayard,2000.

Henri Bergson , Durée et Simultanéité , Paris, Flammarion ,2021.

Brigitte Lion, Babylone : Le soleil et la lune, L'Histoire, N° 497498-, Juillet -Aout 2022,

John H. Rogers, "Origins of the ancient constellations: I. The Mesopotamian traditions", Journal of the British Astronomical Association 108 (1998) 9–28

Verderame, Lorenzo, "The Primeval Zodiac: Its Social, Religious, and Mythological Background", in J.A. Rubiño-Martín et al., Cosmology Across Cultures, ASP Conference Series 409, San Francisco, 2009.

P. Rocher Le calendrier traditionnel chinois par, Institut de mécanique céleste et de calcul des éphémérides – Observatoire de Paris [archive] », sur imcce.fr (consulté le 20 juillet 2019)

Maurice Sartre, Le Bateau de Palmyre, Quand les mondes anciens se rencontreraient, Paris, Tallandier, 2021

Jean -Claude Schmitt, Les Rythmes au Moyen âge, Paris, Gallimard,2021.

Conscience, conscience : identité, individu, morale, pensée réfléchie, sens éthique, Open Edition Books,PP8187- .

Yves Mambert , La naissance des religions , 2007, 147- 181. Gods, Demons and Symbols of Ancient Mesopotamia: An Illustrated Dictionary Broch – 1 may 1992, Barrett, C. E. "Was Dust Their Food and Clay Their Bread? Grave Goods, the Mesopotamian Afterlife, and the Liminal Role of Inana/Ishtar." Journal of Ancient Near Eastern Religions, 7 (2007), pp. 765-.

Cohen, A. C. Death Rituals, Ideology, and the Development of Early Mesopotamian Kingship: Toward a New Understanding of Iraq as Royal Cemetery of Ur. Leiden and Boston: Brill/Styx, 2005.

Cooper, J. S. "The Fate of Mankind: Death and the Afterlife in Ancient Mesopotamia." Death and the Afterlife: Perspectives of World Religions,, ed. Hiroshi Obayashi. New York: Greenwood Press, 1992, pp. 1933-.

Dalley, S. Myths from Mesopotamia: Creation, The Flood, Gilgamesh, and Others. Oxford: Oxford University Press, 1998.

Foster, B. R. Before The Muses: An Anthology Of Akkadian Literature. Bethesda: CDL Press, 1996.

Scurlock, J. "Ancient Mesopotamian Medicine." A Companion to the Ancient Near East, ed. D. C. Snell. Oxford: Blackwell Publishing Ltd., 2007, pp. 302315-.

Scurlock, J. "Death and the Afterlife in Ancient Mesopotamian Thought." Civilizations of the Ancient Near East, ed. Jack M. Sasson. New York: Simon and Schuster Macmillan, 1995, pp. 18831893-.

The Poem of the Righteous Sufferer (Ludlul bÄ "l nÄ"meqi). Trans. B. R. Foster with minor modifications following W. G. Lambert. SOAS University of London., accessed 1 Dec 2016.

Van Der Toorn, K. B. Backing, and P. W. van der Horst, eds. Dictionary of Deities and Demons in the Bible. 2d extensively revised edition. Leiden/Boston/Koln: Brill; Grand Rapids/Cambridge, U.K.: Eerdmans, 1998

Walton, J. H. Ancient Near Eastern Thought and the Old Testament: Introducing the Conceptual World of the Hebrew Bible. Grand Rapids: Baker Academic, 2006.

Lev Fraenckel, Philosophie magazine ,n°182 septembre 2024.

Philosophie Magazine ,14 Janvier 2021.

André Comte-Sponville. Philosophie Magazine, Hors-série n°61 juin 2024, P24- 29.

Death in Mesopotamia (Copenhagen, 1980) et en particulier pp. 25 ss. : « La mythologie de la mort en Mésopotamie ancienne ». Assyrian and Babylonian Lettres..., London-Chicago, 18921914-, tome IX, n° 962, 9 sqq.C.H.W. Johns, Assyrian Deeds and Documents, II, Cambridge, 1898, pp. 246 sq., n° 1016 : rev.4 sq.

Cf. A.K. Grayson, Assyrian and Babylonian Chronicles (Texts from Cuneiform Sources, 5), New York, 1975, p. 127 : 23, A.T. Clay, Miscellaneous Inscriptions in the Yale Babylonian Collection (Yale Oriental Series, 1), New Haven 1915, p. 60.Clay, op. cit., n° 43 : 10,6 cm de hauteur sur 5,4 cm de diamètre (entier) ; F.J. Stephens, Votive and Historical Texts frome Babylonian and Assyria (Yale Oriental Series, 9), New Haven, 1937, n° 82 : 10,3 cm sur 4,9 cm en haut et 3,3 cm en bas, donc en forme de tronc de cône (restent seulement 15 ou 16

lignes centrales ; début et fin perdus).par un particulier haut placé, de sa propre « tombe ». Or, il ne s'agit, à la lettre, que d'une « maison » (bîtu) :Face 5, 12, 16 ; Rev, 2, 10, c'est-à-dire essentiellement d'un édifice, qui n'a rien de souterrain, et le terme mâna tu (ligne 3 du Rev.) ne signifie évidemment pas « lieu de repos » (contreCAD, M/1, p. 206 b : 6), mais « peine », « labeur » (sens courant du mot : ibid., p. 203s) :dMarduk : (3-be-li bîta ša-a-tu li-mur-ma[a-n]i ma-na-ah-ti-ia li-[q]í-ša (Rev. 2 Que Marduk, Monseigneur, ayant vu cette maison, me (l')accorde pour » « ...(=en récompense de) ma peine

P .Worsley Le Culte du cargo , Elle sonnera la trompette, paris , fayard,1974 .

J. Delvaille, Essai sur l'histoire de l'idée de progrès jusqu'à la fin du XVIIIe, Paris 2010.

M. Lienhard, Au cœur de la fois de Luther, Paris ,1991, p298.

Dictionnaire de l'Académie française,1694, article « ciel », et aussi jean.

Russell M. Lawson, Science in the Ancient World: An Encyclopedia, ABC-CLIO ,2004.

Jean- pierre Luminet : le Secret de Copernic, Librairie Générale Française,2008.

C.S. LEWIS: The Discarded Image, Cambridge University Press,1967.

Galilée, Dialogue sur les deux grands systèmes Paris, seuil,1992.

Pietro Redondi, Galilée hérétique, Paris, Gallimard, 1985, pp 123- 325.

Catéchisme de l'Église catholique, Paris, Mame /Plon, 1992, p566 (n°2794) .

Catholique.org. 1er décembre 2021.

R. Bultmann, Foi et compréhension, t 2 Paris, seuil, 1969 pp.103- 106.

P. ARIÈS La Mort au Moyen Âge (XIII-XVIe siècle), Paris, 1998., Essais sur la mort en Occident du Moyen Âge à nos jours, Paris, 1975 (rééd. 1977.

. P. BAUDRY (dir), Autour de la mort, Annales ESC, 31e année, janvier-février 1976. P. BAUDRY, La Place des morts. Enjeux et rites, Paris, 1999L'Anthropologie de la mort aujourd'hui, Revue de l'Institut de Sociologie, 19994-1/, Bruxelles, 2002.

A. BECKER, Les Monuments aux morts, mémoire de la Grande Guerre, Paris, 1988. Byzantine Eschatology : Views on Death and the Last Things, 8th to 15th Centuries, Dumbarton Oaks Papers, 55 , 2001.

P. CHAUNU, La Mort à Paris, XVIe -XVIIe -XVIIIe siècles, Paris, 1977.

J. CHIFFOLEAU, La Comptabilité de l'Au-Delà. Les hommes, la mort et la religion dans la région d'Avignon à la fin du Moyen Âge (vers 1320-vers 1480), Rome, 1980.

A. CROIX, La Bretagne aux 16e et 17e siècles : la vie, la mort, la foi, 2 vol., Paris, 1980- 1981.

R. GIESEY, Le Roi ne meurt jamais. Les obsèques royales dans la France de la Renaissance, trad. fr., Paris, 1987. G. GNOLI, J.-P. VERNANT dir., La Mort, les morts dans les sociétés anciennes, Paris, 1982.

P. GOUBERT, « En Beauvaisis, problèmes démographiques du XVIIIe siècle », Annales ESC (1952), p. 453468-. F. HINARD éd., La Mort, les morts et l'au-delà dans le monde romain, Caen, 1987.

V. JANKÉLÉVITCH, La Mort, Paris, 1977.

M. LAUWERS, La Mémoire des ancêtres, le souci des morts. Morts, rites et société au Moyen Âge (Diocèse de Liège, XIe -XIIIe siècles), Paris, 1997.

M. LAUWERS, Naissance du cimetière. Lieux sacrés et terre des morts dans l'Occident médiéval, Paris, 2005.

F. LEBRUN, Les Hommes et la mort en Anjou aux XVIIe et XVIIIe siècles : essai de démographie et de psychologie historiques, Paris, 1975.

J. LE GOFF, La Naissance du purgatoire, Paris, 1981.

E. LE ROY LADURIE, « Chaunu, Lebrun, Volvelle : la nouvelle histoire de la mort », Le Territoire de l'historien, Paris, 1973, p. 393403-.

M.-T. LORCIN, Vivre et mourir en Lyonnais à la fin du Moyen Âge, Paris, 1981.

M. MARGUE éd., Sépulture, mort et représentation du pouvoir au Moyen Âge, Actes des 11e journées lotharingiennes, 2629- septembre 2000.

E. MORIN, L'Homme et la mort, Paris, 1977.

J.-C. SCHMITT, Les Revenants. Les vivants et les morts dans la société

médiévale, Paris, 1994.

D. TARTAKOWSKY, Nous irons chanter sur vos tombes. Le Père-Lachaise, XIXe -XXe siècle, Paris, 1999.

L.-V. THOMAS, Anthropologie de la Mort, Paris, 1975.

L.-V. THOMAS, Rites de mort pour la paix des vivants, Paris, 1985.

L.-V. THOMAS, Mort et pouvoir, Paris, 1978 (rééd. 1999).

L.-V. THOMAS, Les Chairs de la mort. Corps, mort, Afrique, Paris, 2000.

J.-D. URBAIN, L'Archipel des morts : le sentiment de la mort et les dérives de la mémoire dans les cimetières d'Occident, Paris, 1989.

M. VOVELLE, Piété baroque et déchristianisation en Provence au XVIIIe siècle. Les attitudes devant la mort d'après les clauses des testaments, Paris, 1973 (nlle éd. augm., 1997).

M. VOVELLE, Mourir autrefois. Attitudes collectives devant la mort aux XVIIe et XVIIIe siècles, Paris, 1974. M. VOVELLE, « Les attitudes devant la mort : problèmes de méthodes, approches et lectures différentes », Annales ESC (1976).

M. VOVELLE, La Mort en Occident de 1300 à nos jours, Paris, 1983.

J. WHALEY éd., Mirrors of Mortality. Studies in the Social History of Death, Londres, 1981.

J. ZIEGLER, Les Vivants et les morts : essai de sociologie, Paris, 1976.

L .Gardet, Encyclopédie de L'Islam ,nouvelle Édition, Tome2 K PP 458- 4464.

Paul Edwards (Editor)Heaven: A History, Second edition Paperback, September 1, 2001by Dr. Colleen McDannell (Author), Bernhard Lang (Author), Colleen McDannell (Author) publisher Yale University Press; Second edition (September 1, 2001) ,Immortality Paperback - April 1, 1997by

publisher : Prometheus; Annotated edition (April 1, 1997)

Gaétan Supertino, Fera$t$on l'amour après la mort ? Ce qu'en disent les religions, Le monde des religion, n° 89, mai-juin 2018.

alim GASTI, الأسطورة الأخروية في رسالة الغفران - الجزء الثاني, La Clé des Langues [en ligne],Lyon, ENS de LYON/DGESCO (ISSN 21077029-),

octobre 2023. Consulté le252024/11/, URL: https://cle.ens-lyon.fr/arabe/litterature/classique-et-nahda/al-ustura-al-ukhrawiyya- fi-risalat-al-ghufran,2.

E. Robson, « Scholarly Conceptions and Quantifications of Time in Assyria and Babylonia, c.750250- BCE », dans R. M. Rosen (dir.), Time and Temporality in the Ancient World, Philadelphia, 2004, p. 4955-.

AUGUSTIN, saint : La Cité de Dieu. De Genesi ad litteram, trad. M. Citoleux. La Grâce du Christ et le Péché.

LUTHER, Martin :Commentaires du Livre de la Genèse, Genève, Éditions Labor et Fides, 15441554-.Propos de table, 1565.date d'édition 1977.

Jankélévitch, Vladimir : Traité des vertus, 1° édition, Bordas, 1949.P 231250-.

PIE XII, encyclique Humanis Generis, 1950.

TEILHARD DE CHARDIN, Pierre : Le Phénomène humain, Seuil, 1955.

TEILHARD DE CHARDIN, Pierre Milieu divin, essai de vie intérieure, réédition au Seuil, janvier 1998.

JEAN-PAUL II, texte remis à l'Académie pontificale des sciences sur l'évolution des espèces, 22 octobre 1996.

المحتويات

تمهيد 5
الفصل الأول قراءة في الجذور الأولى للدين 9
كيف ولدت الأديان ولماذا؟.. 13
تعريف الدين 19
الجغرافية المقدسة 21
الحاجة والدين 24
الدين البداية والتأسيس 27
الخوف، الخشية والرهبة 27
الكتابة والخوف 33
الطقوس والشعائر 38
البداية والأصل 41
دور الإخفاء في نشأة الكون...................................... 43
الشك واليقين 45
طقوس الموت 48
الخوف من الفراغ 55
إدارة الرهبة 55
الحركة – الزمن – الدين 56
التنجيم والعرافة 59
مفهوم الحركة والزمن وعلاقتهما بالدين............................ 61
الوعي – الروح- الدين.. 65
الوعي والإرادة 67

الروح وعلاقتها بالوعي..69
الفصل الثاني الأفكار الأولى للأمل...75
(بائعو) الأمل 81
في انتظار عودة المسيح 82
الموت الصانع الأول للأمل 83
الطقوس والشعائر 84
الدين المصري باعث الأمل..86
فقدان الأمل في الدين السومري..87
الجحيم التوراتي..93
مراحل تطوّر عقائد ما بعد الموت في التوراّة:..95
الموت وما بعده في الزرادشتية:..96
الفصل الثالث لماذا الجنة؟..101
حديقة عدن، أو الجنة الأرضية..107
المسيحية مبتكرة للجنة السماوية 108
عدن أو الجنة المفقودة..109
تأثير أساطير بلاد ما بين النهرين واليونانية..110
الجنة والآخرة..111
صناعة الأمل في الديانات اليونانية واللاتينية..111
الفصل الرابع الجنة المسيحية..115
الجنة السماوية 118
من يستطيع الذهاب إلى الجنة؟..119
نصرنة الأساطير الإغريقية الرومانية..120
الأرض كانت هي الجنة قبل خطأ آدم وحواء..121
الجنة الأرضية وجغرافية القرون الوسطى 122
الإيمان بالعصر الألفي 123
العنف الألفي 124
مفهوما الألفية والتطور..124

ملامح الحيز الأفقي ودوره في صناعة السعادة........ 126
مفهوم الجنة في الحيز الأفقي 127
القرون الأخيرة للسماء المقدسة 130
هجوم على نظرية مركزية الشمس........ 132
السماء تتغير 134
الجحيم في أعماق الأرض والجنة في السماء........ 135
تحطيم العمودية 135
انحسار اليقينيات 136
الحلم بالجنة الأرضية........ 139
هل يمكن للإنسانية أن تعيش دون طوباوية؟ 141
الفصل الخامس الجنة الإسلامية 143
أسماء الجنة 145
موقع جنة عدن 146
ملذات الجنة 149
الوصف المادي للجنة:........ 151
الوصف المعنوي........ 152
هندسة الجنة 152
الحديث النبوي والملذات في القرآن 154
الأنثى في الحديث النبوي........ 155
الجنة عند الشيعة الاثني عشرية........ 156
صاحب الزمان........ 157
الفكر مقابل النقل 160
المعتزلة أولًا 160
إخوان الصفا 163
من الجنة السماوية إلى الجنة الأرضية........ 165
ملاحظات نهائية........ 165
الجنة السماوية في عصر النهضة 169

هل هناك فراغ في الجنة 170
الجنس بعد الموت.. 171
هل مارس آدم وحواء الحب؟.. 174
آداب الجنة 176
الغنى الإسلامي الى حد الترف 177
جنة أبي العلاء المعري 179
لا إمام سوى العقل.. 184
دانتي والكوميديا الإلهية 185
المؤمن والخلق غير المكتمل.. 187
من السماء السابعة إلى الفراغ الفلكي.. 192
التوفيق بين الخلق والتطور.. 199
الإسلام والدارونية 201
التطور للجميع وغد مشرق.. 203
هذا هو النضال النهائي! 207
الجنات الجديدة للغربيين.. 210
الجنة، على الفور.. 211
المصادر والمراجع باللغة العربية 217
المصادر والمراجع باللغة العربية أولاً.. 218
المصادر الأجنبية.. 223
المعاجم والموسوعات الأجنبية 223
المصادر والمراجع باللغات الأجنبية.. 224

يتفق علماء الأنثروبولوجيا على أن الدين ظاهرة متجذرة في التاريخ البشري، حيث لم يخلُ أي مجتمع قديم من وجوده. في كتابه "تاريخ الجنة"، يستهل الدكتور فالح مهدي بطرح تساؤلات جوهرية: لماذا نشأ الدين؟ وكيف امتدت جذوره عبر الزمن؟

يتناول المؤلف الدين كأقدم ظاهرة ثقافية عرفها الإنسان، تعود إلى أكثر من مليون سنة. وعبر البحث عن جذور هذا الإيمان، يكشف لنا عن الأمل الذي زرعه البشر في حياتهم، والذي انعكس في مفاهيم مثل الحياة الخالدة، كما يظهر في كتاب الموتى عند قدماء المصريين وملحمة جلجامش السومرية.

***



منذ السبعينيات، ركّز الدكتور فالح مهدي على الشأن الديني، فصدر له «البحث عن منقذ» عام ١٩٧٢، وتبعه كتاب «أسس وآليات الدولة في الإسلام: النموذج العراقي» بالفرنسية عام ١٩٩١. أنجز أيضًا دراسات في أنثروبولوجيا القانون. بالعربية، مثل «مقالة في السفالة» كما صدر له عن بيت الياسمين «نقد العقل الدائري الخضوع السني والإحباط الشيعي»، «استقراء ونقد الفكر الشيعي»، «صلوات العالم»، «البحث عن جذور الإله الواحد»، «تاريخ الخوف»، «البؤس الأنثوي».

www.yasmin-pub.com



ISBN 978-9-77817-316-1
9 789778 173161